

الطبعة الثالثة 2022 م

# تلك الأسباب 2

قبل أن يرتد إليك طرفك

د. سمير الغول

  
Vibes 28 Publisher



الكتاب: تلك الأسباب- الجزء الثاني- قبل أن يرتد إليك طرفك

الكاتب: د. سمير الغول

التصنيف: ديني / فلسفي / علمي

الناشر: VIBES 28 PUBLISHER

رقم الطبعة: الطبعة الثالثة

سنة النشر: 2022م

الترقيم الدولي (ISBN): 979-8-9857819-1-5

#### حقوق النشر محفوظة ©



الناشر: VIBES 28 PUBLISHER  
بلنجهام – واشنطن - الولايات المتحدة الامريكية.

P.O: 21867

Tel: +1(360)-865-4660

Email: [Info@Vibes28publisher.com](mailto:Info@Vibes28publisher.com)

لا يجوز دون الحصول على إذن خطي من المؤلف استخدام أي مادة من مواد هذا الكتاب أو استنساخها أو نقلها كليًا أو جزئيًا — في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطرق إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الطباعة وإعادة النشر أو الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



# الإهداء

إلى روح أبي وأمي أهدي هذا الكتاب.





# الفهرس

1	المقدمة	1
5	الفصل الأول: علم آدم الأسماء	2
25	الفصل الثاني: قُرَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ	3
41	الفصل الثالث: عَمَّ بِالْقَلَمِ	4
51	الفصل الرابع: وَالْقَمَرَ إِذَا تَسَّقَ	5
63	الفصل الخامس: وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا	6
77	الفصل السادس: فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ	7
95	الفصل السابع: مَنْطِقَ الطَّيْرِ	8
111	الفصل الثامن: قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ	9
139	الفصل التاسع: حور عين	10
163	الفصل العاشر: إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ	11
175	الفصل الحادي عشر: أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ	12
189	الفصل الثاني عشر: إِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ	13
193	الفصل الثالث عشر: فَقَدَرُ عَلَيْهِ رِزْقَهُ	14
197	الفصل الرابع عشر: يَسْعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا	15

---

202	المصادر . . . . .
-----	-------------------



## المقدمة

الحمد لله رب العالمين

بعد تقديم الجزء الأول من كتاب (تلك الأسباب)، والذي استطاع من خلال اللفظ القرآني بيان بعض الإشارات والدلالات العلمية، وقدم بعض الاقتراحات، وطرح مجموعة من الأسئلة؛ نقدم اليوم الجزء الثاني من سلسلة الكتاب راجين الله عز وجل أن يلهمنا الصواب والتسديد.

قبل أن أشرع في تعريف الجزء الثاني، كان لزاماً أن أوضح الفرق بين مدلول كلمة معجزة وكلمة آية حتى تبدو الأمور واضحة لا لبس فيها، عندما نحاول بحث كيف حدثت معجزة من المعجزات، نحن في الحقيقة نبحث خلف آية من آيات الله، وليس معجزة بمعناها الحرفي؛ فكلمة معجزة بالنسبة للإنسان تعني شيئاً يعجز الإنسان عن الإتيان به، وهذا اللفظ لم يأتي في كتاب الله واصفاً آيات الله.

إطلاق لفظ المعجزة على آية من آيات الله هو تسمية بشرية خالصة لا تعكس حقيقتها، وإنما تسميتها بالآية هي التسمية التي أرادها لها رب العالمين.

يطلب الله سبحانه وتعالى من عباده تدبر آياته، سواء الآيات الكونية أو الآيات اللفظية، والتدبر ما هو إلا محاولات دؤوبة من البحث والتقصي وطرح الأسئلة. إن كانت مهمة كتاب (تلك الأسباب) بالأساس هي فهم الآيات الكونية وقراءة الكون من خلال اللفظ القرآني، ومقارنته بالحقائق العلمية، فإن فهم وتأويل الآيات اللفظية يسير جنباً إلى جنب مع الآيات الكونية.

كلمات الله الناطقة المتمثلة في الألفاظ القرآنية، وكلماته الصامتة المتمثلة في القوانين الطبيعية تحمل كنوزاً معرفية لا حصر لها تحتاج لباحثين مسلحين بالمعرفة الحديثة، لاكتشاف أسرارها، واستخراج مكنونها وإيجاد العلاقة التي تربط بينهما. إن كان علماء الطبيعة يستخرجون

كنوز الكلمات الصامته من خلال الإبحار، والغوص، ودراسة التفاصيل الدقيقة للمادة ومحاولة فهم النشأة والتكوين الأول، فقد انتهجنا نفس المنهج حيث الغوص في الحروف والكلمات لفهم خصائص وصفات التعبيرات القرآنية العجيبة.

إن أكبر مصيبة أمت بفهم اللفظ القرآني من وجهة نظري هو الخلط الواضح والفج بين التعبير المتعارف عليه لسان العرب وبين التعبير القرآني لسان عربياً. حتى نستوضح هذا اللبس ومن ثم نخلص إلى المنهج الذي استخدمناه في سلسلة كتاب الله الأسباب لا بد أن نعود إلى فهم نشأة اللغة ونحدث بشكل مختصر عن نظريات نشأة اللغة عن الإنسان.

يتكون هذا الجزء من أربعة عشر فصلاً:

### الفصل الأول: علم آدم الأسماء

تناول هذا الفصل نشأة اللغة وتطورها والذي كشف كثيراً من الغموض والالتباس في فهم قدرة الإنسان على التسمية. أجب هذا الفصل عن سؤال هام وهو لماذا يختلف مدلول الكلمات في القرآن الكريم عن مدلول بعض الكلمات لدى المتحدثين باللغة العربية؟

### الفصل الثاني: قرأنا عربياً لعلكم تعقلون

يتناول هذا الفصل مفهوم كلمة عربي، ومفهوم كلمة الأعراب، والفرق بين المسميات في كتاب الله والمسميات البشرية. وسوف نتعرف في هذا الفصل على مدلول كلمة الأعراب، والتي ليس لها أي علاقة بأهل البادية (القرآن ليس كتاباً عنصرياً) وإنما هي وصف لنماذج من البشر في مجتمعات معينة، وكيف ينتشر الأعراب هؤلاء في المجتمعات البدائية ذات الصوت الواحد والأنظمة السلطوية.

### الفصل الثالث: علم بالقلم

يتطرق هذا الفصل إلى افتتاحية سورة العلق، وعلاقة الأمر الإلهي «اقرأ» بالعلق، وما هو التعليم بالقلم؟

### الفصل الرابع: وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ

يتناول هذا الفصل تصحيح مفهوم خسوف القمر المتعارف عليه، ويشير إلى كيفية تناول القرآن للظاهرة بشكل مغاير للوصف البشري التقليدي.

### الفصل الخامس : وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا

تطرق هذا الفصل إلى ظاهرة الكسوف الشمسي، وكيف أن القرآن الكريم وصف الظاهرة وأشار إليها من خلال سورة كاملة وهي سورة الشمس. تم تحليل الألفاظ المتعلقة بهذه الظاهرة لنكتشف بلاغة اللفظ القرآني في وصف كل حركة وكل حالة وصفاً محكماً دقيقاً.

### الفصل السادس : فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ

تناول هذا الفصل لفظ الرعد والصواعق والودق من خلال كتاب الله لنكتشف كيف وصف القرآن الأشياء بشكل بسيط وواضح، ولكن لسبب غير معروف لم ننتبه لهذه التوصيفات.

### الفصل السابع: مَنْطِقَ الطَّيْرِ

تناول هذا الفصل الآية التي خص الله به نبيه سليمان وهي فهم منطق الطير، وما علاقة منطق النمل بمنطق الطير؟ هذا الفصل يحمل تساؤلات أكثر بكثير من كونه يحمل إجابات، لعل هذه التساؤلات تجد إجابات عند أهل التخصص، أو حتى تفتح عيون البعض على كم من المعلومات التي تنتظر من يكتشفها.

### الفصل الثامن: قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ

استكمل هذا الفصل مشاهد من حياة نبي الله سليمان، وتحديدًا عملية نقل العرش التي تمت في أقل من لمح البصر.

### الفصل التاسع : حور عين

تناول هذا الفصل مفهوم الحور العين من خلال تحليل جذر الكلمات ومقارنة الآيات؛ حيث أثبتت النتائج أن هذا التعبير القرآني العظيم أشمل وأعم مما نعتقد. إننا أمام حالة فريدة من التجدد والاستمرارية يجسدها التعبير القرآني (حور عين) أعمق بكثير من رؤيتنا الحالية.

### الفصل العاشر: الكوثر

يتناول هذا الفصل تفسير سورة الكوثر حيث تحليل اللفظ القرآني لا يرحح أبداً أن يكون الكوثر نهر في الجنة خاص برسول الله صلوات ربي عليه، سورة تحمل كل ما يمكن أن يقال في مفهوم التنمية البشرية، وكلمات غاية في الإعجاز والإبداع، إنه حقاً تقدير العزيز العليم.

### الفصل الحادي عشر: أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ

تطرق هذا الفصل إلى قصة زواج الرسول الكريم من زينب بنت جحش، والتي فسرها المفسرون بعيداً عن فهم وتحليل اللفظ القرآني. هذا الفصل يثبت كيف يمكن لتفسيرات لا تقوم على أساس علمي أن تسبب كوارث وتسيء أكثر مما تنصف.

### الفصل الثاني عشر: إِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ

يتناول هذا الفصل التعبير القرآني العظيم (إِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ) ليكتشف أن الخلق المذكور في الآية هو من الخلق وهو التكوين وليس السلوك والتصرف. الآية تخاطب الإنسان بصفة عامة مرشدة إياه نحو عظمة عظمته وخلقته وتكوينه وليس سلوكه وتصرفه.

### الفصل الثالث عشر: فَقَدَرُ عَلَيْهِ رِزْقَهُ

يتناول الفصل مسألة ابتلاء الفضل والزيادة، وهي وقوع الفضل والزيادة في حق الإنسان، أي أن الله يمن على الإنسان فوق ما يستحق، وعندها يقول الإنسان ربي أكرم من. يشرح الفصل كيفية أن الله لا يبتلي الإنسان بشئ خارج الحسابات وحتميات الوجود.

### الفصل الرابع عشر: يَسْعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا

يتعرض هذا الفصل لآية واحدة في كتاب الله تدحض كل فتاوى القتل والتدمير وتصدق جرس إنذار عند كل من يتبنى هذه الفتاوى وتحذره من أنه يعمل ضد كلمات الله.

## الفصل الأول: علم آدم الأسماء

اللغة لدى الإنسان هي وعاء الأفكار، وبدون لغة صحيحة سوف يكون التعبير عن الأفكار زائفاً في كثير من الأحيان، بل ويمكن أن يكون التأثير مقلوباً ومعكوساً على غير الحقيقة وغير المراد تماماً.

مثال بسيط، جاء في التراث، خلال حروب الردة، حيث أسر جيش خالد بن الوليد مجموعة على رأسها رجل يقال له مالك بن نيرة، وكانت من وصايا الخليفة أبو بكر الصديق للجيش (أن يؤذّنوا ويقيموا إذا نزلوا منزلاً، فإن أذنّ القوم وأقاموا، فكفوا عنهم، وإن لم يفعلوا فلا شئ إلا الغار (الغار يعني المهجوم عليهم)).

عندما أسر الجيش هذه المجموعة، اختلف أصحاب خالد بن الوليد هل هؤلاء القوم أقاموا الصلاة أم لا. قبل اتخاذ أي قرار، كانت الليلة شديدة البرد، فأمر خالد منادياً فنادى: (أدثوا أسراكم) يقصد وقايتهم من البرد الشديد بالوسائل المتاحة وقتها. لفظ أدثوا في لغة كنانة (قبيلة عربية) تعني القتل، فقتل الجنود الأسرى، حيث كان القائم على هؤلاء الأسرى رجال من قبيلة كنانة.

مثال واضح على كيف يمكن للغة أن تحدث كوارث إذا لم تكن معبرة تعبيراً حقيقياً عن الفكرة. الفرق بين مدلول اللفظ القرآني وبين مدلول الكلمة لدى الناس أحدث خلطاً لا مثيل له، وتبايناً في الآراء، واختلافاً لا يمكن أن تخطئه العين، إنه الفرق بين مسميات حقيقية في كتاب ينطق بالحق، وبين مسميات بشرية خليط بين مسميات حقيقية ومسميات بشرية يحتمل فيها أن تكون حقيقية وأن تكون غير حقيقية كما سوف نرى. سؤال هام، لماذا اللغة الآن ولماذا؟ لم تكن عائقاً أمام تقدم الأمة في السابق وفي عزم مجدها؟ الإجابة يمكن تلخيصها في نقطتين رئيسيتين:



النقطة الأولى، لم يكن هذا الفرق ذا تأثير ملحوظ بسبب بدائية المجتمعات وقتها، وتغلب عادات القبيلة، فإذا حدث خلل في أمر ما، فلن تحدث ضجة وجلبة أخلاقية كبيرة في مقابل ثورة معرفية وأخلاقية على كل المستويات الأخرى. مثال ذلك حرية الاعتقاد الراسخة في كتاب الله، ومع ذلك اختبأت تحت المفهوم البشري وأصبح إجبار الناس على الإيمان واجبا مقدسا، رغم أن هذا المفهوم لا يمت للقرآن بصلة.

مع تقدم الأمم الأخرى، وبفعل التطور العقلي والمعرفي، وهو الاتجاه الطبيعي للبشرية، ظلت المفاهيم القديمة لدى "العرب" سائدة ومسيطر، فضلت الأمة عن المفاهيم الحديثة، وأصبحت تقف على ما يصل إليها من تطور أخلاقي من الأمم الأخرى، بل وفي كثير من الأحيان حاربت الأمة هذا التطور الأخلاقي بحجة أنه يعادي كتاب الله كما حدث في مسألة الرق والعبودية. النقطة الثانية التي أسهمت في تقدم الأمة في السابق، هي أن القرآن الكريم كان وما يزال يحمل داخل كلماته وألفاظه كنوزا معرفية لا حصر لها، متجددة تحتاج تفاعل مستمر معها.

عندما تفاعل المعاصرون وقتها مع هذه الألفاظ والكلمات، حدثت طفرة غير مسبوقة على المستوى المعرفي والأخلاقي، تمثلت في مفهوم جديد للعدالة، والمساواة، وعدم العنصرية، وحرية الاعتقاد (التخلص من سيطرة البشر)، وحرية الاختيار على قدر العصر الذي يعيشون فيه. على قدر استيعاب العقول وقتها، وعن طريق هذا التفاعل الأول، وُلدت أمة قوية تصدر لمحيطها مفاهيم غاية في الروعة.

تقدمت هذه الأمة رغم العوائق العديدة التي تمثلت في الحكم المنفرد، وإذكاء نعرات قبلية لا تمت للإسلام بصلة، ولولا هذه العوائق، لصارت جميع الأمم تنشد الإسلام. قوة الدفعة الصاروخية الأولى لهذه الأمة استطاعت تخطي كل العقبات، وساعد على ذلك عدم وضوح تلك المفاهيم الإنسانية الراقية لدى الأمم الأخرى بنفس قوة وضوحها لدى الأمة الإسلامية.

مع استمرار تقدم الإنسانية وتطورها، بدأت أمم عديدة تتعرف وتستشعر قيمة القيم الإنسانية ومفاهيم مثل: الحرية، وحق الإنسان في التعبير، وحق الشعوب في تقرير المصير. في هذا الوقت، كانت الأمة الإسلامية متوقفة تماماً عن التفاعل مع كتاب الله، و مكتفية تماماً بما حصلته في عصورها الأولى، ظناً أنه لا يوجد جديد، ولا يمكن فهم القرآن أفضل من الفهم السابق.

بذلك أصبحت مفاهيم ومدلولات الكلمات لدى القبائل العربية القديمة هي المسيطرة على كتاب الله. في هذا الجو الملى بالمفاهيم البشرية القديمة، بدأت مفاهيم عصرية مثل الحرية، وحق تقرير المصير، حقوق الإنسان وحق التعبير، والديموقراطية والتطور لا تجد لها مكاناً في الفكر الإسلامي، بل على العكس من ذلك- كما ذكرنا- ظهر تيار يلعن تلك المفاهيم باسم الإسلام، ويكفر معتنقيها، ويصادر حق المعرفة والتفكير لصالح الجيل الأول. نتيجة طبيعية لهذا الجمود الفكري، كان تراجع مكانة وقيمة الأمة "الإسلامية"، لأن الله لا يحب الجلود والتحجر ولا يرفع الجهل.

سؤال منطقي وملح، كيف لنا أن نفهم كلمة ما بخلاف ما فهمه أهل الجزيرة، أو ما يسمون بالعرب؟

للأسف ننطلق من مسلمات وضعناها لأنفسنا وصدقناها رغم الدلائل التي لا تقبل الشك والتي تشير إلى غير ذلك. هل كان العرب (المقصود سكان الجزيرة) هم أعلم الناس بألفاظ القرآن وكلماته؟ القرآن نفسه ينفي ذلك صراحة عندما سأل "العرب" عن القرآن الأعجمي وعربي؟

(وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجْمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ الْعَجْمِيَّةُ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ) (سورة فصلت - آية 44).

معنى قولهم أَعْجَمِي؛ تعني أن كثيراً من الكلمات القرآنية لم يفهمها المتحدثين بالعربية وقتها، واحتاجت لمجهود لفهمها وبيان معناها. لو كانوا بالفعل أعلم الناس باللغة كما يسلم بذلك أغلب الناس بل كلهم بدون مبالغة، لماذا كان القدماء في حيرة من أمرهم ولماذا وصفوا كلمات القرآن بأن بعضها أَعْجَمِي.

المفسرين أنفسهم اختلفوا في تفسير معانٍ كثير من الكلمات، وتنوعت آراؤهم حولها، مما يدل على أنهم لا يملكون معنىً محددًا للكلمة، بل هي مجرد اجتهادات ووجهات نظر شخصية. كيف مع هذا الكم الهائل من الكلمات المختلف عليها يأتي من يقول أن العرب هم أهل اللغة وهم أهل الفصاحة التي لا يشق لها غبار. هذا الإدعاء صحيح مائة بالمائة عندما لا يكون هناك مقياس سليم يقاس عليه ولكن مع وجود القرآن تأكد لنا زيف هذا الإدعاء.

هناك كثير من الإشكاليات في اللغة ولكن لا يتم تداولها بشكل كبير تشير إلى أن هناك مشكلة حقيقية ولكن بدلا من عمل ورش عمل وبحث الأمر بشكل علمي ومنهجي لفهم الاختلاف خرجت مئات التبريرات والتخريجات التي لا تصمد طويلاً أمام التفكير العلمي. بعضا من هذه التخريجات تقول أن القرآن استخدم جميع لهجات أو لغات العرب في القرآن وأنه لا توجد كلمة إلى والعرب استخدموها من قبل.

هذا التخريج نفسه ينفيه الباحثين والدارسين القدامى والمحدثين عندما استخرجوا كم من الألفاظ والكلمات التي ظنوا انها من اللغة السريانية أو الآرامية أو غيرها من اللغات. هل الكتاب الذي نعتقد جميعا أنه كتاب الله يضع هكذا كلمات من كل حذب وصوب ولتحاول كل قبيلة أو تجمع بشري فهمه بحس مدلول الكلمات لديها.

لماذا يستخدم القرآن ألفاظ مختلفة ومتنوعة كما يزعمون وهذا الإستخدام سوف يشتت الناس؟ هذه الطريقة في انتقائية الألفاظ من لهجات متعددة لا تجوز على كتاب بشري محكم فكيف قبله الناس على كتاب الله؟

لماذا لم يضع الناس احتمالية أن القرآن يتحدث لغة حقيقية مائة بالمائة؛ وأن اللغات التي يتحدثها العرب وقت نزول القرآن كانت خليط بين الحقيقي وغير الحقيقي؟ رغم وضوح هذا الاحتمال بشكل منطقي، ورغم إشارة كتاب الله إلى ذلك كما سوف نرى، إلا أنه لم يتم أخذ هذا الاحتمال في الحسبان، ودراسته بشكل جدي.

لقد تعرضنا لكثير من الأمثلة في كتاب الله، وأشرنا كيف أن الإدعاء بأن سكان الجزيرة وقت نزول القرآن كانوا أعلم الناس بالقرآن هو إدعاء زائف . قد يكون هؤلاء الناس أعلم الناس بلغتهم التي يتكلمون بها ولكن القرآن جاء من الأصل النقي للغة والتي لم يكن نقياً وقتها بالكامل لدى سكان الجزيرة. يجب الانتباه إلى هذه الحقيقة والتي يؤيدها اللفظ القرآني والتفاسير التي بين أيدينا وكيف أن القوم كانوا يجهلون أكثر مما يعرفون ولكن لسبب ما جعلناهم حكماً على كتاب الله وكلمات الله.

لا تثريب عليهم والله يحكم بين العباد ، إنما السوء على الذين استكانوا واستسلموا رغم وضوح الرؤية ورغم جلاء الإدلة التي تثبت أن القرآن مختلف تماماً عن تصور القدماء، بل هو كتاب فريد ذو تركيبة لفظية لا مثيل لها.

اللغة، أو إن جاز لنا التعبير علم الدلالات الصوتية والقدرة على التعبير عن الأشياء، هي العلم الذي أعطاه الله لآدم، ذلك العلم الذي ميزه وجعله جاهزاً لتولي مسؤولية التكليف، وقادراً على التعبير عن أفكاره وصياغتها بشكل سليم، والتي أسهمت فيما بعد بشكل أساسي في تطور البشرية. لكي نستطيع فهم هذه الإشكالية، لا بد أن نلقي نظرة سريعة على نظريات نشأة اللغة، أو على الأقل النظريات الأشهر في نشأة اللغة ومن ثم فهم التعبير القرآني البديع ( علم آدم الأسماء كلها).

### نظريات نشأة اللغة

ثلاث نظريات رئيسة تفسر نشأة اللغة، وتأتي نظرية ما تعرف بنظرية الاصطلاح في المقدمة من حيث عدد المؤيدين والمتحمسين لها. هذه النظرية هي السبب الرئيس الذي يعيق

فهم كتاب الله بشكل صحيح من وجهة نظري، واستمرار العمل بها لا يمكن معه استخراج أي معرفة وعلم حقيقي يتناسب مع كتاب الخالق صاحب العلم المحيط والقدرة المطلقة.

على العكس من ذلك، نجد أن النظرية التوقيفية التي نتبناها مع بعض التعديلات قادرة على فك رموز وحل إشكالية فهم الألفاظ القرآنية من خلال مدلولها في كتاب الله نفسه، ومن خلال سياق الآية وفهم الحالة التي عبر عنها اللفظ. نظرة سريعة على هذه النظريات لكي نقف ندرك أبعاد المشكلة التي نحن بصدد حلها.

### النظرية الأولى: نظرية المحاكاة

نشأة اللغة لدى الإنسان عن طريق تقليد اصوات الطبيعة حوله، حيث تنص النظرية على أن الإنسان استطاع محاكاة أصوات الطبيعة المحيطة به وتقليدها، ومن ثم إنتاج مادة صوتية تعبر عن احتياجاته وأفكاره.

أشهر من تبني هذه النظرية من العرب؛ الخليل بن أحمد الفراهيدي، وسيبويه. كان الاعتقاد أن أصل جميع الأصوات ناتج من الأصوات المسموعة مثل: صوت خرير الماء، ودوي الريح، وأصوات الحيوانات، والطيور مثل صهيل الفرس، ونعيق الغراب، ونزيب الضبي.

يقول عبد العلابي في كتاب الأنطكي عن حروف اللغة العربية في سياق هذه النظرية: (إن كل حرف من حروف الأبجدية العربية يدل على معنى خاص، وأنه إذا عرفت معاني الحروف، أمكن معرفة معنى الكلمة العربية ولو لم تكن معروفة من قبل. ويعتقد العلابي أن لهذه الحروف معانٍ فلسفية لا يظن أنها خطرت على قلب الإنسان العربي القديم).

شئ عجيب ما يقوله عبد العلابي فما يقوله حرفياً يؤيد أن النظرية هبة إلهية رغم أن هذا الطرح جاء في معرض الحديث عن نظرية المحاكاة. نحن كذلك نعتقد بهذا التوافق العجيب وهذه العلاقات البديعة بين الحروف بعضها البعض ونعتقد تماماً بأن لكل حرف معنى فيزيائي حقيقي إضافة للبعد الفلسفي. لو عُرِف مدلول الحرف الفيزيائي بشكل سليم فسوف تتمكن من تسمية الأشياء وفهم خواصها حتى ولو لم تكن على دراية بها من البداية.

أشهر الاعتراضات على هذه النظرية جاءت حول عدم معقولية أن تكون اللغة مجرد محاكاة الأصوات الطبيعية. إذاً لو كانت كذلك، لكانت اللغة في العالم بأسره لغة واحدة وليست مجموعة لغات.

### النظرية الثانية: نظرية الاصطلاح

ملخص هذه النظرية أن اللغة هي اصطلاح يتم بين أفراد المجتمع، أي اتفاق على استخدام المسميات في وصف الأشياء، وعلى ذلك فإن الأسماء ليس لها أي علاقة بمسمياتها. أول من قال بهذه النظرية هو الفيلسوف الإغريقي ديمقريطس، ومن أهم فرضياته على صحة هذه النظرية هو أن المسمى الواحد قد يقبل عدة أسماء، ومن الممكن أن يتبدل اسمه ولا يتبدل هو. وهذه الفرضية تقول إن اللغة إنتاج بشري صرف وليست قوة إلهية.

مؤيد هذه النظرية بشدة السويسري فرديان دوسوسير، حيث يقول إن العلاقة بين الدال والمدلول اعتباطية أو عشوائية ليست مبررة، إلا أنه أقرب بوجود شئ من العلاقة بين الدال والمدلول حيث هناك بعض من الربط الطبيعي بين الدال والمدلول.

الاعتراض الأشهر على هذه النظرية: كيف يتفق الناس على استخدام مصطلح معين وهم لا يملكون وسيلة للتفاهم، إذ أن تسمية شئ معين في حد ذاتها فكرة، وهذه الفكرة كي يتم الاتفاق حولها لا بد من لغة للتفاهم، فذلك يعني أن اللغة لا بد أن تكون سابقة الفكرة.

نظرية الاصطلاح هي النظرية السائدة حالياً في فهم اللفظ القرآني حيث يفهم اللفظ من خلال مدلول الكلمة لدى الناس بغض النظر عن معنى الكلمة أو المدلول الحقيقي للفظ.

لذلك سنجد كثير من الكلمات لها معاني مختلفة تماماً، بل الكلمة الواحدة تحمل معنيين متضادان في بعض الأحيان وما هذا إلا نتيجة حتمية اعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول.

### النظرية الثالثة: النظرية التوقيفية

يُعتبر الفيلسوف اليوناني هيرقليطس هو أول من أشار لهذه النظرية، حيث يعتبر أن اللغة هبة إلهية لا دخل للإنسان فيها، وأن الأسماء تدل على حقيقة المسميات وطبيعتها، وليست اصطلاحاً أو تواطؤاً بين البشر. سادت نظرية التوقيف هذه فترة كبيرة بما لاقتته من تأييد رجال

الدين لها، ومما عزز هذه النظرية في العصور القديمة وجود عبارات في الإنجيل، وخصوصاً إنجيل يوحنا حيث جاء فيه عبارة (في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله).

استمدت هذه النظرية قوة إضافية بعد ظهور الإسلام، واعتماداً على الآية الكريمة في سورة البقرة (وعلم آدم الأسماء كلها)، صار لدينا دليل إضافي على توقيف اللغة باعتبارها وحياً إلهياً خالصاً لا دخل للإنسان فيه. ومن أشهر العلماء الذين تبنا وجهة النظر هذه من علماء المسلمين، ابن دُرَيْد في كتابه الاشتقاق، وابن فارس في كتابه معجم مقاييس اللغة والصاحبي في فقه اللغة.

هذه النظرية توارت في العصر الحديث لحساب نظرية الاصطلاح، ومع ذلك كان هناك نفر قليل يناهز على استحياء بهذه النظرية، من هؤلاء النفر المفكر الفرنسي دي بونالد في القرن الثامن عشر الميلادي والذي كان يرى أن اللغة ليست من إنتاج الإرادة البشرية، حيث أن الناس لم يتفقوا فيما بينهم على إنشاء وخلق لغة فكانت اللغة.

الإنسان من وجهة نظر المفكر الفرنسي دي بونالد لا يقدر على خلق شيء ما لم يكن لديه فكرة صريحة عن هذا الشيء، ولكي يوجد فكرة صريحة، لا بد أن يستطيع الإنسان التعبير عن هذه الفكرة باستخدام اللغة. إذاً وجود اللغة لا بد أن يكون سابق وجود الفكرة كما، وهذا يثبت أن اللغة لا يمكن أن تكون من عمل الإنسان نفسه، ولا بد أن تكون من الإلهام والوحي الإلهي.

فكرة أن اللغة لا بد أن تكون سابقة الفكرة سنجدها عند جلال الدين السيوطي في كتابه المزهر، حيث يقول لو أن اللغة اصطلاحية كان لا بد من وجود اصطلاح آخر يمكن القياس عليه، وهذا الفرضيات تؤيد بشدة عملية توقيف اللغة على الوحي الإلهي.

الدليل القرآني، والذي تمسك به البعض واستدلوا به على توقيف اللغة على الوحي الإلهي، الآية الكريمة (وعلم آدم الأسماء كلها).

يقول ابن جني (إن الله سبحانه وتعالى علم آدم أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات مثل اللغة العربية والعبرية والفارسية والسريانية وهكذا فكان آدم يتكلم بها هو وبنيه، ولما تفرق بنوه في الأرض اتخذ كل منهم لغة خاصة به، فأصبحت تلك اللغة سائدة، واندثرت تبعاً لذلك اللغات الأخرى). ذهب آخرون إلى أن (علم آدم الأسماء) أي أن الله علمه أسماء النجوم، والبعض يقول إنه علمه أسماء الملائكة، وآخرون يرون أنه علمه أسماء الله الحسنى، وذهب بعضهم إلى أن الله علم آدم أسماء ذريته.

من أشهر الاعتراضات على هذه النظرية:

الاعتراض الأول: وجود التضاد ينفي أن هذه اللغة من عند الله، ومثال ذلك اللون والذي يدل على الأبيض والأسود.

الاعتراض الثاني: يقول دوسوسير (ما ينفي كون اللغة من عند الله هو أن اللغة عاجزة جذرياً عن الدفاع عن نفسها ضد العوامل التي تنقل من لحظة إلى أخرى، العلاقة بين الدال والمدلول، وهذه إحدى اعتباريات العلامة).

الاعتراض الثالث: لو تعلم آدم كل الأسماء لكان تعلم أسماء لا يعرفها مثل الطائرة والحاسوب.

بعد استعراض هذه المقدمة البسيطة عن نظريات اللغة، سوف أضع في السطور التالية تصوري الخاص عن النظرية التوقيفية، التي يقوم عليها المنهج المستخدم في كتيبي؛ ومن ثم الرد على الاعتراضات الموجهة للنظرية، مع إضافة بعض النقاط التي أعتقد بأهميتها إلى النظرية التوقيفية.

أرى أن النظرية التوقيفية هي أكثر النظريات قبولاً لتفسير نشأة اللغة، وأن الاعتراض الأول والثاني على هذه النظرية يزولان بشكل نهائي إذا اعتبرنا أن القرآن الكريم هو أصل اللغة، وأن المسميات فيه مسميات حقيقية، وأن كل مسمى يصف حالة معينة من حيث خصائصها وصفاتها.



قد يكون الاعتراض الأول والثاني له وجاهته في اللغات الأخرى أو حتى في اللغة العربية التي تختلط فيها المسميات الحقيقية مع المسميات غير الحقيقية والتي هي من إنتاج البشر. اعتماد القرآن الكريم كمرجع أساسي للغة، وليس لسان المتحدثين القدامى، سوف يضبط هذه اللغة ويصحح التسميات، ولن يبرز التضاد في المعنى الواحد؛ حيث أن الكلمة القرآنية تصف حالة محددة وليست اسم جنس. التضاد هو نتيجة طبيعية لتجسيد الكلمة بينما نرى أن الكلمة حالة عامة لا يمكن فهم مدلولها إلا من خلال فهم خصائص وصفات الكلمة ذاته والتي هي نتيجة طبيعية لترتيب معين للحروف والأصوات.

الاعتباطية في العلامة هي نتيجة طبيعية لتحريف الكلمة لدى البشر فأصبحت الكلمة أو اللفظ لا يدل على معناه. قد يسود معنى فرعي للكلمة ويختفي المعنى الأساسي لها، مما يجعل الكلمة غير دالة بذاتها، وهذا الاعتراض سوف يزول تماماً عند اعتبار القرآن المصدر الرئيسي لفهم اللغة والمرجع الأول لفهم حالة اللفظ.

الاعتراض الثالث هو خلط واضح بين مفهوم لفظ علم ولفظ عرف، الاعتراض قائم على أن الله عرف آدم، أي أنه عرض عليه جميع الأشياء ثم بدأ في تعريفه بها، فيما يشبه عملية الحفظ وترديد مسميات. العقل في هذه الحالة يصبح ذاكرة تخزين فقط لا يقوم بأي عمليات عقلية. إلا أن مدلول كلمة (عَلَّمَ) التي جاءت في الآية الكريمة على غير ذلك.

الفهم المتآني للتعبير القرآني ( علم آدم الأسماء كلها) هو الكنز الثمين الذي دفعنا إلى النظرية التوفيقية وفهم الاعتراضات والرد عليها بشكل بسيط.

### علم آدم الأسماء

علم آدم الأسماء تعني أن الله أعطى لآدم القدرة على التسمية وليس معناه أن الله عرف آدم تسمية الموجودات. لفظ العلم ذاته من خلال القرآن نجد أنه لفظ من خصائصه وصفاته استخدام قدرات عقلية راقية من المشاهدة والتحليل والاستنتاج ومعالجة المعلومات

التي لديه. بعد هذه المعالجة تأتي مرحلة استخدام الدلالات الصوتية في التعبير عن الفكرة أو عن المسمى أيا كان.

العلم الذي وهبه الله لآدم يشتمل على استخدام الدلالات الصوتية بشكل سليم للتعبير عن الفكرة. هذا العلم هو الفارق الأساسي بين مفهوم البشر وبين مفهوم الإنسان (مذكور بالتفصيل في فصل التطور الجزء الثالث). مفهوم العلم هو القدرة على الاستنباط والفهم، وهو ميزة البشر، والتي احتاجت لإعداد طويل بحيث استطاع الإنسان التفوق على كل المخلوقات بما فيهم الملائكة في القدرة على التسمية.

كل نظريات التطور تقف حائرة أمام نشأة اللغة، ولا يُعرف كيف نشأت اللغة عند الإنسان، ولا توجد أدلة علمية كافية ترحح نظرية معينة. ويبدو هذا التحول أو هذا التطور واضحاً شديد الوضوح عندما قال الله: (إني جاعل في الأرض خليفة)، وما تلا ذلك من نفخ الروح، وهي العملية الإلهية التي جعلت الإنسان ينتقل لمرحلة البشر، ويكون قادراً على التعامل مع المعطيات المتاحة، ومن ثم استطاع استخدام الدلالات الصوتية حيث كل صوت له تردد معين يرتبط ارتباطاً وثيقاً بحالة فيزيائية محددة.

مكنت هذه الطفرة الإنسان من التعبير عن أفكاره، وبالتالي تحويل مسار حياته بالكامل، بل ووظيفته، وأصبح قادراً على تحمل التكليف والمسئولية. لا يمكن فهم هذا التحول بدون فهم نظرية التطور، وميكانيكية عملها، والدلالات الصريحة على التطور في كتاب الله (الجزء الثالث: كتاب تلك الأسباب).

استطاع آدم عليه السلام التعبير عن جميع المسميات المعروضة أمامه بشكل عبقرى، وبناء على هذا العلم كانت لديه قدرة على تسمية أي شيء يقع تحت يديه، فهو لم يسم الطائرة، ولو أنها كانت معروضة عليه لما تردد لحظة في تسميتها، وهذا ما يفيد أن الله سبحانه وتعالى علمه الأسماء، أي القدرة على التسمية باستخدام الدلالات الصوتية المعينة، أو ما يمكن أن نسميه

نظرية التسمية أو ميكانيكية التسمية. يقول ابن جني ما الحكمة من تعلم آدم جميع اللغات حيث أن وظيفة اللغة الأساسية هي التواصل، ويتحقق هذا التواصل عن طريق لغة واحدة.

كما يبدو من كتاب الله أن آدم لم يتعلم كل اللغات بل تعلم كيفية التسمية باستخدام الدلالات الصوتية. وأصل هذه الدلالات الصوتية هو ما جاء في القرآن الكريم، وقد تكون الحروف المقطعة في بدايات السور القرآنية هي إحدى المفاتيح الرئيسية لفهم هذه الدلالات الصوتية، وكيفية عملها وارتباطها بالقوانين الكونية.

بناءً على النظرية التوقيفية التي ننتهجها في كتاب (تلك الأسباب)، فإن التسميات في كتاب الله تسميات حقيقية تماماً، قد تتوافق مع مفهوم الناس كثيراً، وتختلف أحياناً عما يفهمون بسبب عوامل الزمن. سوف يظل الاختلاف قائماً بين ما يمكن إثباته عن طريق النظرية التوقيفية وبين ما يفهمه الناس من خلال نظرية الاصطلاح، لن يحل هذا الجدل إلا الغوص وفهم النظرية بشكل صحيح دون اجتزاء. لا شك أن النظرية التوقيفية بشكلها الحالي تعاني قصوراً في بعض النقاط، إلا أن إضافة بعض التعديلات قد يسمح بفهمها فهماً شاملاً.

كما ذكرنا أن علم الأسماء الذي أعطاه الله لآدم هو علم القدرة على التسمية، وهو علم متكامل بحيث يشمل القدرة على فهم خصائص وصفات طبيعة الأشياء، ومن ثم التعبير عن هذه الأشياء باستخدام دلالات صوتية معبرة. هذه القدرة هي من النفخة الروحية الأولى التي أعطاه الله لآدم حيث الوعي والإدراك، ثم انتقل بعد ذلك من خلال آدم لكل البشر سواء بالوراثة أو بالتعليم.

(كيف انتقلت اللغة من آدم بالوراثة وكيف انتقلت بالتعليم تجردونه بالتفصيل في الجزء الثالث عن التطور من خلال الجزء الخاص بخلق الإنسان). في البداية استطاع الإنسان البشري استخدام الدلالات الصوتية بشكل عبقرى للتعبير عن المسميات، ووصفها وصفاً صحيحاً وحقيقياً، طالما أن هذه المسميات تقع في نطاق معرفته، ويملك معطيات عنها بشكل

واضح. ودائماً ما كانت التسمية أو القدرة على التسمية تتم عن طريق قانون وسلطان صارم من ضمن التقدير الحكيم والتصميم البديع للخالق.

هذا القانون هو الذي أودعه الله في البشر، ولو جاز لنا التعبير لقلنا أنه البرنامج الإلهي الذي حصل عليه الإنسان مع تطور قدراته، وخصوصاً تطور الوعي والإدراك لديه. مع التطور الإنساني وتشعب المجتمعات بدأت حاجة المجتمعات ووجهات النظر في التباين، فظهرت المسميات المختلفة، فأصبح للمسمى الواحد عدة أسماء حسب رؤية كل مجتمع لهذا المسمى. بعض من هذه المسميات لا تتبع القانون الأصلي الضابط لعملية التسمية، ولذلك عبر عنها ربنا في أكثر من موضع في كتاب الله أن هناك أسماء سماها الناس هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان، حيث السلطان هو القانون المنظم لعملية التسمية:

(قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ) (سورة الأعراف، آية 71).

(مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (سورة يوسف، آية 40).

(إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِّن رَّبِّهِمْ الْهُدَى) (سورة النجم، آية 23).

جميع هذه الآيات تشير بكل دقة إلى أن التسمية لها قانون وسلطان وأن البشر انحرفوا عن ذلك وتخلوا، أو تناسوا، أو لم ينتبهوا لهذا القانون والسلطان فجاءت تسمياتهم بدون سلطان، أي غير معبرة عن الشيء تعبيراً حقيقياً. التسمية تعني هنا وصف الشيء، وإسم الشيء يعني وصفه وسمته. مجرد أن نعتقد أن اسم الشيء هو علامة هذا الشيء دون دلالة حقيقية، فهنا نكون قد خرجنا من المفهوم القرآني لمعنى الاسم وأصبح الاسم بالفعل اعتباري الدلالة.

هذا عجز واضح وهذا العجز يمكن قبوله على تسميات البشر لكن لا يمكن أبداً قبوله على تسميات الله في القرآن. يجب أن ينتبه الناس لذلك لأن بقولهم، التسميات في القرآن تسميات كما سماها الناس القدماء، جعلوا كلمات الله خليطاً بين مسميات حقيقية ومسميات اعتبارية وهو قول عظيم نزهه كلمات الله عنه.

هذا الخلط بين المسميات الحقيقية التي تتبع القانون الإلهي وبين مسميات الناس التي لا تتبع هذا القانون هو سبب كل الارتباك والتشويش في فهم كتاب الله. اللغة الحالية التي بين أيدينا تنطبق عليها كلتا النظريتين: النظرية التوقيفية، وهي تلك التي تختص بجميع الألفاظ الواردة في كتاب الله، وهي تسميات حقيقية من النبع الأول. أما نظرية الاصطلاح وهي التي تختص بالمسميات التي تعارف عليها الناس وهذه المسميات يحتمل فيها أن تكون تسميات حقيقية، وربما تكون تسميات غير حقيقية.

هذا التوافق بين التوقيف والاصطلاح ليس جديداً؛ فقد حاول أفلاطون التوفيق بين النظريتين التي تقول بالتوقيف والاصطلاح، حيث القول إن الله وضع في الإنسان القدرة على التسمية ثم تركه يسمي كيف يشاء. وهذا بالضبط ما ذهبنا إليه من أن الله وضع في الإنسان القدرة على التسمية ثم انطلق الإنسان يسمي الأشياء، وبسبب عوامل الزمن والتداخلات المختلفة جاءت بعض التسميات موافقة تماماً لحقيقة المسميات، ولكن في بعض المواقف الأخرى اختلف الاسم عن حقيقة المسمى، أو أنه كان وصفاً ظاهرياً، كما سوف نرى في الأمثلة التي يحتويها هذا الكتاب.

من هنا علينا وضع الحدود الفاصلة بين التسميات القرآنية وبين التسميات البشرية وعدم التعجل بالخلط بينهم مما يساهم في ضياع صفة اللفظ القرآني. عندما عجزت بعض العقول عن فهم دلالات بعض الكلمات قالوا إن هذه الكلمات على سبيل المجاز أو يقصد بها شيء آخر. لماذا لم يتطرق الناس لفهم حقيقة اللفظ ولماذا لم يبحثوا تلك الكلمات في اتجاه الحقيقة بدلاً من اتجاه المجاز. المجاز في حد ذاته هو قصور في الوصف الحقيقي ويلجأ الإنسان إلى التعبير

المجازي بسبب عامل ما يمنعه من التعبير الحقيقي المباشر، وهذا الفرض لا يجوز على كلمات الله. لذلك من الأفضل قبل القول على كلمات الله أن فيها المجاز التريث قليلا وفهم ماذا يعني ذلك حتى لا نساهم في ضلال الآخرين.

لا شك أن نقص المعارف والعوز المعلوماتي هو السبب الرئيسي في عدم القدرة على فهم الكلمة بشكل سليم، فيحاول الإنسان تخيلها أو تصورها بشكل ما. من الأمثلة الواضحة على هذا التصور الذهني الخالص كلمة الطور والتي فسرها المفسر قديما على أنها اسم جبل. عند تحليل الكلمة تبين أن خلف هذه الكلمة تاريخ طويل من المعلومات وجبال من المعرفة، لذلك جاءت هذه الكلمة كعنوان للجزء الثالث من سلسلة تلك الأسباب والتي تحكي تطور الإنسان وتطور الحياة على الأرض.

الحل الأمثل هو افتراض أن كل كلمات القرآن حقيقة ثم إذا استعصت كلمة فلا داعي تأويلها بالمجاز ولكن علينا التحلي بالصبر في بحثها ودفح الاحتمالات حولها بدلاً من الجزم بالمجاز في كتاب الله وهو خلاف الحقيقة. أعلم جيداً أم القول بالمجاز في القرآن الكريم هو قول راسخ ولكن بشئ من التريث سوف نكتشف أنه قول خطير على كلمات الله والدفح به غير محمود العواقب.

القول بالمجاز أعطى الفرصة لكل متقول على كتاب الله أن يقول ما يريد، ولما لا والكلمات تحمل معاني متفرقة. العودة إلى فرضية أن كلمات الله كلمات حقيقية هي السبيل الوحيد إلى لجم التقول على كتاب الله. نعم فرض أن كلمات القرآن كلها حقيقية فرضية ليست سهلة فهناك كم رهيب من الكلمات لا يمكن فهمه أو حمله على الحقيقة والأفضل القول بالمجاز حتى نتجنب كثير من الإشكاليات. القول بأن كلمات الله كلها حقيقة ليست فرضية خيالية وإنما هي فرضية من داخل كتاب الله.

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلَهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) (سورة الأنعام : آية 73).

القرآن هو قول الله وقول الله هو الحق بمعنى الحقيقة المطلقة فلا ينبغي أن نعتقد أن قوله أو كلماته لا تحمل الحقيقة وإنما مجازية. لا أدري لماذا لم يقف أهل اللغة على هذه الآية وينطلقوا منها للاقرار بان كلمات الله حقيقية وتحمل الحقيقة المطلقة ويجب التعامل معها من هذا المنطلق.

(مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ كُفْرٌ قَوْلِكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ) (سورة الأحزاب : آية 4).

قوله الحق فهل هناك مجال للقول أنه قوله ليس الحق أو أنه مجاز وهل هناك عذر في اعتبار قول الله في كتابه غير الحقيقة المطلقة. هل بالفعل ندرك ذلك وندرك أن قوله الحق يعني أن كل كلمة تحمل الحقيقة المطلقة وندرك أبعاد هذه الفرضية التي تفتح أبواب المعرفة على مصراعها أمام البشرية. عندما يجد الباحث مخطوطة قديمة يعتبر نفسه محظوظ للغاية لأنه سوف يستخرج معلومات غاية في الروعة من هذه المخطوطة القديمة. ما بالكم بكتاب الخالق بل أعظم مخطوطة لأن معها ضمان إن ما فيها حقيقي بل الحقيقة المطلقة.

هناك دليل آخر شديد الوضوح وهو لفظ الذكر كما بيناه في الكتاب الرابع قولاً ثقيلاً وهو الأشياء المحفوظة بذاتها، وقلنا أن هذه الصفة صفة الحقائق الثابتة. عندما يصف ربنا كلامه وآياته بأنها الذكر فهذا يعني أنها الحقائق المطلقة الثابتة ويجب الإنطلاق منها لفهم ما سواها. وصف قول الله وكلمات الله وآيات الله أنها الحق جاء في أكثر من موضع ولا يجب التحول عنها بسهولة مما يسبب ضياع كلمة الله بين الناس.

(وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ) (سورة يونس : آية 82).

(فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ  
الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) (سورة يونس: آية 94).

(قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَخُذُوا زِينَتَكُمْ لِيُذَكَّرَ الَّذِينَ يَخْلَوْنَ  
مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَا يُضِلُّهُمْ أَعْمَالُهُمْ إِنَّهُمْ لِنَفْسِهِمْ وَمَنْ  
ضَلَّ فَأَنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ) (سورة يونس: آية 108).

(أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً  
أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ  
مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ) (سورة هود: آية 17).

(وَكَلَّا نَقْصُصْ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ  
وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ) (سورة هود: آية 120).

لا نطلب إلا أن نقف قليلا ونتفكر في ما يقوله الله بعيدا عن التحيز فهو يخاطبنا نحن  
ويطلب منا تدبر هذا الخطاب. نحاول في هذه السلسلة تفنيد الكلمات وتحليلها قدر استطاعتنا  
وقد استخرجنا بالفعل كم ليس هين من المعلومات وفهم الكلمات وكل ما نحتاجه هو مزيد  
من الوقت ومزيد من الباحثين وعدم التعجل.

### التضاد في اللغة

النقطة المثيرة للاهتمام هي وجود التضاد في الكلمات مما يعني كون اللغة هبة إلهية.  
عند بحث كثير من الكلمات وجدنا أن التضاد ما هو إلا ظاهرة غير صحيحة ولكن بمزيد من  
التدقيق وجدنا أن اللفظ يحمل حالة لها خصائص وصفات معينة ولكن الناس فهموا اللفظ  
بطريقة خلقت التضاد فيه وهو برئ من هذا الخلط. من أشهر الألفاظ التي يظهر فيها هذا  
التضاد هو لفظ العبد إذ يقول المعجم أن عبد تحمل معنيين متضادين .



عند تحليل كلمة عبد في الجزء الثالث من الكتاب وجدنا أن المعنى شئ مختلف تماماً وهو أن لفظ عبد يعني حالة من التكليف أو المسؤولية. عند تطبيق مفهوم العبد على ألفاظ القرآن ظهر مفهوم الحرية لأول مرة من خلال مفهوم العبد ذاته واستطعنا فهم مجموعة كبيرة جداً من الآيات على رأسها آية القصاص التي شملت مفهوم الحر والعبد والأنثى.

ما نود قوله أيضاً هنا أن التضاد في اللفظ هو تصور بشري ويجب التدقيق والبحث لاستخلاص معنى اللفظ بعيداً عن التضاد حتى تتكشف حقيقة اللفظ وفهم الحالة التي يصفها اللفظ. هناك أمر لا بد من الإشارة إليه وهو أن كثير من الألفاظ يذكر المعجم أنها لها عدد كبير من الأصول أو الجذور وهذا الفرض أيضاً من وجهة نظري لا يدعم كون اللغة هبة إلهية.

لقد كان لنا لقاء مع كثير من هذه الجذور خلال صفحات السلسلة واستطعنا دمج كل الجذور وبيان أن اللفظ له أصل واحد قد يتفرع منه بعض الاصول الأخرى. المثال الواضح على ذلك جاء في الكتاب الرابع قولاً ثقيلاً عندما قمنا بتحليل لفظ الأمر حيث جاء في قاموس اللغة أن لفظ أمر له خمسة أصول. مع تحليل اللفظ وجدنا أن كل هذه الأصول متفرعة من أصل واحد وليست خمسة كما جاءت في المعجم.

المسألة ليست بهذه البساطة ولا يمكن أن نُحمل باستخفاف. فرضية أن اللغة إنتاج بشري فرضية سوف تضيع المفاهيم التي تحملها كلمات الله وتجعل من كلمات الله نص تاريخياً. كذلك فرضية أن اللغة هبة إلهية لا بد أن تحل الإشكاليات وإلا نكون كمن يكتب على الماء. ما نفعه في سلسلة تلك الأسباب هو محاولة لفت نظر الناس إلى هذه البديهية ونسوق الدليل خلف الدليل ونقول للناس أن الأمر بسيط ولكن يحتاج منهج علمي يقوم على أسس منضبطة في فهم اللفظ القرآني. لا يمكن أن ينزل الله كتاب ويسميه قرآناً ثم يترك الناس تقول فيه ما تشاء كما تشاء. هذا الكتاب لا بد له أن يحمل مفاتيح فهمه ولا بد لكلماته أن تكون حقيقية. نظرية الاصطلاح التي يتبناها القوم ويفسرون من خلالها اللفظ القرآني

كمن يستخدم وثائق مزورة لكشف وفهم وثائق أصيلة. قد تمنح الوثائق المزورة بعض المعرفة مصادفة ولكن تبقى المعرفة الكاملة مطموسة ما لم يستطع الباحثين فك رموز الوثائق الأصيلة عن طريق مقياس أصيل.

نقطة أخيرة أود الإشارة إليها وهي أن كثير من كلمات القرآن اختلف حولها الناس بل إن الرسول ذاته لم يفسر أغلبها وأشهر هذه التعبيرات الحروف المقطعة مما يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن القرآن جاء من خارج الإطار المعرفي للرسول، والني متفاعل مع النص بقدر ما يحمل من معارف دون تحيز أو هوى. هذه الفرضية متوافقة تماماً مع أن القرآن يحمل الحقائق المطلقة حيث كل جيل يرى وجه من الحقيقة أو يحاول الوصول للحقيقة. الرسول ليس نهاية البشرية وليس مطلوباً منه فهم وتبيان جميع الحقائق المطلقة التي يحملها اللفظ وليس له ذلك، لأن هذه الرسالة رسالة للإنسانية كافة وليس لشخص واحد؛ حيث كل جيل يغترف منها بقدر ما يتاح له من معارف.

قبل أن ندخل لفهم معنى عرب والأعراب سوف اضع النقاط الرئيسية للمنهج المستخدم في تحليل اللفظ القرآني كما استنتجته من خلال دراسة نظريات نشأة اللغة ومن خلال فهم بعض الآيات القرآنية التي تشير إلى اللغة عن الإنسان واللفظ والكلمة في كتاب الله. أيضاً يحتوى المنهج بعض النقاط التي تم استنتاجها من تحليل بعض الآيات المتكررة والتي تصف مشهد واحد من زوايا متعددة.

### ملخص المنهج:

اللغة هبة إلهية من الله اصطفى آدم وأعطاه القدرة على التسمية ووصف المسميات بكل دقة (النظرية التوقيفية) والتي انتقلت منه إلى البشرية.

ألفاظ القرآن جميعها ألفاظ حقيقية ليس فيها مجاز ولها خاصية الإفصاح عن نفسها وتحمل مفاتيح فهمها. الألفاظ خارج القرآن يحتمل فيها أن تكون حقيقية تصف المسمى بكل دقة؛ أو غير حقيقة ليس لها دلالة أو اعتبارية.

جذر الكلمة يمثل حالة عامة لها صفات وخصائص محددة ولكل كلمة جذر واحد فقط، ولا يمكن وصف الجذر بكلمة واحدة بل بتعبير كامل.

الحالة العامة للجذر لها مدلولان: مدلول مادي يمكن تجسيده ومدلول لا مادي يحمل نفس الصفات والخصائص.

المدلول الصوتي للحروف يمثل حالات فيزيائية.

وجود أكثر من أصل للجذر الواحد يتنافى مع كون اللغة هبة إلهية لذا يجب دراسة الأصول المتعددة وإرجاعها إلى أصل واحد.

لا يمكن للجذر الواحد أن يحمل أصلاً متضاداً لأن ذلك يتنافى مع كون اللغة هبة إلهية. والصحيح أن للجذر أصل واحد يمثل حالة عامة تفرع منها التضاد. ( المعاجم بها أصول متضادة وهذا يتنافى مع النظرية التوقيفية).

لا يمكن فهم اللفظ إلا من خلال السياق وفي إطار الحالة التي يصفها بكل دقة دون التدخل بالزيادة أو النقص.

يصرف اللفظ إلى الحالة الأشهر التي يمثلها ما لم توجد قرينة تصرفه إلى حالة أخرى بدليل قوي، وليس مجرد رؤية شخصية.

آيات القرآن جاءت من خارج الإطار المعرفي للنبي صلوات ربي عليه فتفاعل معها واستخرج الأحكام فجاءت أقواله وأفعاله بخلاف القرآن من داخل إطاره المعرفي.

## الفصل الثاني: قرأنا عربياً لعلكم تعقلون

هل القرآن جاء بلسان العرب أم بلسان عربي؟ حالياً يفهم الناس تعبير أن القرآن الكريم بلسان عربي على أنه لسان العرب، وهذا غير صحيح علمياً، ولا يمكن استيعاب الفرق بسهولة. الحروف المقطعة التي جاءت في افتتاحية السور جاءت لتقول إن القرآن الكريم ليس بلسان العرب ولكن بلسان عربي. أكثر من مائة كلمة عدها السيوطي على أنها ليست من لسان العرب تثبت أن القرآن بلسان عربي وليس بلسان العرب. (ملحق الكلمات في نهاية الكتاب).

تقوم فكرة الكتاب على هذا الاختلاف الواقع بين التسميات البشرية والتسميات الإلهية. وعن طريق فهم التسميات الإلهية، استطعنا فهم كثير من الظواهر الطبيعية وكثير من المعلومات الزاخر بها كتاب الله، والتي سوف تجدونها في الفصول المتتابعة في كل أجزاء الكتاب.

اقتصر فهم كلمة عربي على أنها تعني وصف شخص يتحدث العربية، يجعل من القرآن كتاباً خاصاً جداً موجهاً لمجموعة من البشر تقطن تلك المنطقة المسماة بالعربية. على النقيض من ذلك، لو فهمنا لفظ عربي كما ذكره ربنا في كتابه، لتحول هذا الكتاب إلى رسالة عالمية ترتبط بقوانين ثابتة يمكن فهمها إذا توفر العلم القادر على فهم الكلمات ومدلولاتها لأي فرد كان.

اللغة، وأقصد الألفاظ القرآنية، هي لغة كونية تقوم على أسس وقوانين غاية في الدقة، ما إن يتم اكتشاف هذه القوانين، إلا ويتمكن الياباني والفرنسي والإفريقي من فهم هذه اللغة وفهم ما تعنيه ألفاظها دون الحاجة لترجم عربي؛ فهي تشبه إلى حد كبير الرياضيات، أو الفيزياء، أو قل إذا شئت الموسيقى أو حتى كرة القدم. هي لغة عالمية تقوم على مقاييس وأقدار محددة، تحتاج لجهود جبارة، وأفكار ابتكارية وفرق عمل متنوعة لإيجاد هذا القانون وربطه بالقانون الكوني.

اللغة العربية التي تكلم بها البشر تختلف عن بعضها البعض، حتى في أصولها القديمة، كما يذكر ذلك الدكتور عبد المجيد عمر في كتابه (منزلة اللغة العربية بين اللغات المعاصرة دراسة تقابلية) حيث يقول: (نشأت اللغة العربية الفصيحة في شمالي الجزيرة العربية، ويرجع أصلها إلى العربية الشمالية القديمة التي كان العدنانيون يتكلمون بها، وتُصنّف اللغة العربية ضمن مجموعة اللغات السامية الوسطى، أي ضمن اللغات السامية الشمالية الغربية، وتشمل اللغة الآرامية، والعبرية، والكنعانية وهي أقرب اللهجات السامية للعربية، وتختلف العربية الشمالية عن العربية الجنوبية القديمة التي نشأت في جنوبي الجزيرة، المعروفة باللغة الحميرية التي تكلم بها القحطانيون). لا يمكن الادعاء بأن القرآن جاء على مقاس مجموعة من البشر يتحدثون اللغة العربية، واعتبار أنهم هم من أنشأوا هذه اللغة الرائعة. أو من تماماً أنه لا توجد لغة من إنتاج البشر قادرة على استيعاب المفاهيم والمعلومات الإلهية بشكل صحيح وحقيقي، ولا بد أن تكون اللغة إنتاجاً إلهياً، حتى تستوعب كل هذا الكم من المعارف الذي لم نصل حتى إلى الإمساك بأحد أطرافه. القرآن الكريم عبر عن ذلك عندما ذكر لفظ (عربي) مقروناً دائماً بكتاب الله، فكيف نفهم مدلول كلمة (عربي) من خلال كتاب الله؟

### كُتَابٌ عَرَبِيٌّ

جذر كلمة عربي كما في قاموس اللغة هي (عرب)، وتعني الإنابة والإفصاح، ومثال ذلك نقول أعرب عن نفسه أي أظهر نفسه بشكل ما أو بصورة ما. نسب القرآن إلى لفظ عرب يعني أن القرآن يحمل صفات وخصائص الإنابة والإفصاح، أو بمعنى آخر أن القرآن يفصح عن نفسه بنفسه. على ذلك فكل كلمة قرآنية تحمل هذه الخصائص، ولن يكون ذلك كذلك إلا أن تكون أصوات الحروف ذاتها ذات دلالات فيزيائية واضحة.

من خلال القرآن سنجد أن لفظ عربي ليس له أي علاقة بمسمى البشر الذين ينتسبون للعربية فقط بسبب تحدثهم هذه اللغة. وكلمة عرب لم تُذكر ولا مرة واحدة في كتاب الله، ولم يرد وصف مجموعة البشر الذين يتحدثون العربية بأنهم عرب أبداً، والوصف الوحيد الذي يظن

الناس أنه يصف العرب هو وصف أعرابي، وهو أيضاً وصف لا يصف العرب ولكن يصف مجموعة من البشر حاملي صفة وشخصية معينة كما سوف نرى.

وردت كلمة عربي في كتاب الله في أحد عشر موضعاً كلها تصف كتاب الله بلا أي استثناء.

الآية الأولى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (سورة يوسف، آية 2)

الآية الكريمة تنتهي بلفظ لعلكم تعقلون، أي أن هذا القرآن كونه عربياً، يحتاج إعمال العقل، فالخطاب موجه للعالم، وليس كما يقول المفسرون أنه موجه للعرب بصفة خاصة؛ فليس في كتاب الله ما يوحي أنه للعرب دون سائر الأمم، بل جاء التأكيد دوماً أن القرآن هدى للناس، والعرب ليسوا كل الناس. فإذا كان الخطاب موجهاً لكل الناس، فلا يعني لفظ (عربياً) اللغة التي يتحدث بها أهل هذه المنطقة، ولكن المعنى المستقيم أن يكون كلماته وألفاظه يبين بعضها بعضاً، وذات دلالات واضحة لكل من يملك الأدوات المنطقية والعقلية. هذه الآية نجد فيها إشارة إلى كلمات القرآن الكريم وألفاظه، في أنها تتبع قانوناً وحسابات يستطيع العقل إدراكها وليست اعتباطية أو تعتمد على رؤية البشر الشخصية، مرة أخرى إنه القانون الذي ينظم تلك الألفاظ ويضبطها ويخبرنا أنها ألفاظ نُظمت بقانون صارم. إنها آية تؤكد لنا أن كل كلمة لها دلالة حقيقية ولا يمكن إن يكون دلالتها عشوائية بحسب أمرجة البشر في كل عصر.

الآية الثانية: (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ

مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ) (سورة الرعد، آية 37)

هذه الآية تخبرنا أن الحكم الذي أنزله الله في كتابه وأمر الناس به حكماً عربياً؛ أي حكماً

يُفصّل بعضه بعضاً، ويفصح عن نفسه. كل محاولات فهم هذا الحكم بعيداً عن كتاب الله

كارثة؛ فالعلم جاء مقصوراً في هذا الكتاب. ومن هنا يصبح تدبر اللفظ القرآني ومحاولة فهمه

كما جاء في الكتاب ضرورة، وأي تقصير في ذلك بالحجج التي يسوقها القوم بأن اللغة العربية التي تحدثها القدماء هي الحجة والمرجع الأساسي لفهم القرآن الكريم مصيبة تُضاف إلى مصائبنا العظام. عدم الانتباه لمدلول هذه الآية ذو تأثير مباشر واضح في مجموع لا حصر له من الأحكام والتشريعات التي انتهجت فهم العرب ولم تحاول فهم الكلمة واللفظ كما جاءت في القرآن.

الآية الثالثة: (وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ

وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) (سورة النحل، آية 103)

هذه الآية تحمل الحدود الفاصلة بين لسان العرب أو المتحدثين بالعربية وبين الألفاظ التي جاءت في القرآن الكريم بلسان عربي مبين واضحة لا لبس فيها. إذا كان المفسرون اختلفوا في صفة الشخص الذي زعم أهل مكة أنه يعلم رسول الله كما ورد في التفسير، فما لا شك فيه أن هذا الذي يلحدون إليه يتحدث كما يتحدثون العربية بلسانهم لأنهم يدعون أن محمداً صلوات ربي عليه يتعلم من هذا الشخص، ومحمد بشهادتهم يتكلم بلغتهم، ومن كلامهم، ولكن يصعب عليهم فهم ما يقوله بشكل كامل؛ هذا اللسان الذي يلحدون إليه لا بد أن يتحدث كما يتحدثون، إلا أن القرآن وصف لسانه بالأعجمي.

فسر المفسرون كلمة أعجمي بأنه غير مفهوم ولكن لو نظرنا إلى كلمة أعجمي في هذه الآية سنجد أن كلمة أعجمي تعني شيئاً آخر، الجذر الثنائي لكلمة أعجمي هي: العين والجيم تعني زيادة في الشيء أو ارتفاعاً، أما الأصل الثلاثي كما في قاموس اللغة لابن فارس لها ثلاثة أصول: أحدها الصمت والسكوت، والآخر الشدة والغلظة، والثالث عضٌّ ومذاقة. يقول ابن فارس إن الرجل أو المرأة التي لا تفصح يقال عنه أو عنها أعجمية أو أعجمي، ومن هنا يمكن أن نقول إن كلمة أعجمي تدل على عدم الفصاحة، ولا أقصد الفصاحة بمفهومنا الحالي وإنما بمعنى أن الكلمات لا تفصح عن نفسها، أو أن دلالات الحروف لا تعبر عن المسمى بشكل كامل.

إذا كانت الأسماء لا تعبر عن المسمى ولا تتبع القانون والبرنامج الإلهي للتسمية، تصبح الكلمة أعجمية، أي تسمية غير حقيقية. هذا هو الفرق الجوهرى بين ألفاظ القرآن وبين ألفاظ

ومسميات العرب، فالقرآن لسان عربي كل كلمة فيه تفصح وتنيب عن نفسها، ومدلول حروفها يصف المسمى وصفاً حقيقياً، بينما كلام العرب يختلط فيه العربي والأعجمي بنص كتاب الله.

الآية الرابعة: (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا) (سورة طه، آية 113).

الآية الخامسة: (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) (سورة الشعراء، آية 195)

الآيتان السابقتان استكمالاً لبيان أن القرآن نزل بلسان عربي، أي أنه يفصح عن نفسه ويفهم من نفسه بنفسه. وليس المقصود لسان العرب كما هو متعارف عليه.

الآية السادسة: (قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) (سورة الزمر، آية 28).

في هذه الآية تقرير أن القرآن كونه عربياً أي يفصح عن نفسه لا يوجد فيه أي شذوذ، وما نراه من قواعد ومحاولات بشرية لتفسير القرآن، والقول إن هناك بعض القواعد شاذة أو أن هناك بعض الكلمات لا عمل لها أو أنها زائدة لا يتعدى كونه تقصيراً في فهم القواعد بشكل سليم، ونقصاً واضحاً في المعرفة. لو تم فهم القرآن بالقرآن وقياس الكلمات على بعضها البعض، سوف يستقيم المعنى ويختفي الاعوجاج.

كلما استعصى أمر على الفهم، حاول المفسر أو الباحث تفسيره بناءً على ما يملكه من معارف، ولو أن الأمر سار بشكل مختلف بحيث أصبحت كل معضلة مفتاحاً للبحث والتفكير بشكل مختلف ربما اختلف الأمر كثيراً. الأصل في العلم عدم التعجل، ولكن فهم ما يمكن فهمه، ومحاولة البحث خلف ما لا نستطيع فهمه، ومن ثم التعبير عن الأفكار بلغة الاحتمال وليس باللغة القطعية، حتى لا نشوش على الناس ونربك تفكيرهم. القول بأن القرآن به كلمات غير عربية أو أنها معربة هو قول يتعارض كلياً مع ما قرره ربنا بأن القرآن عربي غير ذي عوج، أي مفهوم ويفصح عن نفسه. لا يمكن أن تكون الكلمات في كتاب الله معوجة ولكن



الفهم هو المعوج. لا يمكن لشخص في وضع مقلوب إدراك الوضع الطبيعي، ومن يسير في الاتجاه العكسي يعتقد أن الآخرين هم من يسرون في الاتجاه العكسي.

الآية السابعة: (كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (سورة فصلت، آية 3)

لفظ «يعلمون» في الآية الكريمة مشتق من العلم، والعلم يقوم على عمليات عقلية غاية في التعقيد، مثل التحليل والاستنتاج، كون القرآن عربياً فهو متاح لقوم يعلمون. لا بد أن يمتلك القرآن كونه عربياً مفاتيح تجعله مفهوماً لكل من يملك هذه الأدوات العلمية وليس مجرد لغة وراثية. أسوأ ما يمكن أن نواجهه في هذه الجزئية أن يأتي شخص يصرخ بأعلى صوته إن كنت محقاً فلتخبرنا بمعنى كلمة إبراهيم أو الأسماء الأخرى الأعجمية في القرآن؟

إنه خلط واضح وتعجل لا يليق بباحث، فما أقوله هنا أن الشواهد والأدلة تسير في هذا الاتجاه، مجموع الأدلة على أن القرآن مفهوم بذاته وعربياً تعني الإفصاح والإنابة أكثر بكثير ولا تقارن بالقول أن القرآن جاء بلسان القوم الذين يعيشون هذه المنطقة المسماة عربية. العقل غير القادر على وزن الأدلة وترجيح كفة إحداها اعتماداً على العقل والمنطق لا نملك له من الله شيئاً، وإن كان يوجد إلى يومنا هذا من يقول بأن الأرض مسطحة ضارباً عرض الحائط بمئات الأدلة والشواهد ومتبعاً فقط دليل واحد أو دليلين هل يمكن أن نقنع تلك العقول بقضية معقدة كقضية اللغة ونشأتها.

الآية الثامنة: (وَوَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَلْغَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ

لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ) (سورة فصلت، آية 44)

في هذه الآية الكريمة، كما جاء في تفسير الإمام الطبري، (إن أهل مكة قالوا عن القرآن أَلْغَمِيٌّ يَسْتَنَكِرُونَ)؛ هذا دليل دامغ على أنهم لم يفهموا بعضاً من معاني القرآن، لذلك سواء كان استفهام أو استنكار فهو تقرير أنهم لم يفهموا بعضاً من ألفاظ وكلمات هذا الكتاب ولم

تستقيم مع مفاهيمهم، لأن مسميات الأشياء لديهم خليط من المسميات الحقيقية والمسميات التي ما أنزل الله بها من سلطان. فلما جاء القرآن وجدوا أنه يحوي كلمات أعجمية لأنهم لم يفهموها.

إن عدنا للآيات السابقة التي تقطع دون شك بعربية القرآن فسوف نستنتج تبعاً لذلك أن العجمة هي في لسان أهل الجزيرة بشكل لا يمكن إنكاره. بعد هذه الآية الكريمة يجب أن يتوقف من يقولون إن أهل الجزيرة هم أفضل من فهم القرآن؛ هاهو القرآن يقرر أنهم قالوا عن القرآن أعجمياً، فكيف نصدق أنهم أكثر من فهم القرآن؟

ألفاظ القرآن لا تتبع قانون العرب، بل تتبع قانوناً إلهياً لم يتوصل له العرب أو غيرهم حتى الآن، وسكان المنطقة التي تدعى عربية ما هم إلا مستخدمين للغة، أو قل آخر مجموعة من البشر تستخدم اللغة الأقرب للغة الأصلية إلى حد كبير فقط لا غير.

الآية التاسعة: (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ

يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ) (سورة الشورى، آية 7)

الآية العاشرة: (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (سورة الزخرف، آية 3)

الآية الحادية عشر: (وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا

عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ) (سورة الأحقاف، آية 12)

كما نرى أن عربية ألفاظ القرآن ليس لها علاقة بمسمى العرب المتداول، وإنما لفظ

عربي يصف حالة الإنابة والإفصاح التي تتمتع بها كلمات وألفاظ هذا الكتاب العظيم. لا شك

أن العرب عندما نزل القرآن تحيروا وقالوا مرة عنه سحر، ومرة شعر، ومرة أقوال كهنة، ومرة

أعجمي كما أخبر القرآن. إن دل هذا التحير على شيء فإنما يدل على إدراكهم أن القرآن من

جنس اللغة التي يستخدمونها، ولكن يستخدم مفردات وتراكيب لم يعهدها زمانهم.

الأمر أشبه بأهل قرية أو إحدى الحارات الشعبية ممن يستخدمون اللغة الدارجة في

حياتهم اليومية؛ هذه اللغة متأثرة بعوامل شتى. ومرور الوقت أدى لظهور مفردات جديدة

واندثار مفردات أصيلة، وتحول في مدلول كلمات كثيرة. لو فرضنا أن أهل هذه المنطقة ليس لديهم أى نوع من العلم أو المعرفة ثم جاء رجل من مكان آخر يتكلم بلغة عربية فصحي سليمة مائة بالمائة لم يعهد أهل هذه المنطقة هذه التراكيب وهذه التعبيرات من قبل. ماذا سوف يكون رد فعلهم؟

لن يستطيعوا إنكار أن هذه اللغة عربية. أقصى ما يمكن فعله في هذا المضمار هو إنكار بعض الألفاظ التي لم يتعرفوا عليها بشكل كامل، والوضع الطبيعي في تلك الحالة أن يؤمن أهل القرية أو تلك المنطقة أن ما يتكلم به الرجل هو الصواب، وعلى ذلك تتم مراجعة كل ألفاظهم، ومحاولة تقويمها ومعايرتها على مفردات وتعبيرات الرجل المثقف. للأسف ما حدث في الواقع هو العكس، وهو الكارثة التي أمت بهذه الأمة.

لقد حاول أهل هذه المنطقة فهم كلام الرجل المثقف من خلال مدلول الكلمات والألفاظ لديهم، وحاولوا فهم جميع الكلمات الغريبة عن طريق تقريبها لأقرب معنى متوافق مع كلماتهم وتعبيراتهم، ولم يحاولوا الاجتهاد لإيجاد منهج علمي يمكن على أساسه مقارنة الكلمات ومقارنتها للوصول للمعنى الحقيقي لها. الأدهى من ذلك أنهم وضعوا قانوناً ينص على أن كل كلمة من كلمات الرجل الفصيح ليس لها أصل لديهم لن نلتفت إليها وليس لها أي قيمة، إننا نضرب الأمثال هنا لتقريب المعنى ومحاولة فهم ما وصلنا إليه وما نحارب من أجله.

ادعاء البعض أن القرآن نزل بلغة أهل الجزيرة وجاء لهم خصيصاً يشبه الادعاء بأن الرجل المثقف يخاطب أهل القرية أو المنطقة الشعبية بلغتهم وأهل هذه المنطقة هم أعلم الناس بهذه اللغة، لكن الحقيقة بعيدة كل البعد عن ذلك. الطريقة المثلى هي محاولة فهم كلام وخطاب الرجل المثقف من خلال كلامه نفسه، وقياسه بعضه على بعضه، أو محاولة فهمه من السياق العام. مرة أخرى ليس معنى ذلك أن جل كلام العرب غير دقيق وإنما كلامهم أخلط بين ما هو عربي وبين ما هو غير عربي وعملية تنقية اللغة أمر ممكن عند اعتماد اللفظ القرآني هو اللفظ المؤسس.

من ضمن الأمثلة الواضحة على فهم مدلول كلمة على غير مدلولها في كتاب الله لفظ (الأعراب) الذي يعرفه العرب على أنهم أهل البادية ولكن القرآن الكريم له رأى آخر.

### الأعراب

من هم الأعراب؟ لفظ أعرابي أو أعراب ليست بعيدة عن لفظ عربي، فالجذر واحد وهو يعنى الإنابة والإفصاح كما ذكرنا. وبناء على الآيات القرآنية وتتبع وصف الأعراب في كتاب الله نجد أن لفظ الأعراب يصف حال مجموعة من البشر ومفردها أعرابي، وهو كل من يحاول الإفصاح عن نفسه؛ أي محاولة تقدم نفسه في صورة من صور الظهور المجتمعي.

يمكننا القول أن هذا الوصف يصف محب الشهرة والظهور وغالباً ما تكون هذه النماذج في مجتمعات بسيطة تفتقر لمعايير حقيقية لفرز أفرادها، حيث يعتلي سلم الوجاهة الاجتماعية في هذه المجتمعات أصحاب المال أو الأكثر عدداً، بعكس المجتمعات المتعددة والمختلطة كما سوف نرى والتي يتم الفرز فيها على أساس الكفاءة ومعايير حقيقية نوعاً ما. عشر آيات في كتاب الله جاء فيها ذكر الأعراب، تسع آيات وصفتهم بأوصاف ذميمة مثل البخل والنفاق والرياء، وآية واحدة استثنت مجموعة منهم.

من خلال تتبع جذر الكلمة ومن خلال مدلول الكلمة في كتاب الله يتضح - كما سوف نرى - أنهم وجهاء المجتمع وأصحاب الحظوة، يملكون المال ويتصدرون المشهد، والساعون لذلك. غالباً ما يكون هؤلاء أتباع مصالحتهم وأتباع كل من يعظم فائدتهم. أما أهل البادية ومن خلال القصص التاريخية والواقع الاجتماعي هم قوم يتميزون بالصراحة والبساطة، وحتى الغلظة والجفاء التي قال عنها المفسرون أنها من طبائعهم. هذه الطبائع تتعارض بشكل صريح مع النفاق والرياء والبخل الذي وُصِفَ به الأعراب. القرآن الكريم ليس كتاباً عنصرياً حتى يصف مجتمعات كاملة بالنفاق والرياء هكذا، وهذه المجتمعات متباينة لدرجة كبيرة.

سوف نحاول استعراض الآيات الكريمة وفهمها من خلال القرآن نفسه ومن خلال جذر الكلمات والواقع لكي يكتمل مفهوم الأعرابي أو الأعراب.

الآية الأولى: (وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (سورة التوبة، آية 90)

لفهم هذه الآية الكريمة ينبغي أن نسأل، من الذين يعتذرون ليؤذن لهم؟ هم بالطبع أهل القدرة على الفعل وأصحاب الواجهة الاجتماعية في مجتمعاتهم ويتبعهم ويسير خلفهم أقوامهم، ولولا ذلك ما كان اعتذارهم مبرراً. اعتذارهم مع قدرتهم ومكانتهم جعلتهم عرضة لعذاب أليم من الله، بعكس الذين لا يجدون ما ينفقون أو الضعفاء، فقد قال الله عنهم أن ليس عليهم حرج.

(لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (سورة التوبة، آية 91).

الآية الثانية: (الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (سورة التوبة، آية 97)

الذين أشد كُفْرًا ونفاقًا هم أصحاب المصالح، وليس كما يقول التفسير عموم أهل البادية، الواقع لا يقر بذلك، تميز أهل البادية بالغلظة والجفاء لا يتفق مع وصفهم بالنفاق. بل العكس هو الصحيح. الغلظة والشدة والجفاء غالباً ما تكون مترافقة بالصراحة وصدق الاعتقاد بغض النظر عن هذا الاعتقاد. صدق الاعتقاد على النقيض تماماً من النفاق والكفر. المقصود هنا بالأعراب هم أهل المصالح وأهل الظهور في مجتمعاتهم، وغالباً ما يكونون في مجتمعات بسيطة لا تحتكم إلى مقاييس عادلة وحقيقية في اختيار وفرز الأصلاح. يحاول الأشخاص في هذه المجتمعات الإعراب عن أنفسهم والظهور، سواء عن طريق المال أو تصدر المشاهد العامة مخبرين عن حالهم، متطلعين لقيادة مجتمعاتهم البسيطة.

لماذا أجدر ألا يعلم الأعراب حدود ما أنزل الله على رسوله؟ إذا كان الأعراب كما يقول الناس هم أهل البادية فهذا حرمان لأهل البادية من العلم والمعرفة، وهم أحق الناس

بالعلم والمعرفة حتى تستقيم مفاهيمهم، إنما الأعراب هنا هم أهل كفر، أي يعرفون الحق ويجحدونه، وهذا ينطبق تماماً مع الشخصيات المنافقة المحبة للظهور والوجاهة وخصوصاً إن كانوا ليسوا بأهل لهذه المكانة الاجتماعية.

هذا النموذج من محبي الظهور والتسلق لا يضع الله في حسابه، وإنما يضع السلطة والقوة التي تمنحه دوراً مميّزاً في مقدمة اهتماماته، دائم الحركة، متطلعاً لإبراز دوره، وفي أثناء محاولاته الدؤوبة لكي يتبوأ مكانة رفيعة في مجتمعه، يخلط بين عبادة البشر وعبادة الله في صورة من صور الشرك الواضح، يخطب ود السلطة، ويخضع للقوة، ويسير خلف مصالحه. أمرُ الله بالنسبة له مضيعة للوقت، ولا يسمن ولا يغني من جوع، وتقوى الله لا تعنيه، ومفاهيم مثل المساواة والعدالة ترهقه وتحط من شأنه. هؤلاء مهما ذكرتهم بالله، نفروا، ومهما وعظتكم، هجروا؛ لذلك أجدراً ألا يعلموا حدود ما أنزل الله، فهم مشركون بالله، لن ينفعهم التذكير ولن يزيدهم إلا صدوداً. إن قلت لهم اتقوا الله، اتخذوها سخرياً، وبآيات الله يستهزئون، دين هؤلاء الأعراب مصالحهم وفائدتهم فلا ترجو منهم خيراً.

الآية الثالثة: (وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (سورة التوبة، آية 98)

في هذه الآية الكريمة ملح هام من ملاح هذه الشخصية؛ إذ يرى هذا الشخص أن ما ينفق مغرمًا، أي إنفاق بدون فائدة، ينفق قهراً، وجبراً، رغبةً في نول مكانة اجتماعية أو الحفاظ على مكانته الاجتماعية الحالية على اعتباره من وجهاء المجتمع، ورغبةً في الحفاظ على وضعه الاجتماعي. هذه الصفة المقيمة تجدها في كل أولئك المنافقين الوصوليين الذين يحاولون بشتى الطرق الوصول إلى مكانة اجتماعية مرموقة عن طريق تقديم أنفسهم للمجتمع من خلال سلطة المال، وإبراز دورهم أمام السلطة على أنهم قادرون.

لا شك أن أهم طرق الوصول للوجهة الاجتماعية هي الإنفاق في المصالح العامة وأوجه البر التي تنفع الناس، وهذا الإنفاق غالباً ما يكون قهراً ورياءً لا يُبتغي به وجه الله. الملاحظة التي يجب أن نأخذها في الحسبان من خلال الآية الكريمة هي: أن هؤلاء القوم أهل مقدرة مالية وليسوا من عامة الناس.

الآية الرابعة: (وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيَدْخِلُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (، سورة التوبة، آية 99)

هذه الآية رحمة من الله إذ استثني من الأعراب فئة يؤمنون بالله وباليوم الآخر حتى لا يصير الحكم عاماً على كل من يحاول اعتلاء قمة الهرم الاجتماعي وإبراز دوره؛ حيث هناك منهم المصلحون الحقيقيون ولكنهم قليل حيث لم يأت ذكرهم بالخير إلا في آية واحدة من بين عشر آيات في كتاب الله، وكان نسبتهم لا تمثل 10 بالمائة من نسبة الأعراب السيئين.

الآية الخامسة: (وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ) (سورة التوبة، آية 101).

الآية السادسة: (مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) (سورة التوبة، آية 120).

قد يختلط الأمر في الآيتين السابقتين على كثير من الناس، إذ أن الفرق واضح هنا بين أهل المدينة والأعراب، ولكن لو دققنا البحث سنجد أن الأعراب بصفاتهم الذميمة يتواجدون ويظهرون في المجتمعات البسيطة القائمة على الأحادية ذات الصوت الواحد، حيث

التمييز في هذه المجتمعات لا يقوم على أي أساس حقيقي وصادق، بل هي محاولات فردية من الأشخاص في إبراز دورهم والإفصاح عن أنفسهم؛ يعتمدون بشكل أساسي على دور القبيلة أو دور المال، دون أي اعتبار حقيقي للكفاءة الإدارية.

على العكس من ذلك، مجتمع المدينة هو مجتمع أخلاط تختفي فيه الأحادية والقبيلة على حساب الكفاءة والقدرات الحقيقية إلى حد ما. إنه الفرق الواضح بين المجتمعات ذات الرؤية الواحدة التي يكثر فيها أمثال هؤلاء الأعراب مقابل المجتمعات المتعددة التي يختفي فيها هذا الصنف من الناس، وتحل التعددية محل الفردية. (راجع الفرق بين القرية والمدينة - الجزء الأول- الفصل السادس)

الآية السابعة: (يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ

فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا) (سورة هود، آية 20)

كلمة بادون أشكلت على الناس، حيث فسرها المفسرون على أنها أهل البادية، ولكن

لكي نصل لمدلول الكلمة سوف نستعين بآية أخرى في كتاب الله في سورة هود:

(فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ

أَرَادْنَا بِأَدْيِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ) (سورة هود، آية 27)

في هذه الآية فسر المفسرون بادي الرأي على أنهم أراذل القوم أو سفلة القوم، ولكن

من خلال جذر كلمة بادي وأصلها بدو التي تعني الشيء الظاهر أو السطحي، وهو عكس

التمعق، نجد أن بادي الرأي تعني أصحاب الرأي الساذج أو ما نسميهم العامة الذين ليس لديهم

عمق و سطحيون.

بالعودة إلى الآية محل دراستنا، نجد أن معنى بادون في الأعراب تعني أنهم تمنوا لو

أنهم لم يشاركوكم بقوة ولم يحسبوا على فريقكم. إنها أمنية المنافقين دوماً وأصحاب المصالح إذا

تورطوا في دعم قوة ما ثم بدا لهم أن هذه القوة لن تفلح أو لن تستمر، تمنوا في الحال أن لو

كانت مشاركتهم كانت سطحية وغير ظاهرة حتى لا يفقدوا مكانتهم لدى القوى الأخرى.



بادون في الأعراب أي سطحيون في إظهار أنفسهم والإفصاح عن دورهم بينكم، تمنوا لو أنهم لم يتعمقوا معكم بالشكل الذي يمكن أن يضر مصالحهم عندما يدور الزمن دورته. عندما يرى هؤلاء أن الكرة عليكم، سوف يندمون على دعمكم، وسوف يتلصقون أخباركم فقط ليحددوا توجههم؛ فإن كان الأمر لكم تبعوكم، وإن كان عليكم جنبوا أنفسهم تكلفة نصرتمكم ومعاودة قوم آخرين، قد تكون مصالحهم معهم أكثر وثوقاً ونفعاً.

الآية الثامنة: (سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) (سورة الفتح، آية 11)

في الآية الكريمة أيضاً إشارة إلى أن هؤلاء الأعراب أصحاب أموال وليسوا من عامة الناس، وهو ما ينطبق تماماً مع متصدري المشهد في المجتمعات البسيطة، حيث أصحاب الأموال في هذه المجتمعات أصحاب حظوة وشهرة لا تخطئها العين في مجتمعاتهم.

الآية التاسعة: (قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّحُونَ فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) (سورة الفتح، آية 16).

نجد هنا أن الذين يدعون إلى الحروب هم أصحاب القدرة ورؤوس المجتمعات والقبائل، ومن ثم تتبعهم قبائلهم أو مجتمعاتهم، إذ لا معنى من دعوة من لا يملك القدرة سواء المالية أو العددية. مثال غزوة أحد لا يمكن تجاوزها عندما قرر رؤوس المنافقين، وهم بالطبع أصحاب الحظوة في مجتمعاتهم الانسحاب قبل بدء المعركة، وتبعهم نفر ليسوا بالقليل من عشائريهم؛ فالخطاب هنا موجه لأصحاب الحظوة والشهرة في مجتمعاتهم وليس كل الأفراد.

الآية العاشرة: (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (سورة الحجرات، آية 14)

صفة إضافية توضح لنا من هم هؤلاء الأعراب ومن يعبدون بالضبط؛ فعندما قالوا آمنا، والإيمان هو مخالطة العمل للقلب أو استقرار الاعتقاد في القلب وتصديقه، صحح ربنا كلامهم وقال بل قولوا أسلمنا، وأسلمنا هنا لا تعني الخضوع لله بسبب عدم مخالطة القلب، وإنما الخضوع للقوة والتسليم بالأمر الواقع. هذا النوع من التسليم هو صفة ملازمة لتلك النماذج التي ترغب في القفز من السفينة الغارقة والحاق بالسفينة الناجية.

ملاحظة جديرة بالاهتمام: ذكر لفظ الأعراب في عشرة مواضع في كتاب الله منها ستة مواضع في سورة التوبة، والتي جل وصفها عن المنافقين، ومرتين في سورة الفتح. من الواضح أن ظهور الأعراب، ومحاولتهم حجز مكان مع القوى الصاعدة كان مع بداية ظهور القوة الجديدة بقيادة رسول الله؛ فوصف الأعراب على أنهم أهل البادية لا يستقيم مع غزارة ذكرهم في كتاب الله والإشارة لهم على أنهم يحاولون دائماً الظهور وتقديم أنفسهم للقوة الصاعدة، وإنما وصفهم بأنهم أصحاب الحظوة والشهرة في مجتمعاتهم، وأصحاب قدرة مالية، ويسعون دائماً للتميز والظهور هو الأنسب والموافق للمشاهد القرآنية.



## الفصل الثالث: عِلْمٌ بِالْقَلَمِ

تعتبر افتتاحية سورة العلق كنزاً معرفياً لا مثيل له، فما هو العلق الذي خلق منه الإنسان؟ وما علاقة العلق بالأمر اقرأ؟ وما الرابط بين القراءة والعلم بالقلم.

لقد أفردنا فصلاً كاملاً في الجزء الأول من كتاب (تلك الأسباب) لشرح مراحل تكوين الجنين (خلق الإنسان من علق)، وأثبتنا من خلال جذور اللغة العربية، و مدلول الكلمة في كتاب الله وترتيب الآيات صحة مفهوم العلق على أنها العلاقة التي تكونت بين مجموعة الخلايا المخصبة وبين جسم الأم، وأن تأويل العلق على أنها كتلة دم متخثر هو وصف إغريقي خاطئ، ولا يصح ترديده بحجة أنه تفسير من ضمن تفاسير القرآن الكريم، إذ أنه خطأ علمي، والقرآن لم يشير لمسألة كتلة الدم المتخثر من قريب أو من بعيد.

كذلك وصف العلق على أنها تشبه الدودة التي علقت بالكائن الحي هو وصف ظاهري غير حقيقي يعتمد على وجهة نظر المفسر، إذ يرى أن كتلة الخلايا تشبه في مظهرها الدودة التي علقت بشيء ما، بينما من الممكن أن يرى شخص آخر أن كتلة الخلايا هذه لا تشبه الدودة وتشبه شيئاً آخر؛ فهل يعقل أن يكون هكذا تفسير قائماً على التصورات والرؤى الشخصية؟

التفسير الوحيد المقبول جزئياً هو تفسير العلق على أنها كتلة الخلايا التي علقت بالرحم، كونه مقبولاً جزئياً بسبب أن تفسير مجموعة الخلايا التي علقت، أو بمعنى أكثر دقة، تكونت بينها وبين شيء آخر علاقة هو الأقرب لجذر الكلمة في اللغة العربية، أما القول إنها علقت في الرحم فهذا ما أثبتنا عدم صحته من خلال ترتيب الآيات في كتاب الله، ومن خلال تتبع تكوين الخلايا بشكل علمي.

لقد خالصنا إلى أن مفهوم العلق الأكثر شمولاً هو العلاقة، سواء هذه العلاقة على المستوى المادي، أو على المستوى غير المادي أي غير المرئي. على هذا الأساس تأولنا العلق

كأول مرحلة من مراحل تكوين الجنين على أنها هي أول علاقة على المستوى غير المرئي تكونت بين جسم الأم وبين أول مجموعة خلايا مخصبة في غضون 24 ساعة من عملية التخصيب. بموجب هذه العلاقة التي تكونت بين جسم الأم وبين مجموعة الخلايا أصبح جسم الأم قادراً على التعرف على هذه الخلايا كجنين، وبدأ التعامل معها، ثم بدأت مجموعة الخلايا في الاستجابة للمؤثرات الفسيولوجية الصادرة من جسم الأم، إنها لحظة الإعلان الحقيقية عن قدوم كائن جديد تم عن طريق دمج خليتين إحداهما ذكورية (حيوان منوي) والأخرى أنثوية (البويضة).

العلق هو مفرد كلمة علقه، وذكر كلمة علق بصيغة الجمع هكذا في الآية الكريمة التي تشير إلى خلق الإنسان من علق، هو دليل آخر على أن العلقه لا تعني كتلة الخلايا، وإنما المعنى المستقيم هو العلقه. من غير المفهوم أن يكون العلق جمع علقه إذا كانت العلقه هي مجموعة الخلايا الأولى في تكوين الجنين، كيف يكون الإنسان خلق من علق أي مجموعة من مجموعات الخلايا؟ الحقيقة أن الإنسان خلق من مجموعة واحدة من الخلايا، على ذلك لا يمكن أن تكون العلقه مجرد كتلة خلايا ولكن وصف العلقه بالعلاقة هو الأنسب والأكثر دقة.

من هنا ذهبنا إلى أن الإنسان هو بالأساس مجموعة لا نهائية من العلاقات بدأت بأول علاقة بين جسم الأم وبين مجموعة الخلايا، وتنتهي حياة الإنسان على هذه الدنيا بقطع كل هذه العلاقات من خلال الوفاة ليستقبل الحياة الأخرى.

إذاً ما هي العلاقات التي كونت هذا الإنسان، وكيف تراكمت لتعطي بالنهاية هذه الشخصية المميزة والتي تحمل بصمة تختلف عن أي شخصية أخرى؟ كما ذكرنا أن أول علاقة أعلنت عن قدوم الضيف الجديد هي العلاقة بين جسم الأم وبين مجموعة الخلايا على المستوى غير المرئي، وما إن تمت هذه العلاقة حتى بدأت العلاقات الأخرى المسئولة عن نمو وتطور هذا الجنين في التكوين وفي التراكم. من هذه العلاقات ما هو غير مادي، مثل العلاقة الأولى بين جسم الأم وبين الجنين بعد 24 ساعة من الإخصاب، والتي بفعلها استجابت مجموعة الخلايا للمؤثرات الفسيولوجية الصادرة من جسم الأم، ومنها ما هو مادي كالعلاقة بين مجموعة الخلايا

بعد أيام وبين الرحم، والتي بفعالها علقت الخلايا بجدار الرحم، ثم علاقات عديدة ومتنوعة تنظم عمليات النمو، وعمل الهرمونات، ثم علاقات بين أجهزة الجسم بعضها البعض، علاقات تنظم التنفس، والإخراج، وعمل القلب، وتفاعل الجهاز العصبي مع باقي الجسم.

إنها ملايين، إن لم تكن مليارات العلاقات بين الخلايا وبين بعضها البعض لضمان عمل الجسم بشكل سليم وبشكل صحيح. ما إن يخرج هذا الجنين طفلاً إلا وعلاقات من نوع آخر تبدأ في التكون، علاقة الرضاعة وكيفية تنظيم هذه العملية المعقدة بحيث يصبح لبن الأم ملائماً تماماً لمراحل واحتياجات الطفل حسب كل مرحلة. هذه الاحتياجات تُقرر بناءً على تقرير مفصل يصل إلى جسم الأم عن طريق لعاب الطفل من خلال علاقة أخرى بين لعاب الطفل وبين لبن الأم. كل يوم يمر هو بمثابة علاقة أو علاقات جديدة تنشأ وتتراكم مكونة هذا المخلوق الصغير، سواءً علاقات نفسية، أو علاقات مع محيطه، أو حتى علاقات مع ما يأكل، وما يستسيغ، وما لا يستسيغ، وما يقبله الجسم وما يرفضه، علاقات باللمس، وعلاقات بالألوان، وعلاقات الشم، وعلاقات اللمس؛ هكذا تطور مستمر وتراكم لعلاقات بشكل دائم. النوع اللامادي من العلاقات لا يمكن إهماله، وهو العلاقات العاطفية والنفسية بين الطفل وبين محيطه، حيث تبدأ هذه العلاقات بينه وبين الأم، ثم الأب والإخوة، ثم تتوسع وتنتشر إلى محيطه، وبسبب هذه العلاقات تتكون الروابط، ويتميز شكل الإنسان الاجتماعي.

جميع العلاقات السابقة يشترك فيها الإنسان مع باقي المخلوقات إلا نوع واحد من العلاقات قائم على الوعي والإدراك، وهو ما يميز الإنسان عن باقي المخلوقات، بل إن جميع العلاقات الأخرى تتأثر بهذا النوع من العلاقات؛ إنها العلاقات المعرفية القائمة على الوعي والإدراك، وبدونها يصبح الإنسان في مرتبة أقل ويتشابه إلى حد كبير مع الكائنات الأخرى التي تقع في نفس المرتبة البيولوجية.

العلاقات المعرفية التي تتشكل منذ اللحظة الأولى هي المتحكم الرئيس، والمسؤولة عن تطويره وتحسينه وصيانة باقي العلاقات.

المعرفة تطور قدرة الإنسان على مقاومة الأمراض وزيادة كفاءة الجسم في مواجهة ما يصيبه. على المستوى غير المادي، نجد أن العلاقات المعرفية تحدد، وتهذب وتطور العلاقات النفسية والاجتماعية؛ العلاقات المعرفية نفسها تطور ذاتها من حيث القدرة على الاستيعاب، والفهم، والتحليل، والمقارنة والقياس. فالإنسان يتكون من تراكمات لا نهائية من العلاقات، مغلفة جميعاً بالعلاقات المعرفية، هذه التراكمات هي العلق الذي خلق منه الإنسان.

ما علاقة بداية سورة العلق والتي بدأت بلفظ اقرأ بهذه العلاقات؟ وما دلالة ذكر علم بالقلم بعد الإشارة إلى ذلك العلق أو العلاقات التي خلق منها الإنسان؟ العلاقات المعرفية تقوم على محورين رئيسين: أولهما هو محاولة فهم الدلالات والإشارات عن طريق تجميع أكبر قدر من المعلومات حولها، والمحور الثاني، العمل على هذه المعلومات والدلالات والإشارات لاستخلاص معانٍ ذات قيمة.

القراءة هي محاولة فهم، وتدبر واستنتاج الجزئيات، وهي المرحلة الأولى اللازمة لتكوين العلاقات المعرفية. الفهم السائد لعملية القراءة لدى الكثيرين هو عملية تلاوة المكتوب، وهذا خطأ شائع. تلاوة المكتوب هي عملية ترديد الجمل لا غير، أو يمكن اعتبارها تلاوة، أما عملية القراءة فهي محاولة الفهم، والتحليل والاستنتاج. لعل المثال الأشهر وما يقرب المعنى هو استخدامنا لفعل يقرأ بشكل صحيح عندما نقول إن شخصاً يقرأ الأحداث، أو إنه قرأ في وجهه السعادة، أو القائد قرأ المعركة، أو قرأ المؤامرة. ورد لفظ قرأ في كتاب الله في ثمانية مواضع:

(فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) (سورة النحل: الآية 98).

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) (سورة الإسراء: الآية 14).

(وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا) (سورة

الإسراء: الآية 45).

(وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا) (سورة الإسراء: الآية 106).

(فَقْرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ) (سورة الشعراء: الآية 199).

﴿فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (سورة القيامة: الآية 18).

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (سورة العلق: الآية 1).

﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (سورة العلق: الآية 3).

قراءة القرآن لا تعني مجرد ترديد وإعادة الآيات، وإنما القراءة هي عملية تجميع معلومات ودلالات، والوقوف عليها لفهم الجزئيات. نتيجة عملية القراءة المستمرة كم رهيب من المعلومات والمعرفة، هذه المعلومات وتلك المعرفة هي اللبنة الأساسية لأهم نوع من العلاقات التي خلق منها الإنسان. ما نفعله من خلال هذا الكتاب يجوز أن يطلق عليه قراءة القرآن؛ حيث المحاولات الحثيثة لفهم مدلول الألفاظ وسياق التعبيرات القرآنية، أما ما يفعله أصحاب الأصوات الندية، والحناجر الذهبية لا يمكن أن يسمى قراءة القرآن، ويمكن أن نسميه قولاً، وسوف نأتي على بيانه في الأجزاء القادمة، أو يمكن أن نسميه أداءً صوتياً لا غير.

بعد عملية القراءة، تأتي العملية التالية والأكثر رقيماً، وهي تحصيل العلم. عملية القراءة ليست هي في حد ذاتها العلم، وإنما هي إحدى معطيات أو مقدمات العلم. العلم هو العمليات التي سوف تُجرى على ما تم تحصيله بالقراءة لفهم الكليات، وربط الجزئيات بعضها ببعض للوصول لصورة كاملة عن شيء ما. عبر القرآن الكريم عن طريقة التعلم هذه بالقول (علم بالقلم)، فذهب المفسرون إلى أن القلم هو أداة الكتابة، ولكن مدلول الكلمة في كتاب الله يوحي أن القلم هو طريقة تحصيل العلم وليس أداة الكتابة.

ما هو القلم؟

جذر الكلمة في قاموس اللغة يعني تسوية، وترتيب وتهذيب. لنلقي نظرة على مدلول الكلمة في كتاب الله، توجد سورة كاملة في كتاب الله تسمى سورة القلم، وبداية السورة تم تأويلها بالكامل في الجزء الثالث المتعلق بالتطور، إذ أن الدلالات والإشارات تشير إلى ما



يعرف بالتصميم الذكي. ذكر لفظ القلم أو إحدى مشتقاته في أربعة مواضع في كتاب الله كما يلي:

### الآية الأولى:

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَامُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ) (سورة آل عمران: الآية 44).

ذهب المفسرون في تفسير هذه الآية الكريمة على أن القوم اقترحوا على من منهم يكفل مريم عن طريق ما يعرف بالسهم، وهي عملية كتابة اسم كل شخص على سهم أو عود من الخشب، ثم خلط هذه السهام جميعها، ثم اختيار سهم بطريقة عشوائية. من خلال هذا التفسير نجد أن كل قلم هو ما يميز كل شخص، أو أن كل شخص مكتوب اسمه على قلم، القلم هنا أداة تميز كل شخص عن الآخر.

من المفترض أن عملية الاختصاص تأتي قبل الاقتراع، وغالباً ما تأتي عملية الاقتراع لحل عملية الخصام. في الآية الكريمة عملية إلقاء الأقلام تمت ثم ذكر القرآن الكريم لنا أن مسألة الخصام قد حدثت. يبدو لي أن المقصود بلفظ يلقون أقلامهم أي كل منهم يخبر عن أفضليته، وما يميزه وما يمكن أن يقدمه لمريم؛ إذ أن القلم هنا كل ما يميز إنسان عن الآخر. فكأن المسألة تمت عن طريق عرض كل شخص مؤهلاته بشكل فيه من الترتيب يبرز دوره ويميزه عن غيره في كفالة مريم، وليست عملية اقتراع. عملية إلقاء الأقلام كأنها إجابة على سؤال ما الذي يجعلك جدير بكفالة مريم؟ ثم بدأ كل منهم توضيح ما يميزه وما يؤهله عن غيره حتى يفوز بكفالة مريم. لا شك أن في مثل هذه الأمور يعتقد كل إنسان أحقيته وجدارته، ومن هنا ينشأ الخصام. عملية الاقتراع عملية خارج تحكمهم جميعاً ولا يلزمها الخصام. ربما يشكل على البعض لفظ (يلقون) الذي يوحي أنهم يلقون شيئاً مادياً، ولكن نجد أن لفظ (يلقون) جاء في كتاب الله معبراً عن إلقاء أشياء غير مادية، وبالتحديد عبر عن القول أو الكلام كما في سورة النحل.

وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرَكَاهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ  
فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (سورة النحل، آية 86).

الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقُوا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ  
عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (سورة النحل، آية 28).

الآية الثانية : (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا  
نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (سورة لقمان، آية 27).

في هذه الآية أيضاً فسر المفسر القلم على أنه أداة الكتابة، وليس هنا ثمة اعتراض، ولكن  
ما وظيفة القلم هنا؟ تجسيد القلم واقتصاره على الصورة المعروفة هو ما ننفيه، ولكن القلم كحالة  
لها صفات وخصائص هو ما أرحمه وأؤيده من خلال اللغة وكتاب الله. القلم الذي يغمس في  
الخبر ويخرج ليسطر كلمات وجملاً مفهومة هي الوظيفة التي نبث عنها. القلم هو الطريقة التي  
تصنع من الأشياء المتراكمة أو غير الواضحة شكلاً واضحاً، مميزاً، ومرتباً ومهذباً يمكن الاستفادة  
منه، وتقديم شئ ذي دلالة واضحة وقيمة معرفية. القلم يستخدم الخبر (مادة عشوائية) لنظم  
الكلمات، والعبارات والجمل في شكل واضح ومفهوم. كذلك كل طريقة تستخدم معطيات  
معينة لنظم شكل واضح، ومرتب ومهذب يمكن تسميتها بالقلم.

الآية الثالثة:

(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) (سورة القلم، آية 1)

تم تفسير هذه الآية من خلال فصل الطور- الجزء الثالث؛ حيث لا يخرج وصف القلم  
عن الطريقة التي يتم بها نظم وترتيب الأشياء لإنتاج شئ مفهوم ومقصود.

الآية الرابعة:

(الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ) (سورة العلق، آية 4).

هذه هي الآية التي نحاول دراستها وربطها بما قبلها وبعدها في سورة العلق. من خلال جذر الكلمة، ومن خلال مدلول الكلمة في كتاب الله، يتبين لنا أن القلم هنا هو الطريقة التي يتم بها تحليل المعارف والمعلومات المتاحة، ونظمها بشكل مرتب ومهذب لاستخراج فائدة معينة. الآية الكريمة تشير إلى الطريقة التي يتعلم بها الإنسان، والتي ذكرها الخالق، وهي القلم، وما يمكن أن نسميه الطرق البحثية الحديثة. كل العمليات التي تتم على معلومات غير مرتبة بغرض تمييزها وترتيبها لبيان هيئتها وفائدتها يمكن أن نطلق عليه القلم. لا شك أن هذه العمليات يتخللها كثير من التفاصيل مثل، القياس والمقارنة لفهم الصورة بشكل كامل. لا يمكن لعقول لا تنتهج منهجاً بحثياً، ولا تعرف عنه شيئاً الوصول لمعنى القلم وفهمه.

يمكننا الآن تلخيص علاقة القراءة بطريقة التعلم من خلال مثال بسيط، في العلوم الطبيعية ندرس الرياضيات، والفيزياء، والجيولوجيا وسائر العلوم الخاصة بالطبيعة. عملية دراسة ومحاولة فهم هذه العلوم، واستنباط المفاهيم هو ما يعرف بعملية القراءة، أما استخدام المعارف الناتجة من عملية القراءة بحيث يمكن ربط مجموعة من المعارف مع بعضها البعض ومن خلال ترتيبها بشكل صحيح وتميزها هو ما ينتج العلم.

حتى يمكن فهم الفرق بين القراءة والعلم من خلال فرع واحد من العلوم؛ فلو حاولنا فهم كيف بدأ علم الرياضيات وكيف تطور، نلاحظ أن أول عملية هي عملية المشاهدات، وتدوين الملاحظات، ومحاولة تحليلها ومن ثم فهمها. عملية جمع المعطيات والمشاهدة هي عملية القراءة؛ أما عملية العلم فهي معالجة هذه المعطيات وتحليلها لاستخراج فائدة جديدة ذات قيمة.

كلمة قرآن مصدرها الفعل قرأ، وإضافة الألف والنون للكلمة تفيد الاستمرار. لفظ قرآن تعني أنه مصدر القراءة؛ أي أنه يحمل الدلائل والإشارات التي تحتاج إلى قراءة، أي توقف وتدبر بشكل مستمر. فهم الجزئيات في كتاب الله عن طريق القراءة ليس علماً، ولكن ترتيب هذه المعلومات، وترتيبها وتميزها هو ما ينتج العلم كما قال ربنا (علم بالقلم).

من هنا نجد أن مقدمة سورة العلق أشارت إلى تناسق عجيب قائم بين خلق الإنسان من علق (علاقات) وهذه العلاقات أهمها على الإطلاق العلاقات المعرفية التي تميزه عن باقي المخلوقات وبين أمر القراءة الذي سوف يتيح للإنسان اكتشاف هذه العلاقات والتعامل معها بشكل سليم. ثم جاء التوجيه الإلهي بمعالجة هذه المعرفة بالقلم أي بالتحليل والتمييز والتنسيق والترتيب وهذا هو مصدر العلم الذي سوف يحصل عليه الإنسان.

هذه الدورة هي الدورة الطبيعية والصحيحة التي تضمن تجدد الإنسانية وتطورها وازدهارها وأي تقصير في هذا الدورة نتائجه ليست مرضية ولا تصب في صالح الإنسان سواء في الدنيا أو الآخرة. القراءة الجيدة لما يحيط بنا يؤدي لفهم علاقات الأشياء بعضها ببعض ومن ثم نستطيع إنتاج علوم جديدة. هذه العلوم تضاف لمعارفنا وتصبح معرفة ثابتة، فيأتي من بعدنا من يقرأ هذه المعرفة المتراكمة بالتحليل ثم يحاول تفسير العلاقات بشكل أكثر عمقاً فينتج علماً أكثر عمقاً بناء على التراكم المعرفي السابق وهكذا دورة مستمرة إلى يوم الدين.



## الفصل الرابع: وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ

ها هم رجال، ونساء وأطفال القرية خرجوا بالرماح والطبول، وأمامهم الكلاب تعوي، إنها ليلة مشهودة، وحدث عظيم، ولا بد من إحداث أكبر قدر من الضوضاء لإبعاد نمر الجاكوار العملاق الذي هاجم القمر ويحاول التهامه، ولو فرغ من التهام القمر، لاستدار إلى الأرض، وهاجمهم بلا رحمة وقضى على الأرض ومن عليها في دقائق معدودة. إنها إحدى أساطير ما يسمى بخسوف القمر لدى شعوب الإنكا، أحد أقدم وأكبر الإمبراطوريات للهنود الحمر في أمريكا الجنوبية، حيث كانوا يعتبرون غياب ضوء القمر على غير عادته فألاً سيئاً، ونذير شؤم. ثقافات الشعوب جميعها مليئة بالأساطير حول ما يسمى بخسوف القمر؛ فبينما هناك من يعتقد أن الحيوانات تلتهم القمر، فإن بعض الشعوب كانت تعتقد أن ما يعرف بالخسوف القمري هو مقدمة لهلاك الأرض عن طريق الكوارث الطبيعية. البعض كان يرى أن الظاهرة لها علاقة مباشرة بتشوه الأجنة، كما دلت على ذلك بعض القصص والروايات من التراث العربي. ثقافات أخرى كانت تلقي اللوم على الشياطين وقدرتها الفائقة على حجب ومنع ضوء القمر.

قصة هجوم الشياطين السبعة على القمر وحجبه، تعتبر واحدة من تراث بلاد الرافدين حول خسوف القمر. كانت شعوب بلاد الرافدين أصحاب علم أهلهم للتنبؤ بموعد حدوث تلك الظاهرة، وكانوا يعدونها اعتداءً مباشراً على ملكهم. وكان من ضمن الاحتياطات التي يتم اتخاذها في سبيل مجابهة تلك الظاهرة هي تنكر الملك في زي رجل من العامة، وتعيين ملك بديل حتى يتحمل عبء الهجوم المنتظر وينجو الملك الحقيقي.

للصينيين أيضاً أساطيرهم حول القمر وخسوفه، حيث كان يعتقد الصينيون أن القمر في يوم خسوفه يتعرض للعض من بعض الحيوانات، وخصوصاً الكلاب، فكانوا يقومون بضرب الأجراس حتى تبتعد تلك الحيوانات وتترك القمر في حاله. بعض الصينيين لم يرق لهم، بحسب

اعتقادي، أمر الكلاب والحيوانات البرية، فتلك الحيوانات ضئيلة ولا يصح لها أن تهاجم القمر العملاق، فكانت الأسطورة لديهم مختلفة نوعاً ما، حيث اعتقدوا أن تنين السماء هو المسئول الأول عن التهام القمر، وكذلك التهام الشمس أثناء عملية الكسوف. فما كان منهم إلا قرع الطبول وضرب الأجراس والأواني الفارغة لإحداث أكبر ضجة ممكنة لطرد هذا التنين، وإنقاذ القمر من بين أنيابه. في الثقافة الهندية كان الاعتقاد الراسخ أن أحد الشياطين، واسمه راحو، هو الذي يلتهم القمر فيسبب خسوفه، وكان هذا اليوم يوماً حزيناً بالنسبة لهم بحيث كانوا يمتنعون عن الأكل في ذلك اليوم.

إفريقيا كان لها نصيب من هذه الأساطير، حيث القبائل في توجو وبنين كانوا يعتقدون أن الشمس والقمر يتقاتلان فيما بينهما، فيحاول الناس حثهم على التوقف عن طريق حل النزاعات القديمة فيما بينهما. سكان المناطق الإسكندنافية، الفايكنج، كانوا إذا رأوا ظاهرة الخسوف أو الكسوف للشمس، أسرعوا لصنع ضوضاء وجلبة حتى يتوقف سكول وهاتي عن التهام القمر أو الشمس. إنهم يعتقدون أن اثنين من الذئاب هما سكول وهاتي لديهما رغبة جامحة في التهام الشمس والقمر.

واحدة من القبائل في شمال كاليفورنيا، من سكان أمريكا الأصليين، تُدعى الهبا، كان اعتقادهم أن القمر لديه 20 زوجة، وكان عليه إطعامهم، فإذا كانت أحد الأيام ولم يستطع القمر إحضار طعام يكفي لزوجاته، فإن الحيوانات البرية مثل الأسود والذئبة تهجم عليه مما يتسبب في نزيفه، لكن زوجات القمر تحاول مساعدته وإنقاذه.

يخيل إلي أن القمر كان سعيداً بتلك المرويات، فهو ذلك المخلوق المهاب والذي تسعى شعوب العالم لاسترضائه بكل الحيل وتطلب وده بكل السبل. دائماً كان القمر ذلك الشيء الغامض الذي تشعر نحوه بالانجذاب، فتغزل فيه الشعراء، ورسم الفنانون أجمل لوحاتهم، ونسج الأدباء قصصهم ورواياتهم حوله، كم هو محظوظ ذلك القمر. لكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، فقد تحطم غرور ذلك القمر، ولم يعد ذلك المخلوق الخيف، وتكشف غموضه

فأصبح مجرد تابع للأرض مع أول سفينة فضاء تحط عليه عام 1969م. إنه العلم الذي يحطم كبر الجهل، ويلجمه رغماً عنه، فقد تحطمت أساطير الشعوب والقبائل حول خسوف القمر، وتوحدت اليوم جميعها خلف العلم لتعلن أن (الخسوف) ظاهرة كونية ليس فيها أي شيء مريب.

يطلق الناس على هذه الظاهرة اسم ظاهرة الخسوف؛ فهل هذه التسمية صحيحة؟ وصف هذه الظاهرة بوصف الخسوف يبدو أنه ليس صحيحاً، وخصوصاً أن هناك ما يعبر عن تلك الظاهرة في كتاب الله بشكل أكثر دقة وانضباط.

السابع والعشرون من شهر يوليو عام 2018 حدثت الظاهرة التي يطلق عليها خسوف القمر، وامتلات وسائل التواصل الاجتماعي بهذه الحادثة الفريدة، والتي لا تحدث كثيراً، وما بين متابع، وراصد، ومستمتع ومحذر، تجد نفسك، رغماً عنك، قد شغلت الظاهرة قدراً من تفكيرك. استيقظت صباح يوم الثامن والعشرين تسيطر على عقلي فكرة خسوف القمر، ومعنى كلمة خسوف. تبادرت إلى ذهني وقتها

الآية الكريمة: (نَحْسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ) (سورة القصص، آية 81).

تساءلت وقتها، هل الخسف معناه حجب ضوء القمر، أم أن معنى الخسف هو اختفاء وغياب بشكل كامل؟ أعلم جيداً أن الوصف القرآني وصفاً دقيقاً حقيقياً، وليس وصفاً ظاهرياً. من يصف هذه الأشياء هو من خلقها، ويعلم صفاتها وخواصها وكل ما يلم بها، وليس هناك مجال للعبثية، أو الفوضى، أو الحشو الزائد. إذا كانت كلمة خسف لا تعبر عن الظاهرة التي نراها، وهي وقوع القمر، والأرض والشمس على خط واحد، بحيث تصبح الأرض بين القمر والشمس، ويقع القمر في منطقة ظل الأرض، مما يجعل القمر يبدو معتماً، فأى كلمة تعبر عن هذه الظاهرة الفريدة؟



لا بد أن هناك إشارة ما لهذه الظاهرة في كتاب الله؛ فهي ظاهرة موجودة وحقيقة علمية. نحتاج أن نعطي أنفسنا فرصة للتدبر والتحرر من قيود التراث، وجعل كتاب الله في المرتبة الأولى، ثم كل ما يليه في المراتب التالية، فإن بذلت جهدك في تتبع كلمة في كتاب الله، وحاولت فهمها، وتدبر ورودها في كتاب الله، وتسلسل الآيات بعضها البعض ولم تجد بغيتك، انتقل للمرحلة الأخرى، ثم التي تليها وهكذا. لكن أن نجعل النص الإلهي محكوماً وتحت تصرف الإنتاج البشري، مهما كان هذا الإنتاج البشري، فقد فقدنا البوصلة وتفلت منا زمام الأمر.

في البداية نستعرض بعض المعلومات البسيطة عما يسمى مجازاً خسوف القمر: - يبلغ قطر القمر تقريباً 3500 كيلومتراً، ويدور حول الأرض دورة كاملة كل 29.5 يوماً، تحدث ظاهرة (الخسوف) نتيجة لاصطفاف ثلاثة أجرام وهي: الشمس، والأرض والقمر على خط واحد. تحدث ظاهرة (الخسوف) مرتين تقريباً كل سنة، حيث يغيب ضوء القمر تماماً فيما يعرف (بالخسوف)، عندما يتطابق قرص القمر تماماً مع قرص الشمس وقرص الأرض، أو بمعنى آخر، دخول القمر بالكامل في حيز ظل الأرض.

- مستوى مدار القمر ليس في مستوى دوران الأرض حول الشمس، ولو تطابق مستوى دوران القمر مع مستوى دوران الأرض، حدث (خسوف وكسوف) مرتين كل شهر؛ ولذلك لا تحدث تلك الظواهر إلا إذا مرت الشمس بنقطة التقاء المستويين أو العقدين، كما يسميها العلماء، وهي نقاط التقاء مستوى دوران القمر مع مستوى دوران الأرض. تسمى إحدى النقطتين بالعقدة الصاعدة، والنقطة الثانية بالنقطة الهابطة. يمر القمر تقريباً مرتين كل عام بهاتين النقطتين، لذلك تحدث الظاهرة بمعدل مرتين كل عام تقريباً. هذه المعلومات البسيطة سوف تساعدنا في فهم ظاهرة «الخسوف»، وتسميتها الصحيحة ووصفها الرائع في كتاب الله.

## الخواطر القرآنية

لنستعرض كلمة خسف في كتاب الله، ثم نحاول معرفة جذر الكلمة، وهل تنطبق تسمية كلمة خسف على الظاهرة التي نشاهدها أم لا؟ ذكرت كلمة خسف في كتاب الله ثمانى مرات كما يلي:

الآية الأولى: (أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ) (سورة النحل، آية 45).

الآية الثانية: (أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وِكِيلًا) (سورة الإسراء، آية 68).

الآية الثالثة: (نَخْسِفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ) (سورة القصص، آية 81).

الآية الرابعة: (وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَفِّرُ اللَّهُ بِسُوءِ الرَّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَفِّرُ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) (سورة القصص، آية 82).

الآية الخامسة: (فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنَّا أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنَّا خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنَّا أَعْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (سورة العنكبوت، آية 40).

الآية السادسة: (أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَاءُ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ) (سورة سبأ، آية 9).

الآية السابعة: (أَأَمِنْتُمْ مِّنَ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ) (سورة الملك، آية 16).

الآية الثامنة: (وَخَسَفَ الْقَمَرُ) (سورة القيامة، آية 8).

الآية التي نحن بصدددها هي الآية المعنية بجملة خسف القمر، وقبل أن أسجل خواطري حول هذه الآية الكريمة، لرى ما تقوله التفاسير التي تعرضت لتلك الآية الكريمة. معظم التفاسير قضت بأن المقصود بخسوف القمر ذهاب نوره وضيائه، وأنقل هنا من تفسير الطبري والقرطبي: (وقوله (وخسف القمر) ، يقول: ذهب ضوء القمر، وبخو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. عن قتادة، قوله (وخسف القمر)، ذهب ضوءه فلا ضوء له. عن قتادة، عن الحسن (وخسف القمر) هو ضوءه، يقول: ذهب ضوءه) انتهى الاقتباس من التفسير.

سوف نحاول قراءة الآية في سياقها، ونحاول فهم مدلول الكلمة من خلال كتاب الله. لقد جاءت كلمة خسف سبع مرات من أصل ثمانٍ متعلقة بالأرض، ومرة واحدة فقط متعلقة بالقمر، مدلول كلمة خسف في السبع آيات المتعلقة بالأرض يدل على اختفاء شئ و تغييبه كلياً داخل الأرض. جذر كلمة خسف كما في قاموس اللغة لابن فارس هي الخاء والسين والفاء، ولها أصل واحد وهو غموض وغور. من خلال مقارنة جذر الكلمة ومدلولها كما جاءت في كتاب الله، نجد أن المعنى الأقرب هو غور، أي اختفاء وتغييب بشكل كامل، ولو حاولنا فهم كلمة خسف من منظور علمي، سنجد أن كلمة خسف تحمل معنى الانهيار الداخلي.

فهل ما يحدث للقمر هو خسف حقيقي؟ أي أن القمر يغيب ويختفي بشكل كامل، بمعنى أن شئ ما ابتلعه نتيجة لانهيار داخلي. هل القمر نفسه حدث له انهيار داخلي؟ الإجابة لا، ما حدث هو حجب ضوء الشمس بواسطة الأرض عن القمر فأصبح معتماً. نتيجة لعدم انعكاس الضوء على سطح القمر لم يستطع الراصد على الأرض رؤية القمر، وهذا كل ما في الأمر. لو صح استخدام كلمة خسف للتعبير عن غياب ضوء أو نور القمر، لكان يلزم التعبير استخدام كلمة نور القمر، وخصوصاً أن كلمة نور أو ضوء كلمات قرآنية.

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (سورة يونس، آية 5).

(وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا) (سورة نوح، آية 16).

عندما يقول ربنا سبحانه وتعالى (وخسف القمر)، فهذا معناه حدوث انهيار داخلي للقمر، ولو كانت الكلمة خسف مبنية للجهول لأعطت معنى آخرًا، وهو أن شيئًا ما ابتلع القمر، وكلتا الحالتين لا تنطبق على ظاهرة حجب نور القمر بسبب وقوع القمر في منطقة ظل الأرض.

الحديث في آيات سورة القيامة عن خسف القمر بمعنى انهيار داخلي للقمر، هو مشهد من مشاهد الانهيار الخاص بيوم القيامة. ما يثبت هذه الفرضية الآيات التالية لهذه الآية الكريمة وهي

(وَجَمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ) (سورة القيامة، آية 9).

السورة التي ذكر فيها هذا المشهد تسمى سورة القيامة. مما يثبت مما لا شك فيه أن المقصود هو أحداث النهاية، وانهيار هذا النظام يوم القيامة.

(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2) أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ (3) بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ تُسَوِّيَ بَنَانَهُ (4) بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (5) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (6) فَإِذَا بَرَقَ الْبَصْرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8) وَجَمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ (10) كَلَّا لَا وَزَرَ (11) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12) يَنْبَأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13)) (سورة القيامة، آيات 1-13).

إذا كانت كلمة خسوف لا تصلح للتعبير عن الظاهرة الكونية المشهورة، فما التعبير الأنسب والأكثر دقة للتعبير عن هذه الظاهرة؟ هذه الظاهرة الكونية لها إشارة واضحة في كتاب الله من خلال آيات كريمة في سورة الانشقاق والتي وصفها الله سبحانه وتعالى بالاتساق.

## اتساق القمر

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (16) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (17) وَالْقَمَرِ إِذَا اسَّقَ (18) لَتَرَكِبَنَّ طَبَقًا  
عَنْ طَبَقٍ (19)) (سورة الانشقاق، الآيات 16-19).

أربع آيات تصف المشهد لا أروع من هكذا وصفًا ربانيًا، ما كان لمحمد صلوات ربي  
عليه كبشر أن يأتي من عند نفسه بهذا الوصف الدقيق والبلغ ولو اجتمع أهل الأرض قاطبة  
على وصف هذه الظاهرة، بمثل هكذا كلمات قبل اكتشاف العلم الحديث لما استطاعوا ولو  
كان بعضهم لبعض ظهيرًا.

تأويل القدماء كثيرًا ما يصيب، إذا كانت الآية ظاهرة وواضحة يستطيعون وصفها  
بدقة، ولكن أحيانًا يفتقد التفسير إلى الدقة، إذا كانت المعارف الإنسانية حول هذه النقطة  
غير مكتملة. وهذه طبيعة بشرية خالصة لذلك لا نعول على التفاسير القديمة في تفسير هذه  
الآيات القرآنية التي تصف آيات كونية.

ماذا يمكننا أن نستخلص من اللغة، ومن مدلول الكلمات في كتاب الله ومن المعلومات  
العلمية المتاحة.

الآية الأولى: (فلا أقسم بالشفق)

الآية الأولى تتحدث عن الشفق، وكلمة الشفق كما في قاموس اللغة لها أصل واحد، وهو  
الرقعة والضعف في الشيء، ولو استعرضنا كلمة الشفق ومشتقاتها في كتاب الله نجد أنها وردت  
إحدى عشر مرة في صورة مشفقين أو مشفقون، كما الآية الكريمة:

(وَوَضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهذا الْكِتَابِ  
لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا) (سورة  
الكهف، آية 49).

وجاء كذلك الجذر شفق في صورة أشفق، كما في الآية التالية:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) (سورة الأحزاب، آية 72).

كذلك جاءت إحدى المشتقات في صورة لفظ شفق صريح في الآية محل دراستنا: (فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ) (سورة الانشقاق، آية 16).

من خلال جذر الكلمة ومدلولها في كتاب الله، نجد أن مدلول الكلمة هو الرقة، والخفوت والضعف، وإذا كان القدماء قالوا إن الشفق هو الأشعة الحمراء للشمس، فهو صحيح 100 بالمائة. طبيعة الأشعة الشمسية التي أصابها الخفوت، والضعف والرقة بسبب تشتتها ومن ثم ظهور اللون الأحمر بسبب ظاهرة الاستقطاب ينطبق تماما على لفظ الشفق.

نفس المثال ينطبق تماما مع حالة الظاهرة الكونية المسماة بالخسوف، حيث يظهر القمر باللون الأحمر نتيجة لانكسار أشعة الشمس على حافة الكرة الأرضية، ليصبح تأثير هذه الأشعة رقيقاً جداً وخافتاً وضعيفاً، أي أن ظاهرة الشفق قد تحققت حرفياً عندما ظهر القمر باللون الأحمر. غالبا يطلق على القمر اسم القمر الدامي إذا ظهر باللون الأحمر للعين المجردة. الآية الثانية (وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ).

جذر كلمة وسق في قاموس اللغة لها أصل واحد وهو حمل الشيء، ووسقت العين الماء أي حملته، فكلمة وسق تعني حمل شيء أو جمع شيء إلى شيء آخر. بالنظر إلى الظاهرة، نجد أن الليل، وهو نتيجة طبيعية لغياب ضوء الشمس، قد حمل ظلمة أخرى، أو جمع ظلمتين: الظلمة الطبيعية بغياب ضوء الشمس، وظلمة إضافية ناتجة عن الظاهرة وغياب نور القمر، حيث تحدث الظاهرة والقمر في طور البدر.

الآية الثالثة (وَالْقَمَرَ إِذَا اتَّسَقَ).

كلمة اتسق تعني انتظم، في قاموس تاج العروس (اتَّسَقَتِ الْإِبِلُ) أي اجتمعت وانتظمت، وكذلك جاءت بمعنى يَنْضُمُ كما حكاه الكسائي. في كتاب (قراءة جديدة في الشعر الدول المتتابعة) الدكتور واثم أنس الذي يقول أن مادة اتسق اللغوية (تدور على معنى

الانضمام والانتظام). لو حاولنا ترجمة كلمة اتسق ترجمة رياضية، فلن نجد أبلغ من تعبير اصطفاً الشيء مع الأشياء الأخرى في خط مستقيم. لو نظرنا إلى الظاهرة الكونية، نجد أن القمر بالفعل انتظم في خط واحد مع كلاً من الشمس والأرض، ليصبح تعبير الاتساق هو الأكثر بلاغة في وصف هذه الظاهرة الكونية.

الآية الخامسة (لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ)، تفسير هذه الآية الكريمة يوضح كيف يمكن للتفسيرات المعتمدة على المعارف الشخصية أن تفسد المعنى وتحدث إرباكاً في فهم مجمل الآيات، بل وفوق ذلك يمكن لهذه التفسيرات أن تربك قواميس اللغة والمعاجم، على اعتبار أن فهم الأقدمين هو الفهم الأدق والأصح، بل والمسيطر على كتاب الله.

لو استعرضنا تفسير الآية من خلال تفسير الطبري سوف نجد الآتي: (قوله: لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ)، اختلف القراء في قراءته، فقراه عمر بن الخطاب، وابن مسعود وأصحابه، وابن عباس وعامة قراء مكة والكوفة (لَتَرْكَبَنَّ) بفتح التاء والباء، واختلف قارئ ذلك في معناه، فقال بعضهم: لَتَرْكَبَنَّ يا محمد أنت حالاً بعد حال، وأمرًا بعد أمر من الشدائد. عن مجاهد، أن ابن عباس كان يقرأ (لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ)، يعني نبيكم صلى الله عليه وسلم حالاً بعد حال. عن أبي إسحاق، عن رجل حدثه، عن ابن عباس في (لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ)، قال: منزلاً بعد منزل. عن أبي بشر، قال: سمعت مجاهداً، عن ابن عباس (لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ)، قال: محمد صلى الله عليه وسلم. عن عكرمة، في قوله (لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ)، قال: حالاً بعد حال. عن الحسن، في قوله (لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ)، قال: حالاً بعد حال. عن أبي رجاء، قال: سألت حفص الحسن عن قوله (لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ)، قال: منزلاً عن منزل، وحالاً بعد حال. عن موسى بن أبي عائشة، قال: سألت مرة عن قوله (لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ)، قال: حالاً بعد حال. عن سعيد (لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ)، قال: حالاً بعد حال.

عن مجاهد (لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ)، قال: حالاً بعد حال. عن قتادة، قوله (لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ)، يقول: حالاً بعد حال، ومنزلاً عن منزل). انتهى الاقتباس من التفسير.

أكتفي بهذا القدر من الأقوال في الآية الكريمة، حيث عامة المفسرين بكل أريحية تأولوا قوله تعالى لتركبن طبقاً عن طبق، إما بقول حال بعد حال وأن المعنى بذلك هو الرسول الكريم، أو أمر بعد أمر أو سماء بعد سماء، ومنهم من تأولها حمرة وشفق السماء.

الآيات الكريمة تتحدث عن ظاهرة خاصة بالقمر كما وضخنا، وهذه الآية الكريمة تكلمة لوصف الظاهرة البديعة، والتي خلقها وأبدعها بديع السماوات والأرض. جذر كلمة طبق كما جاء في قاموس اللغة لابن فارس الطاء والباء والقاف لها أصل واحد، وهو وضع شئ مبسوط على مثله حتى يغطيه، ومن ذلك الطبق تقول أطبقت الشئ على الشئ، فالأول طبق الثاني وقد تطابقا.

إلى هنا كل كلام ابن فارس عن جذر الكلمة متطابق تماماً مع الظاهرة التي تحدث للقمر، فالأرض تتطابق تماماً مع القمر من ناحية، ومع الشمس من ناحية أخرى، في حالة الظاهرة المسماة بالחסوف هذا هو الطبق عن طبق، التطابق الكامل بين الثلاثة أجرام يمكن إدراكه بالحسابات. من المعروف أن قطر الشمس يساوي 400 مرة تقريباً قطر القمر، والمسافة بين الأرض والشمس تساوي 400 مرة تقريباً.

المسافة بين القمر والأرض. مدلول تلك الأرقام الحسابية حيث النسب بين المسافات من ناحية وبين الأقطار من ناحية أخرى هو ما يسمى بالتطابق، وتُسبب ما يسمى بالחסوف الكامل أو الكسوف الكامل في حالة الشمس. هذا التطابق يمكن ملاحظته بشكل آخر، حيث يرى الراصد على الأرض قرص القمر من نفس حجم قرص الشمس، مع العلم أن حجم الشمس أكبر بكثير جداً من حجم القمر، ولكن بسبب قرب القمر بعد الشمس بهذه النسبة الدقيقة، يبدو كلاً من القمر والشمس للراصد في نفس الحجم.



نلاحظ أن ابن فارس في معجمه يعود ويقول إن معنى الطبق هو حال، وها هو يتأثر بتفسير المفسرين، بل واستشهد بالآية الكريمة في تأكيد وصف الطبق بالحال؛ مما يجعلنا أكثر حرصاً في تتبع الجذر اللغوي، ونعول دائماً على مدلول الكلمة في كتاب الله.

الآن نستطيع وبكل أريحية وصف ظاهرة حجب نور القمر نتيجة لوقوعه داخل منطقة ظل الأرض عندما تقع الأرض بينه وبين الشمس باسم الاتساق، وليس كما كنا نعتقد أنها خسوف. تحليل الألفاظ وتبع مدلولاتها من خلال كتاب الله يصب في اتجاه أن الظاهرة التي يطلق الناس عليها خسوف القمر ما هي إلا اتساق القمر مع الأرض والشمس. سبحان من وصفها بهذه الدقة وأنزل كتابه سهل التدبر لكل مذكر.

## الفصل الخامس: وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا

كالاراو شيطان ممتلئ بالحقد والغل ضد الآلهة الخالدة خلوداً أبدياً في أسطورة هندوسية قديمة، تدور حول تفسير ظاهرة كسوف الشمس. يحاول هذا البأس كالاراو انتزاع الخلود ليصبح نداً للآلهة، وليست هناك طريقة تمكنه من ذلك سوى التحايل ومحاولة الحصول على إكسير الحياة بأي ثمن، والذي يهب هذه الإلهة الخلود الأبدي. كان كالاراو يعلم موعد تناول الآلهة للإكسير السحري من خلال مآدبة خاصة يعدها خدم الآلهة خصيصاً لهذا الغرض.

تنكر كالاراو في زي امرأة وكأنه من ضمن الخدم الذين يقدمون إكسير الحياة للآلهة، وأثناء انشغال الآلهة، يتحين الشيطان كالاراو الفرصة لخطف كأس من كوؤوس أكاسير الحياة ويلقيه في جوفه بسرعة. ولكن لحظة الغابر يلمحه في نفس اللحظة أحد الآلهة الذي كان يراقب الأمر ويتابعه منذ البداية. فيقوم الإله من فوره بقطع رأس كالاراو مانعاً إياه من شرب الكأس والاستفادة من مفعوله، ولكن الإكسير يكون قد وصل بالفعل إلى رأس كالاراو فيموت الجسد ويبقى الرأس خالداً بسبب هذه الرشفة.

بعد هذه الحادثة صار العداء مستحكماً بين الآلهة، وخصوصاً آلهة الشمس والقمر، وبين رأس كالاراو، منذ ذلك اليوم أصبحت مهمة الشيطان كالاراو، أو بمعنى أدق رأس كالاراو، مطاردة الشمس والقمر ومحاولة ابتلاعهما. فإذا نجح رأس ذلك الشيطان في محاولاته، حدث الكسوف أو الخسوف بحسب أيهما تم ابتلاعه الشمس أم القمر. لحسن الحظ عندما يبتلع رأس كالاراو الشمس أو القمر وتظلم الدنيا، ما تلبث أن تخرج الشمس أو يخرج القمر سريعاً من الناحية الأخرى من رأس كالاراو، فهو رأس بدون جسد.

لقد كانت أسطورة الصينيين أكثر سلاماً من تلك الحرب الضروس بين الشيطان وبين الآلهة في الأسطورة الهندوسية. كانت ظاهرة كسوف الشمس لدى الصينيين تمثل علامة وإشارة على صحة الإمبراطور، وانعكس هذا الاهتمام على علم الفلك نفسه، حيث تقدم هذا

العلم وحساباته تقدما ملحوظاً. ولما لا يتقدم علم الفلك وهو يتمحور حول حياة أهم شخص في البلاد وركنها الأساسي! وهل هناك حافز أكبر من حياة وصحة الإمبراطور يمكن أن تكون حافزاً للشعوب للعمل والتقدم وإنتاج المزيد.

لقد انتشر التنجيم بفضل هذه الأسطورة انتشاراً لا مثيل له، وكان من أهم وظائف المنجمين وقتها، هي محاولة التنبؤ بموعد الكسوف، وكان الفشل في التوقع يعد كارثة يتعرض بسببها المنجم لعقاب قاسٍ يصل في بعض الأحيان إلى إعدامه جزاءً وفاقاً.

في بعض الثقافات العربية، يُعتقد أن خروج المرأة الحامل في وقت الكسوف قد يسبب تشوه الجنين، وبالطبع هذا الاعتقاد خاطئ بالمرّة، بل إن المبالغة في خطر كسوف الشمس وعدم خروج الناس من منازلهم خوفاً على أعينهم من الشمس ينتابها كثير من المغالطات. فالشمس وقت ما يسمى بالكسوف لا تنتج أجساماً أو أشعة تفتك بالعيون، بل تأثيرها يكون أضعف بكثير منها في الأوقات العادية، ولكن كل ما في الأمر أن مشهد الكسوف يغري الناس بالنظر إلى الشمس، وضعف الأشعة تغري الإنسان بإطالة النظر وعدم الالتفات بعيداً، فإذا أطال الإنسان النظر إلى الشمس تضررت عيناه من آثار أشعة الشمس، بعكس الأيام العادية حيث قوة أشعة الشمس تجبر الناظر إليها تحاشي النظر مباشرة بسبب قوتها وحدتها.

لا شك أن الكسوف الشمسي وخصوصاً الكسوف الكلي منه يعتبر أمراً مزعجاً لتلك المناطق التي تعتمد على الطاقة الشمسية بشكل كبير. يتوقع العلماء فقدان ما يقارب 35000 ميغاوات من الطاقة الشمسية في حالة حدوث الكسوف الكلي في مناطق الطاقة الشمسية بأوروبا.

تحدث ظاهرة الكسوف الشمسي بمعدل اثنين إلى خمس مرات في العام. ويعود تاريخ أول تدوين للكسوف الشمسي بحسب وكالة ناسا إلى خمسة آلاف سنة، بحسب نقوش منحوتة على ثلاثة أحجار في مقاطعة ميث الإيرلندية. ظاهرة طبيعية متعلقة بحركة الأجرام السماوية

وبنية النظام الشمسي الذي نعيش فيه، فهل لهذه الظاهرة صدىً في كتاب الله، وهل تسمية الظاهرة بالكسوف تسمية صحيحة؟

لهذه الظاهرة حضور في كتاب الله، ولكن بسبب أن تسمية الكسوف تسمية غير حقيقية لم يستطع الناس الاستدلال على الظاهرة في كتاب الله، حيث كتاب الله يحمل الأسماء الحقيقية وليس التسميات البشرية وما يعترها من أخطاء.

### كسوف الشمس

لم تذكر كلمة كسوف في كتاب الله ولو مرة واحدة، وإذا أردنا أن نبحث عن جذر كلمة كسوف لنعرف مدى تطابق الكلمة مع الظاهرة سوف نجد أن جذر الكلمة هو كسف، وهي الكاف والسين والفاء. وكما في قاموس اللغة لابن فارس، لهذا الجذر أصل واحد وهو تَغْيِيرُ فِي حَالِ الشَّيْءِ إِلَى مَا لَا يَحِبُّ، أَوْ قَطْعَ شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ.

لو تتبعنا اللفظ في كتاب الله لنعرف معنى ومدلول اللفظ كما أنزله ربنا سبحانه وتعالى سوف نجد بعداً آخرًا لكلمة كسف، والتي وردت في كتاب الله بصيغة كسفا. ورد لفظ (كسفا) في كتاب الله في خمسة مواضع، منها أربعة مواضع مرتبطة بأشياء تسقط من السماء، والخامسة وصف سحب مترام يخرج منه الودق (انظر فصل: قَتْرَى الْوَدَقِ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ). الآية الأولى:

(أَوْ تَسْقُطُ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمَتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةُ قَبِيلًا) (سورة الإسراء،

آية 92).

الآية الثانية:

(فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) (سورة الشعراء، آية 187).

الآية الثالثة:

(اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا قَتْرَى

الْوَدَقِ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) (سورة الروم،

آية 48).

الآية الرابعة:

(أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَسْأَ نَحْسِفَ بِهِمُ  
الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ) (سورة سبأ، آية  
9).

الآية الخامسة:

(وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ) (سورة الطور، آية 44).

مدلول كلمة (كسفا) كما جاءت في الآيات تعني قطعاً مكثفة، أو أجزاءً ثقيلة، وهذا  
الثقل بالطبع ناتج عن كبر كثافة هذه القطع، وخصوصاً بمقارنة اللفظ ومدلوله في الآية الأخيرة،  
إذا يرى الناس الكسف فيظنون أنه سحاب مركوم أي متراكم، فدل ذلك على أن كلمة كسف  
تصف أجزاءً ذات كثافة عالية مضغوطة. بناءً على ذلك، فإن الفعل كسف يعني جعل الشيء  
متراماً، أو مضغوطاً، أو مكبوتاً أو مكثفاً. يتضح لنا من تفسير كلمة كسف بأنها ليس لها  
أدنى علاقة هنا بالظاهرة الشمسية والتي تسمى الكسوف ولا تصف حقيقة الظاهرة.

كيف تمت تسمية الظاهرة بالكسوف؟

من وجهة نظري أن تسمية الظاهرة بالكسوف هي تسمية ظاهرية بحتة، حيث عندما  
رأى الإنسان الظاهرة أول مرة، أعتقد أن حجب ضوء الشمس بسبب أمر ما سبب تكثيف، أو  
ضغط أو كبت هذه الأشعة، وبالتالي لم تعد تصل إلى الأرض، حسب المعلومات المتاحة وقتها  
وعدم توافر معلومات عن كيفية حدوث الظاهرة، ولا الشكل الهندسي للمدارات الفلكية،  
ولا بنية النظام الشمسي.

تعتبر تسمية الظاهرة بهذا الاسم تسمية عبقرية، إذ تصف ما حدث لقرص الشمس  
بحسب الرؤية المتاحة بعيداً عن الأساطير. في وقت كان يعتقد الناس أن الشيطان التهم  
الشمس، أو أن الحيوانات اعتدت على قرص الشمس، نرى هذه التسمية أقرب للمنطق  
والعقل بعيداً عن الخرافات. رغم كل ما سبق، يعتبر لفظ الكسوف تسمية بشرية ووصفاً

بشراً محدود المعارف، فأين نجد وصف الظاهرة في كتاب الله؟ قبل أن نتطرق لكتاب الله تعالى، لا بد أن نلقي نظرة سريعة على الظاهرة التي ندعوها بالكسوف وبعض المعلومات البسيطة من وجهة نظر العلم.

هذه الظاهرة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالقمر والأرض، ومن الطبيعي أن تحدث بالنهار، ومن آثارها انخفاض طاقة الشمس بشكل ملحوظ. إذا كان ما يعرف بالكسوف كسوفاً كلياً، تتحول الدنيا إلى ما يشبه دخول الليل الخفيف. زمن الظاهرة يعد قصير جداً مقارنة بالظاهرة المعروفة لدينا بخسوف القمر، والتي أثبتنا أن وصفها يتفق تماماً مع لفظ اتساق وليس خسوف.

يحدث الكسوف عندما تكون كل من الشمس والقمر والأرض على استقامة واحدة، بحيث يتوسط القمر الشمس والأرض، مما يتسبب في حجب ضوء الشمس عن الأرض، فتبدو المنطقة المواجهة للقمر في تلك اللحظة تشبه لحظة دخول الليل.

#### الخواطر القرآنية

بعد استعراضنا لتلك المعلومات البسيطة والتي تصف الظاهرة، يأتي دور الخواطر القرآنية، حيث وصف ربنا الظاهرة وصفاً بديعاً من خلال آيات كريمة في سورة الشمس. ولعل تسمية السورة بالشمس لهو إشارة لنا بأن ها هنا توقفوا وتدبروا، فثمة أسرار متعلقة بالشمس تحتاج لقراءة، ومن ثم محاولة معالجة المعرفة لنحصل على علم من خلال قراءة آيات الله اللفظية.

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا) (1) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا (2) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (5) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (6)) (سورة الشمس، الآيات 1-6).

الآية الأولى: (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا).

لا يمكن فهم هذه الآية الكريمة إلا من خلال فهم لفظ الضحى وعلاقته بالشمس.

## مدلول كلمة ضحى

جذر كلمة ضحى هو ضحو في قاموس اللغة لابن فارس هو بروز الشيء وظهوره، ثم جعل ابن فارس يشرح كلمة ضحى معتمداً على وقت الضحى وهو شروق الشمس. الصواب لدي، أن الضحى ليس وقتاً معيناً، وإنما تأثير لشيء ما، أو حالة غير مستقرة، أو حالة انتقالية تفصل بين حالتين. ولكي نقف على المعنى لا بد لنا أن نستعرض ذكر كلمة الضحى ومشتقاتها في كتاب الله.

وردت كلمة ضحى في كتاب الله 4 مرات بصيغة ضحى، و3 مرات منسوبة لما قبلها بلفظ ضحاها كما يلي:

الآية الأولى: (أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ) (سورة الأعراف، آية 98).

ضحى هنا المقصود به هو وقت تأثير الشمس الضعيف، والذي غالباً ما يكون مناسباً للعب، ولا يشترط أن يكون أول النهار، فمن الممكن أن يكون في نهاية النهار أيضاً.

الآية الثانية: (قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى) (سورة طه، آية 59).

المقصود هنا الفترة قبل اشتداد الشمس أو بعد ذهاب حر الشمس، حالة تأثير الشمس الضعيف والمناسب لاجتماع الناس.

الآية الثالثة: (وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى) (سورة طه، آية 119).

الآية التي تسبق هذه الآية الكريمة قد تعطيني ملهماً لمعنى ضحى. في هذه الآية الكريمة.

(إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى) (سورة طه، آية 118).

المقصود هنا كما أرى لا جوع في الجنة، والمخاطب هنا آدم عليه السلام، حيث فاكهة كثيرة تمنع الجوع، ولباسهم فيها حرير يمنع العري، ولا ظمأ حيث الماء المسكوب، ولا تضحى تعني لا تضعف أو يحدث لك خفوت وهذا الضعف نتيجة عدم استقرار. تسمى حالة عدم

الاستقرار بالحالة الانتقالية حيث تسبق الاستقرار دائماً وهذه الحالة متوافقة مع حالة الشمس قبل استقرارها في كبد السماء أو استقرارها في المغرب.

الآية الرابعة: (وَالضُّحَى) (سورة الضحى، آية 1).

كما عودنا القرآن الكريم أن أسماء السور لا بد أنها تحمل مفتاح من مفاتيح العلم والمعرفة، وتحمل في طياتها سرّاً عظيماً يحتاج لمجهود بحثي معتبر للوقوف على معناها ودلالاتها، فلا يمكن اختزال معنى الضحى في وقت بزوغ الشمس وجعله مقصوراً على ذلك، وهناك سورة كاملة في كتاب الله تتحدث عن الضحى، يقسم الله فيها بالضحى.

إذا عدنا لمفهوم الضحى الذي شرحناه في الأسطر السابقة حيث أنه يصف حالة انتقالية غير مستقرة، والتي غالباً ما تتميز هذه الحالة بعدم الثبات والتأثير الضعيف يصبح بذلك المعنى أشمل وأوضح. عندما نحاول فهم الآية التالية في سورة الضحى سيكون مفهوم الضحى كحالة انتقالية غير مستقرة هو الأقرب لمعنى الضحى.

الآية التالية سوف تزيد المعنى وضوحاً (وَاللَّيْلِ إِذَا يَجَّى) (سورة الضحى، آية 2).

لو نظرنا لمعنى سجي والتي تصف حالة الليل، سنجد أن الجذر الثنائي وهو السين والجيم (سج) يعنى الاعتدال والاستواء، الجذر الثلاثي هو سيجو ومعناه السكون والإطباق. ولو حاولنا فهم سجي من وجهة نظر علمية، سنجد أنها تعني الاستقرار والذي يشمل الاتزان، والاستواء والاعتدال. بمقارنة لفظ الضحى وعلاقته بعبارة سجي الليل، نجد أن كلمة ضحى تعنى تماماً ظهور وبروز حالة غير مستقرة أو فترة انتقالية يعقبها استقرار.

الآية التالية قد تكون فتحاً مبيناً، وقد تحمل إشارات علمية بالغة الأهمية متعلقة ببناء السماء، وبداية تكوين الكون، وبالتالي السماوات.

الآية الخامسة: (وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا) (سورة النازعات، آية 29)

الآية الكريمة تتحدث عن السماء أو الفضاء في بداية التكوين كما تدل الآيات الكريمة، وأغطش ليلها تعني اشتداد ظلامه، وهذا المعنى ثابت علمياً حيث الظلام الدامس الذي يلف



الكون. أما تعبير (أخرج ضحاها) فقد فهمه المفسرون على عدة أوجه؛ فمنهم من قال إنها تعني أخرج ضوءها أو نورها، ومنهم من قال بل تعني نهارها. يبدو لي أن ضحى السماء (حيث الضحى منسوب للسماء، وليس منسوباً للشمس) هو تحول بناء السماء من حالة عدم الاستقرار والاضطراب، والتي صاحبت بداية الخلق إلى مرحلة الثبات، والاعتدال والاستقرار. الضحى هنا هو حالة عدم الاستقرار، أو الفترة الانتقالية قبل استقرار بناء السماء. من المعروف أن الفترة الانتقالية تكون فترة ضعيفة وغير مستقرة، فأخرج ضحاها تعني أخرجها من حالة الاضطراب وعدم الاستقرار (الحالة الانتقالية) إلى حالة الاستقرار والثبات.

الآية السادسة: (كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا) (سورة النازعات، آية 46).

كلمة ضحاها هنا عائدة على العشية وليست على الشمس، مما يدعم ويؤكد أن الضحى ليس وقتاً خاصاً بالشمس، وإنما هو حالة تأثير معينة، وهنا تعني أول الليل. وأعتقد المقصود هو الفترة التي تسبق الظلام الدامس ويكون الظلام فيها مثل الغشاء الرقيق.

الآية السابعة: (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا) (سورة الشمس، الآية 1).

هذه الآية هي الآية محل دراستنا، حيث بعد تحليل كلمة ضحى، اتضح لنا أن ضحى الشمس هو حالة انتقالية أو حالة ضعف غير مستقرة بشكل عام. تتبع لفظ الضحى يدفعنا للقول أن أمام حالة غير مستقرة ناتجة عن حجب ضوء الشمس كما في الظاهرة المعروفة بالكسوف أو أي حالة أخرى. ما سوف يحدد المقصود من هذا التعبير القرآني وهل هو الكسوف أم شيء آخر هو سياق الآيات وتحليل باقي الألفاظ وارتباطها ببعضها البعض.

الآية الثانية: (وَالْقَمَرَ إِذَا تَلَّاهَا) (سورة الشمس، الآية 2).

ها هي الآية التالية تضيف تأكيد على إن المقصود هو ظاهرة ما يعرف بالكسوف. إنه وصف هندسي لشكل الظاهرة، حيث تصطف الشمس، والقمر والأرض على خط واحد،

يكون ترتيب القمر في هذا الانتظام في المنتصف بين الشمس والأرض؛ بمعنى أن القمر حرفياً يتلو الشمس، أي يأتي بعدها في الترتيب بالنسبة للأرض.

الآية الثالثة: (وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا) (سورة الشمس، الآية 3).

الآية الكريمة تتحدث عن أن النهار هو ما يجليها (جلاها) أي يظهرها، والمقصود هنا أن الظاهرة تكون واضحة لنا بسبب حدوثها في النهار. من المعروف أن الظاهرة المعروفة بالكسوف تحدث بالنهار، فالقمر يجب ضوء الشمس عن الأرض عندما تكون الشمس مواجهة للأرض أي وقت النهار. هذه الظاهرة ما كانت تظهر لنا وما كنا نتعرف عليها لولا حدوثها بالنهار في وجود ضوء الشمس.

الآية الرابعة: (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا) (سورة الشمس، الآية 4)

وصف دقيق لحال الظاهرة وتأثيرها حتى إذا تلا القمر الشمس وظهر للعيان احتجب ضوءها، تحول وقت النهار وكأنه وقت دخول الليل حيث انتشار الظلام الخفيف. ليس هناك وصف أروع ولا أعظم من وصف غشاها الذي يوحى بالتحول الخفيف والرقيق للظلمة وليس تحولاً كاملاً كما يحدث في الأيام العادية.

استخدام كلمة غشاء ذات الدلالة الرقيقة والخفيفة يصف الحالة بكل دقة وبلاغة، بعكس كلمة غطاء مثلاً، والتي توحى بالتحول الثقيل والكثيف.

الآية الخامسة: (وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا) (سورة الشمس، الآية 5).

المعلومات المتاحة حول هذه الآية الكريمة غير كافية، وهذا شيء طبيعي إذا حاولنا فهم كتاب الله، وتجنبنا الاستعجال واحتكار الحقيقة، ربما من يأتي بعدنا يستطيع من خلال هذه الآية الكريمة إدراك حقائق ومعلومات جديدة لم تحصل عليها. ما يسعنا فعله في هذه الجزئية هو محاولة طرح مجموعة من الأسئلة، ومن ثم محاولة الإجابة عليها، أو على بعضها بحسب المتاح من المعلومات في محاولة لفهم الظاهرة وعلاقتها ببناء السماء أو الفضاء.

السؤال الأول: لا شك أن الظاهرة هي نتيجة طبيعية للتركيب البنائي للسماء أو الفضاء

الكوني، ولكن ما سر هذا التركيب، ولماذا هو بتلك الطريقة؟

السؤال الثاني: هل الظاهرة تؤثر على التركيب البنائي للسماء بطريقة ما؟

السؤال الثالث: هل الظاهرة على علاقة باكتشاف التركيب البنائي للسماء؟

من الممكن أن يضيف باحثون أسئلة أخرى في محاولة لفهم هذه الظاهرة وتأثيرها، وعلاقتها بالتركيب البنائي للسماء. سوف نحاول الإجابة على السؤال الأخير المعني بالعلاقة بين ظاهرة ما تسمى كسوف الشمس، واكتشاف التركيب البنائي للسماء.

لقد وفرت ظاهرة ما تعرف بالكسوف معلومات هامة عن البناء الكوني وتركيب الفضاء، ولولا هذه الظاهرة لما تمكن العلم من اكتشاف تلك المعلومات الرائعة.

أولى تلك المعلومات التي حصل عليها العلماء من خلال دراسة الظاهرة كانت متعلقة بمعادلات رياضية نظرية، وضعها أينشتاين عن إمكانية تأثير الضوء بالجاذبية، أو ما يمكن أن نطلق عليه انحناء الضوء. إثبات مثل هذا الافتراض يلزمه مرور الضوء بجوار كتلة كبيرة جداً، والقدرة على ملاحظة وقياس تأثير هذه الكتلة على مسار الضوء.

استطاع العلماء ملاحظة وتتبع مواقع النجوم عند حدوث الظاهرة، حيث وجد العلماء أن مواقع النجوم أثناء عملية الكسوف تغيرت عن مواقعها بالليل، ولا يمكن أن يحدث هذا التغيير في المواقع إلا إذا حدث انحناء أشعة النجوم المارة بجانب الشمس، وهو ما أسماه أينشتاين بالانحناء في الزمكان، أو الانحناء في الزمان والمكان معاً.

هذه المعلومات القيمة مكنت العلماء من دراسة الآفاق السحيقة للكون، ومنها المادة غير المرئية، والمسماة بالثقوب السوداء. المعلومة الثانية التي حصل عليها العلماء، والتي لولا ظاهرة ما تعرف بالكسوف لما أمكن التوصل إليها، ومع ذلك لا يزال تفسير هذه المعلومة لغزاً محيراً للعلماء، وهي ارتفاع درجة غلاف الشمس الخارجي عن الأغلفة الداخلية بشكل غير المنطقي.

الطبقة الخارجية أو الغلاف الخارجي للشمس يسمى كرونا، وهو غلاف ذو كثافة ضعيفة جداً. ونظراً لهذه الكثافة الضعيفة، فإنه لا يمكن رؤية طبقة الكرونا في الحالة العادية للشمس، ولكن بتغطية قرص الشمس بشكل كامل خلال الظاهرة المعروفة «بالكسوف»

أمكن رصد الكرونا. يتكون الغلاف المحيط بالشمس من ثلاث طبقات، الطبقة الأولى وهي المعروفة باسم سطح الشمس، ويبلغ ارتفاع سمكها من 300 إلى 400 كيلو متر، وتبلغ درجة حرارتها حوالي 6000 درجة مئوية، مع العلم بأن الحرارة في باطن الشمس تصل إلى 15 مليون درجة مئوية.

الطبقة الثانية وهي طبقة الكروموسفير، ويبلغ ارتفاع هذه الطبقة 2000 كيلو متر، وتصل درجة حرارتها حوالي 10000 درجة مئوية. الطبقة الثالثة وهي طبقة الكرونا التي نتحدث عنها تبعد ملايين الكيلومترات عن قلب الشمس، ومع ذلك فإن درجة حرارة الكرونا تفوق المليون درجة مئوية. تم اكتشاف درجة حرارة هذه الطبقة عن طريق دراسة انبعاث خطوط الطيف، حيث دلت التحاليل على وجود عنصر الحديد في درجة عالية جداً من التأين حيث فقدت ذرة الحديد 13 إلكترونًا والطاقة اللازمة لجعل ذرة الحديد تفقد الإلكترون الـ 13 تساوي تقريباً 2 مليون درجة مئوية.

السؤال الأكثر إلحاحاً في هذه الجزئية، كيف لطبقة الكرونا أن تكون ذات درجة حرارة مرتفعة بهذا الشكل، والمنطق يقول إنه كلما ابتعدنا عن سطح الشمس كلما قلت درجة الحرارة؟

حاول علماء كثر تفسير هذه الظاهرة، ونظريات كثيرة تم استبعادها، وما يزال لغز الكرونا عصياً على الفهم. ليس لدينا الكثير لنقله حول بناء السماء، ولكن مما لا شك فيه أن الظاهرة المعروفة «بالكسوف» أظهرت حقائق ومعلومات كانت غائبة عنا عن البناء الكوني، ونحن في انتظار المزيد، فتقدم العلم وتطور أدواته لا بد أن يكشف لنا المزيد من الأسرار.

الآية السادسة: (وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا) (سورة الشمس: الآية 6).

عندما فسر المفسرون كلمة طحاهها تم وصف الكلمة بمعنى بسطها أو قسمها. كلمة طحا لم ترد إلا مرة واحدة في كتاب الله، لذلك كان من الصعوبة بمكان تتبع الكلمة وقياسها على مثيلاتها. عن طريق الاستعانة بجذر الكلمة ومن خلال قاموس اللغة لابن فارس، نجد أن جذر الكلمة هو طحو، الطاء والحاء والواو، ولها أصل صحيح هو البسط والمد، ويقال طحا بك

همك إذا ذهب بك في الأمر ومد بك فيه. لو وقفنا على معنى الطحو بأنه يعني ذهب بك في الأمر (ابتعد) قد نكون اقتربنا كثيراً من معناها، وبمقارنة الحقائق العلمية قد نصل للحقيقة.

الحديث منسوب على الظاهرة الشمسية المعروفة «بالكسوف»، فلو تحرينا وضع الأرض في هذه الظاهرة وما يحدث لها قد نصل لمدلول كلمة طحا أو الجذر طحو. الظاهرة الشمسية تحدث عندما يقع القمر بين الأرض والشمس، بحيث يحجب القمر ضوء الشمس عن الأرض، وعندما تصبح الثلاثة أجرام على استقامة واحدة، والقمر في المنتصف فهذا هو وقت ولادة القمر الجديد، وهو ما يسمى بطور المحاق.

هذا الترتيب الهندسي يعني أن ظاهرة «الكسوف» لا بد لها أن تحدث نهاية كل شهر قري. لكن ما يحدث في الواقع أن القمر يكون في نقطة أبعد من أن يصل ظله إلى الأرض فلا تحدث الظاهرة من الأساس. يقول العلماء أن مدار القمر يتقاطع مع مستوى دوران الأرض عند نقطتين، إحداهما تسمى نقطة صاعدة والأخرى تسمى نقطة هابطة. إذا كان مستوى مدار القمر ينطبق تماماً مع مستوى دوران الأرض سوف يحدث «الكسوف» نهاية كل شهر و«الخصوف» منتصف كل شهر، وهذا ما لا يحدث عملياً.

تحدث ظاهرة «الكسوف» فقط إذا وصل ظل القمر إلى الأرض، ويحدث ذلك حصرياً إذا مر القمر بإحدى العقدتين؛ إما الصاعدة وإما الهابطة. كذلك يحدث «الكسوف» الكلي عندما يكون القمر في نقطة أقرب ما يكون للأرض، ويسمى الخسوف، وتكون الأرض أبعد ما تكون عن الشمس. يحدث الكسوف الكلي عندما تكون الأرض أبعد ما يكون عن الشمس، هذا هو ما نبحت عنه وضع الأرض بالنسبة للشمس تحديداً.

من هنا نستطيع القول أن طحا الأرض تعني بُعد أو ابتعاد الأرض عن الشمس حتى تحدث الظاهرة بشكل تام. ظن المفسرون أن طحاها هو مد الأرض أي سطحها، ولكن يبدو أن طحاها تعني مد الأرض ككتلة واحدة، وأبعدها إلى أبعد نقطة حتى تحدث الظاهرة المعروفة بالكسوف.

حالة رائعة ووصف دقيق يثبت أن هذا القرآن هو كلام رب العالمين الخالق، إنها الألفاظ القرآنية التي تصف الحالات والمسميات وصفاً لا يقدر عليه سوى الله ولو اجتمع الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا الوصف ما استطاعوا الوصول لحقيقة الأشياء. نسجل ذلك يقيناً ومعرفة وليس مجرد ترديد أقوال وعبارات موروثه محفوظة في الذاكرة دون أي إدراك لمعناها.

بعد هذه الآيات الكريمة التي وصفت الظاهرة التي نحن بصدد وصفها دقيقاً بلغياً معجزاً حقاً، لدينا الآن إشارات يجب أن تُبحث وتُوضع تحت المجهر، وهي الإشارات الواردة في كتاب الله بعد هذه الآيات. آيات كريمة تتحدث عن علاقة ما بين النفس من حيث الهدى والفجور وبين هذه الظاهرة العلمية:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9)) (سورة

الشمس: الآيات 7-9).

السؤال هنا، ما علاقة الظاهرة التي نحن بصدد وصفها بالنفس البشرية؟

بالبحث سنجد أن علاقة العواصف الشمسية والتأثيرات الكهرومغناطيسية على السلوك النفسي، والأبحاث المنشورة عن علاقة العواصف الشمسية بحالات الانتحار تدعم بشدة العلاقة القوية بين الشمس وبين النفس البشرية (راجع فصل فطرة الله التي فطر الناس عليها، الجزء الأول). يبدو لي أن ظاهرة ضحي الشمس، أو ما يسمى بالكسوف على علاقة وثيقة بالنفس البشرية، أو قد تدعم وتعزز الاستقرار النفسي بشكل أو بآخر. هذا مجرد رأي غير مدعوم بنظريات علمية حتى الآن. من الممكن وضع هذه الاحتمالية والفرضية أمام الباحثين المهتمين بعلم النفس والسلوك النفسي، لفهم تأثير ظاهرة (الكسوف) على الحالة النفسية للإنسان.

هناك طرق عديدة يمكن من خلالها رصد تأثير هذه الظاهرة بشكل علمي، ويعرفها الباحثون جيداً؛ فعلى سبيل المثال يمكن تتبع سجلات المستشفيات النفسية في أيام (الكسوف)، ومدى تأثير الأشخاص في ذلك اليوم، أو حتى تتبع سجلات أجهزة الشرطة عن معدلات الجريمة

في هذا الوقت. يمكن أيضا إخضاع عدد كبير من الأشخاص للاختبارات والقياسات النفسية اوقات الكسوف ومن ثم تسجيل أي تغيرات. كثيرة تلك الطرق التي يستطيع الباحثون من خلالها تتبع تأثير الظاهرة على الإنسان ومعرفة مدى ارتباطها بالبنفس البشرية وسلوك الإنسان. إنها حالة فريدة نقرر فيها أن اللفظ القرآني يمكن أن يهدي إلى معارف لم تُكتشف بعد. بديلاً عن ما يسمى الإعجاز العلمي التقليدي الذي يبحث المكتشفات الحديثة ثم يبحث عن صداها في كتاب الله. نؤسس لمنهج جديد يحاول فهم الكون من خلال فهم اللفظ القرآني الذي يرشد ويشير إلى الآية الكونية من خلال قراءة وتحليل منهجي وليس مجرد رؤية شخصية للمفسر أو الشارح.

## الفصل السادس: قَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ

ومضات ضوئية سريعة وخاطفة تضيئ الكون، ثم صوت متقطع مخيف مع زخات المطر في ليلة شتوية، مشهد سيطر على فكر الإنسان منذ بدء الخليقة وحتى يومنا هذا. التفكير في تلك الظواهر العجيبة مثل: البرق، والرعد والصواعق كان دوماً محفزاً للعقول، وملهماً للخيال. ظواهر مثل البرق والرعد صدها وتأثيرها واضح بشكل كبير في العلوم والفنون على حد سواء. عندما لم يستطع الإنسان فهم هذه الظواهر على حقيقتها، نسج حولها الأساطير، حتى أننا نجد أن كل ثقافة وكل حضارة من الحضارات لديها روايتها الخاصة حول تلك الظواهر البديعة.

لا شك أن هذه الظواهر مثلت رعباً وفزعاً للإنسان الأول الذي صعقته أصواتها واحترقت مزارعه بفعل تأثيرها، ولكن في نفس الوقت كانت تلك المظاهر مصدر وحي وإلهام للإنسان ذي الحس المرهف لما تحمله من روعة وجمال لا يقاوم.

ما بين الأساطير وبين الفن، تلمس العلم طريقه محاولاً اكتشاف سر هذه الظواهر والتي يقف الإنسان أمامها عاجزاً، لا يقدر على شيء. هذا العجز الظاهر في البداية هو ما جعل هذه الظواهر أرضاً خصبة ذاخرة بالأساطير والخزعبلات.

نظرت الحضارات القديمة لمثل هذه الظواهر المحيرة على أنها أحداث مقدسة مرتبطة بالآلهة، فهذه الأحداث خارجة عن سيطرتهم، ولا بد من إيجاد تفسير مريح لها، وإلا أصبح الأمر كابوساً يؤرق وينغص عليهم حياتهم. هل هناك شيء أكثر راحة من أن تعزي الأمر للآلهة أو القوى الخفية تجنباً للجهل والغموض. لجأ علماء القرن السابع الميلادي للأساطير الإغريقية لمحاولة تفسير تلك الظواهر المثيرة، فكانت إحدى تلك الأساطير تتحدث عن البرق كأحد أسلحة الإله زيوس رب الأرباب لدى الإغريق والذي يسكن الجبال.

بحسب الأسطورة، الإله زيوس كان يستخدم تلك الظواهر ليرهب بها أعدائه، أو أداة انتقام إذا تطلب الأمر انتقاماً. في ذلك الوقت سادت تلك المعتقدات وتنوعت أشكالها. ففي



أوروبا على سبيل المثال، آمن الناس بمثل هذه الأساطير، وكان يسمون الإله المسئول عن هذه الظاهرة صانع البرق. بعض الثقافات كان لديها اعتقاد سائد بوجود ثور بين السحب يجر عربة ويمسك مطرقة كلما ضرب بها حدث البرق، أما الصوت المصاحب للضوء فهو نتيجة رفرقة طائر بجناحيه بين السحب.

إذا كان الإله زيوس عند الإغريق هو المسئول عن تلك الظواهر، فالرومان أيضاً لديهم الإله جوبيتر المسئول الأول والمباشر عن تلك الظواهر. كذلك الاسكندنافيين كان لديهم الإله طور هو مسئول صوت الرعد؛ فعندما يضرب بمطرقته وهو راكب على عربته التي يجرها الجديان أثناء تجوله وسط المجرات، تفرقع السماء وتزجر بذلك الصوت المخيف.

الشعوب الأصلية في أستراليا أطلقت على هذا الإله اسم ناماركون. قبائل يوروبا في إفريقيا أطلقت عليه الإله شانغون. الجرمانيون القدماء دعوه دونار. في شرق آسيا اسمه لي جونج، وعند الصينيين كامي، واليابانيين سوسانو، أما شعب المايا في أمريكا الجنوبية فأطلقوا عليه اسم تشاك. لا تكاد حضارة أو ثقافة تخلو من تأثير هذه الظواهر في تراثها.

لم يكن البدو في الجزيرة العربية بدعاً من الأمم، فقد اهتموا كثيراً بهذه الظواهر، وحاولوا تتبعها لما لها من تأثير مباشر على حياتهم، وارتباطها الوثيق بالمطر الذي يعد مصدر حياة لهم، حتى أنه يقال أن بني عدي، إحدى القبائل في شبه الجزيرة العربية، قد عبدوا البرق واتخذوه إلهاً، وعلى ذلك سُموا بارقاً نسبة لمعبودهم البرق.

عندما نزل القرآن، كان هناك ذكر مباشر للبرق، والرعد والصواعق، وقد حاول المفسر تفسير تلك الآيات الكريمة، ولكن بسبب قلة المعارف وقتها، عرفت الأساطير طريقها للتفسير في محاولة لفهم هذه الظواهر. سوف نرى بعد قليل صدى هذه الأساطير في محاولات تفسير الرعد والبرق، عندما تحول الإله الذي يضرب السحاب بالمطرقة إلى ملك يمسك بسوط يضرب به أو يسوق به السحاب، ويصبح البرق وميض هذا السوط، والرعد صوت هذا السوط. سوف نحاول في هذا الفصل اكتشاف ما هو البرق والرعد والصواعق، وما هو الودق اعتماداً على مدلول الكلمة في كتاب الله ومدى مطابقتها للحقائق العلمية.

## الخواطر القرآنية

سوف نكون معنيين في الأسطر القادمة بتحليل ألفاظ البرق، والصواعق، والرعد والودق؛ تلك الكلمات التي ذكرت في كتاب الله، ونحاول مقارنة الكلمات بعضها ببعض، وكذلك مقارنتها بالمعلومات العلمية والجذور اللغوية للوصول للحقيقة قدر المستطاع.

## أولاً: البرق

لقد ذكر لفظ البرق في كتاب الله في خمسة مواضع، وهي كالتالي:

الآية الأولى: (أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي

أَذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ) (سورة البقرة، آية 19)

حملت بعض التفاسير رائحة الأساطير عندما حاولت تفسير وتأويل البرق، عندما ادعت أن البرق سوطاً يضرب به الملك، فيكون منه النور الذي نراه. وهي تأويلات لا تصح مطلقاً، وليس لها علاقة بالمنطق، فضلاً عن أن يكون لها وجه من الاستدلال في كتاب الله. التفسير المختصر والذي من وجهة نظري مقبول ومحاولة معقولة تقارب المنطق هو تفسير السعدي، ومن هنا نحوه حين فسر الآية الكريمة كما يلي:

(ثم قال تعالى: (أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ) يعني أو مثلهم كصيب، أي كصاحب

صيب من السماء، وهو المطر الذي يصب، أي ينزل بكثرة، (فِيهِ ظُلُمَاتٌ) ظلمة الليل،

وظلمة السحاب، وظلمات المطر، (وَرَعْدٌ) وهو الصوت الذي يسمع من السحاب، (وَبَرْقٌ)

وهو الضوء اللامع المشاهد مع السحاب) انتهى التفسير.

السعدي في تفسيره لم يحاول إحقام تفسيرات بشرية أو خيالات شخصية، ولكنه بقدر كبير وقف على الوصف الإلهي والمعرفة البسيطة المتاحة وقتها، بقوله إن البرق هو الضوء والرعد هو الصوت. أما تفسير الصيب فالصحيح عندي أن الصيب هو كما ذكره ربنا سبحانه وتعالى، فيه الظلمات والرعد والبرق، وهذا الوصف ينطبق على السحاب المتراكم الممطر، وليس على المطر نفسه، فيكون الصيب هو السحاب الكثيف المتراكم والذي يسبب ظاهرتي البرق والرعد.

أما تفسير الرعد بالصوت الذي نسمع فأعتقد أنه على غير الحقيقة، وسوف نتحدث عنه بالتفصيل في وقته. أما البرق وهو الضوء اللامع فمن وجهة نظري أنه تفسير منطقي وصحيح.

الآية الثانية: (يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (سورة البقرة، آية 20).

لسنا في حاجة هنا لسرد أقوال المفسرين حول ماهية البرق، ولكن أستعين فقط بالرأي الراجح في تفسير البرق وهو الضوء اللامع، وهذه الآية الكريمة تؤكد ذلك، حيث وصفه الله سبحانه وتعالى بأنه كلما أضاء مشوا فيه. البرق هو الظاهرة الضوئية التي نراها جميعاً عندما تتكون السحب وتتراكم بعضها فوق بعض، وهو نتيجة لبعض العمليات والتفاعلات، كما سوف يتضح بعد قليل. باقي الآيات الكريمة التي ذكر فيها البرق تقرر وتثبت مدلول الكلمة على أنه الظاهرة الضوئية فلا حاجة لسرد المزيد.

الآية الثالثة: (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ) (سورة الرعد، آية 12).

الآية الرابعة: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ) (سورة النور، آية 43).

الآية الخامسة: (وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (سورة الروم، آية 24).

ثانياً: ما المقصود بالصواعق أو الصاعقة؟

ذكر لفظ صعق أو أحد مشتقاته في كتاب الله في عشرة مواضع، حيث جاء اللفظ بصيغة صعق أو يصعقون في ثلاثة مواضع، ولفظ صاعقة في خمسة مواضع، ولفظ الصواعق في موضعين. بترتيل الآيات الكريمة نجد أن الصاعقة هو الصوت الشديد، أو بتعبير علمي

هي موجات صوتية ذات تردد مرتفع للغاية، وبالتالي فإن الظاهرة الصوتية المصاحبة للظاهرة الضوئية هي الصواعق، وليست رعداً كما يفهمها الناس. حتى نزيل الشك باليقين سوف نحاول تأويل الآيات التالية وبيان المقصود.

الآية الأولى: (وَلَمَّا جَاء مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن نَرَاكَ وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ) (سورة الأعراف، آية 143).

مجمل التفسيرات حول (وخر موسى صعقاً) لم تخرج عن كون موسى (عليه السلام) سقط مغشياً عليه أو ميتاً. من خلال الوقوف على الآية الكريمة ومن خلال فهم لفظ الصعق، نجد أن نبي الله موسى (عليه السلام) سقط مصعوقاً، كما أخبر كتاب الله. لكي يسقط نبي الله موسى مصعوقاً، لا بد أن يكون هناك سبب ما هو ما جعله يسقط هكذا. الصعق هو نتيجة صاعقة، والصاعقة هي الصوت الشديد. يبدو أن عملية الصعق التي أصابت نبي الله موسى كانت نتيجة صوت مرتفع أو صوت ذو تردد عالٍ، مما يدل أو يشير إلى أن عملية دك الجبل تمت عن طريق تردد صوتي مرتفع للغاية.

إنه إشارة لأولي الألباب من ضمن إشارات القرآن الكريم ترشد وتدل الإنسان إلى تأثير الموجات الصوتية ذات التردد المرتفع للغاية، والتي يمكنها من تحطيم الصخور والأحجار، بل وطحنها وتسويتها بالأرض. فهم هذه الآية الكريمة يفتح الباب أمام استخدام تقنية التردد الصوتي في دك أو تحطيم الصخور على مستوى كبير، وقد يستفيد منها الإنسان في تطبيقات لا حصر لها. مرة أخرى، اللفظ القرآني يهدي، ويرشد ويقود الإنسان لمعارف جديدة. كل ما نحتاجه فهم منهجي للفظ القرآني، وربط الآيات اللفظية بالآيات الكونية. وهذه هي الخطوة التي سوف تقودنا لاكتشاف القانون الواحد الذي يربط كل مكونات الكون والذي يدل على الوحدانية.

الصعق لا شك هو الظاهرة الصوتية، ومن خلال الآيات القادمة سوف نقدم الدلائل القاطعة والتي لا يمكن إهمالها أو التغاضي عنها.

الآية الثانية: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) (سورة الزمر، آية 68).

من خلال تحليل المشهد نجد أن عملية النفخ التي حدثت قد صدر عنها صوت، وعلى ذلك لا بد أن المسمى أو الشئ الذي يطلق عليه الصور هو شئ متعلق بالصوت، بل هو مصدر هذا الصوت. لو تتبعنا النفخ والصعق في كتاب الله لأدركنا طبيعة الصوت الذي صعق بسببه من في السماوات والأرض، بل ويمكن تحديد تردده. وصف ربنا الصوت هذا بالصرير من خلال سورة الحاقة. لعل علماء الفيزياء من خلال فهم هذا الصرير بالتعاون مع علماء اللغة لفهم مدلول الحروف يتكفون من تحديد تردد هذا الصرير ومدى، قوته وبالتالي يصبح الباب مفتوحاً أمام الاستفادة من هذه الظاهرة.

في سورة الحاقة، يخبرنا ربنا عن الصاعقة التي أهلكت قوم عاد وعن طبيعتها، ووصفها فقال رِيحٌ صَرْصَرٌ عَاتِيَةٌ، (وَأَمَّا عَادُ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ) (سورة الحاقة، آية 6). ها نحن نستجلي معنى الصعق، بل والأكثر من ذلك طبيعة الصوت الذي وصفه ربنا بالصرير.

الآية الثالثة: (فَدَرَّهُمْ حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ) (سورة الطور، آية 45).

الآية الكريمة تتحدث عن الصعق يوم القيامة، وبالطبع عن طريق النفخ في الصور كما ورد في الآية السابقة. لفظ صعق ورد بصيغة صاعقة في خمسة مواضع:

الآية الأولى: (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) (سورة البقرة، آية 5).

الآية الثانية: (يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُهُوبِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا) (سورة النساء، آية 153).

الآية الثالثة: (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ) (سورة فصلت، آية 13).

في الآية الثالثة نجد أن مدلول لفظ الصاعقة جاء أكثر وضوحاً، فصاعقة عاد هي كما ذكرها ربنا ريحاً صرصراً عاتية، وصاعقة ثمود وصفها ربنا بالطاغية أي التي تطغى على كل شيء، وهنا يتضح أنها صوت ذو تردد مرتفع لدرجة كبيرة جداً.

الآية الرابعة: (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةٌ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (سورة فصلت، آية 17).

وصفت الصاعقة بعذاب الهون في هذه الآية الكريمة، وكأن ربنا يرسل الإشارات لكي يتدبر أهل القرآن. الموجات الصوتية تبدو هينة في حقيقتها، ومع ذلك لها تأثير مدمر. والآية التالية تؤيد ذلك حيث أخذتهم الصاعقة وهم ينظرون، أي أن تأثير الصاعقة كان ذا بعدٍ زمني، واستمر لوقت حتى أهلكهم.

الآية الخامسة: (فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ) (سورة الذاريات، آية 44).

يجب أن نأخذ في الاعتبار البعد الزمني للصواعق ومدى شدتها وتأثيرها، فهناك إشارات في كتاب الله على ذلك. فموسى (عليه السلام) خر صعقاً، ولم يهلك من تأثير الصاعقة التي دك الله بها الجبل. أما قوم عاد وثمود فقد هلكوا من تأثير صاعقة أخرى، ولكن يبدو أنها كانت مختلفة في البعد الزمني الذي استغرقتة.

صيغة الصواعق وردت في كتاب الله في موضعين:

الآية الأولى: (أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ) (سورة البقرة، آية 19).

محاولة تفسير الرعد بالصوت المسموع هي تسمية بشرية خالصة لم تصب أبداً كبد الحقيقة. المشهد القادم الذي تعرضه الآية الكريمة لا يحتاج لتأويل، أو حتى تفسير أو اجتهاد. فعنى الصواعق هنا ظاهر كالشمس في كبد السماء، وهو الصوت الشديد. يقول ربنا: (يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ)، نعم إنه صوت، وإلا ما الذي يجعل الإنسان يضع أصابعه في آذانه؟

هل يضعون أصابعهم في آذانهن من تأثير الضوء مثلاً أو من تأثير الكهرباء؟ بالطبع هو تأثير صوتي مزعج جعلهم مرعوبين من الأذى المحتمل الذي قد يصيب آذانهم، فجعلوا أصابعهم في آذانهم حماية لها. الصواعق هي بالظاهرة الصوتية المصاحبة لتراكم السحب ونزول الأمطار، فإذا كانت الظاهرة الضوئية تسمى بالبرق، فإن الظاهرة الصوتية تسمى بالصواعق، وليس الرعد كما هو مشاع.

الآية الثانية: (وَيَسْبَحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحِجَالِ) (سورة الرعد، آية 13).

في هذه الآية الكريمة أيضاً يخبرنا ربنا عن الصواعق المرتبطة بالسحب والأمطار. ومن الواضح أن الرعد والصواعق شيئان مختلفان. وقد يجادل أحدهم ويقول إن الصواعق هي صوت الرعد، فنسأله وما هو الرعد؟ وإذا كانت الصواعق والرعد تحمل نفس المعنى، فأعد قراءة الآية الكريمة لترى أن هذا تكلف ولا يصح، فالرعد شيء والصواعق التي هي الصوت شيء آخر.

علياً تحدث الصواعق أو الصوت الذي نسمعه ونطلق عليه خطأ الرعد نتيجة التفريغ الكهربائي، حيث تقوم الموجات الكهربائية أو الشحنات الكهربائية المنطلقة بتسخين الهواء في مسارها مما يؤدي إلى توسيع مسار تلك الشحنة بسرعة فائقة، والتي تسبب الصوت المتقطع الذي نسمعه. يحدث هذا الصوت في جميع أنحاء الأرض بمعدل 50-100 تفريغ في الثانية

الواحدة. الموجات الصوتية هذه تتم على ارتفاعات مختلفة، لذلك يبدو الصوت الناتج متقطعاً بسبب أن كل موجة تستغرق زمناً مختلفاً للوصول للإنسان.

### ثالثاً: الرعد

إذا كانت الصواعق هي الظواهر الصوتية المصاحبة للبرق، فإذا يكون الرعد إذن؟ ذكر الرعد في كتاب الله في موضعين، وهما:

الآية الأولى: (أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ) (سورة البقرة، آية 19).

سبق تأويل كلمة صيب وكلمة البرق في هذه الآية الكريمة، ويبقى أن نعرف ما هو الرعد. بسبب ورود كلمة رعد مرتين فقط في كتاب الله سوف نحاول الاستعانة بقاموس اللغة وجذور الكلمات لمعرفة أصل كلمة رعد.

في مقاييس اللغة لابن فارس، جذر كلمة رعد وهو الرء والعين والذال، له أصل واحد وهو حركة واضطراب، ثم إن ابن فارس قال في تفسير رعد أيضاً أنه ملك يسوق السحاب، ومن الواضح أن ابن فارس اعتمد التفسيرات في وصف الرعد. ما يهمنا هو جذر الكلمة وهو الحركة والاضطراب، فأى شئ يمكن أن ينطبق عليه وصف الحركة والاضطراب من مكونات السحب أو الظواهر المصاحبة لتراكم السحب؟

تم تعريف ما هو البرق وما هي الصواعق، لم يتبق سوى الرعد. من الواضح أن الرعد متعلق بالنشاط الكهربائي أو التفريغ الكهربائي الناتج من تراكم الشحنات الكهربائية في طرفي السحابة، وهذا التفريغ الكهربائي هو السبب الرئيس لحدوث الظاهرة الضوئية (البرق) والظاهرة الصوتية (الصواعق). من الملاحظ أن الرعد يسبق البرق في الآية الكريمة، مع أنه علمياً لو كان الرعد هو الصوت، فإن البرق هو ما يسبق الرعد، وليس العكس. كتاب الله ذكر الرعد سابقاً للبرق، فهل تعتقد أن الترتيب جاء عبثياً؟ إن كان الكاتب العبقري يختار



مفرداته بعناية فائقة، ويراعي الفروق في المعنى، ويقصد الترتيب والتقديم والتأخير، فما بالكم برب العالمين وهو العليم الحكيم.

لم يتطرق أحد لوصف الرعد بالشحنات الكهربائية أو أشار لعلاقة الرعد بالتفريغ الكهربائي في كتب التفسير، بسبب قلة المعارف وقتها. ولكن إذا نظرنا إلى وصف السحاب المتراكم ووصف الظاهرة الضوئية بالبرق ثم الظاهرة الصوتية بالصواعق، فيتبقى لدينا ظاهرة الشحنات الكهربائية، وفي المقابل مسمى الرعد وجذر الكلمة يصف المسمى حيث الحركة والاضطراب، وهو طبيعة الشحنات الكهربائية. انظر لترتيب الكلمات في الآية الكريمة ظلمات - رعد - برق، وهو ترتيب ليس عبثياً كما ذكرنا في ظاهرة السحب المطيرة، حيث يتم التكوين في البداية عن طريق تراكم السحب وتكاثفها، والتي لو حاولنا وصفها فما هي إلا ظلمات فوق ظلمات بسبب هذا التراكم المستمر، ثم عملية التفريغ الكهربائي (الرعد)، ثم الضوء (البرق)، ثم بعد فترة تأتي الصواعق، وهي الأصوات التي يشفق الناس منها ويجعلون أصابعهم في آذانهم.

الآية الثانية: (وَيَسْبَحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحِجَالِ) (سورة الرعد، آية 13).

هذه الآية الكريمة تؤكد وتضيف دليلاً جديداً على أن الرعد هو التفريغ الكهربائي من خلال فهم لفظ يسبح الدال على الحركة الدائمة، حيث يعطي وصفاً تفصيلياً لهذا الرعد المستمر بالحركة، مما ينطبق تماماً مع صفات وخصائص الشحنات الكهربائية. إعادة النظر في مفهوم كلمة صواعق الدارجة، والتي نستخدمها لوصف الشحنات الكهربائية، وكذلك كلمة رعد والتي نستخدمها بمعنى الصوت، أعتقد أصبح ضرورة، وخصوصاً بعد هذا الكم من الأدلة والبراهين.

إعادة ترتيب هذه المسميات كما وصفها الله سبحانه وتعالى، حيث الرعد هو الشحنات الكهربائية، والصواعق هي الظواهر الصوتية، دليل لا يمكن دحضه على أن التسميات في كتاب الله مسميات حقيقية، وأن اللغة العربية بألفاظها القرآنية هي لغة إلهية وليست لغة بشرية. فيجب

الانتباه وعدم هيمنة لسان أهل الجزيرة على ألفاظ القرآن الكريم بحجة أنهم أكثر الناس دراية ومعرفة باللغة.

لسان العرب قادر على وصف الظواهر التي يراها حوله ويلبسها ويعرف كنهها، أما المسميات، وفي القلب منها الظواهر الكونية، لا يستطيع لسان العرب مهما أوتي من قوة وفصاحة وصفها هذا الوصف الدقيق الملم بتفاصيلها كما وصفها القرآن الكريم بكل دقة وإحكام.

#### رابعاً: الودق

ما هو الودق الذي ذُكر في كتاب الله في موضعين اثنين يتعلق بالسحب والظواهر المصاحبة لها؟ قبل أن نلقي الضوء على كلمة الودق ونحاول تأويلها، سوف نستعرض بعض وجهات النظر العلمية حول كيفية تكون البرق والرعد، حتى نستطيع معرفة ما المقصود بالودق. حتى يومنا هذا تعتبر عملية الشحن الكهربائي التي تحدث داخل السحب مسألة حولها خلاف ولا يوجد دليل قطعي على كيفية حدوثها يمكنك اعتماده وتبنيه بصورة موثقة. لعل كثرة العوامل الداخلة والمؤثرة في عملية التكهرب مثل حركة الهواء الجوي والظواهر الذرية هي ما جعلت البت في منشأ الظواهر المصاحبة للسحب أمراً صعباً للغاية.

عام 1752م استنتج الأمريكي بنجامين فرانكلين أن السحب المسئولة عن تفجير الشحنة الكهربائية غالباً تكون في حالة سالبة، وفي بعض الأحيان تكون السحب في حالة موجبة. وقد ظهر مؤخراً أن هذا الارتباك ما هو إلا نتاج مشاهدات مغلوطة. قد كان من المعروف أن التفريغ الكهربائي للسحب (المشهور باسم الصواعق) يحدث بسبب انتقال الشحنة سواء السالبة أو الموجبة من منطقة إلى منطقة أخرى، سواء كانت هذه المنطقة داخل السحابة نفسها أو الانتقال كان بين السحابة والأرض.

لكي يحدث انتقال الشحنات، لا بد أن تحمل السحابة شحنات كهربية، بالإضافة إلى وجود فرق في الجهد (فرق الجهد في السحابة هو انفصال في الشحنات، حيث تنفصل الشحنات السالبة عن الشحنات الموجبة، ونتيجة لهذا الانفصال ينشأ ما يسمى فرق الجهد بينهما). والآن دعونا نتساءل كيف يحدث انفصال الشحنات هذا؟

الإجابة على هذا السؤال ليست سهلة أبداً، ولعل المشاهدات والفرضيات لم تعطي وصفاً دقيقاً لهذه العملية. وهناك ثلاث فرضيات أو نظريات تفسر انفصال الشحنات، ومن ثم حدوث التفريغ الكهربائي.

أولاً: فرضية الحث الكهرو سكوني أو الحث الالكتروستاتيكي Electrostatic

### Induction

يتم الشحن بحسب هذه النظرية عن طريق عملية غير معروفة تماماً، حيث عملية انفصال الشحنات تتطلب سحب قطرات الماء إلى أعلى داخل السحابة، حيث درجات الحرارة المنخفضة جداً، فيحدث التبريد لهذه القطرات لدرجة تصل إلى 20 درجة مئوية تحت الصفر، وتختلط ببلورات الثلج الموجودة في الأعلى وتكون ما يسمى بالبرد. التصادمات التي تحدث نتيجة لهذا السحب والتبريد وتغيير الحالة ينتج عنها شحنات موجبة تنتقل إلى بلورات الثلج في الأعلى وشحنات سالبة تنتقل إلى حبيبات البرد في الأسفل. وكنتيجة طبيعية لوجود الشحنات الموجبة في الأعلى والشحنات السالبة في الأسفل يتولد فرق في الجهد. من المفترض أن عملية الفصل هذه مستمرة بسبب الحركة المستمرة داخل السحب إلى أن يصل تراكم هذه الشحنات إلى نقطة تكون كافية لحدوث التفريغ الكهربائي، أو ما يسمى «بالصاعقة الكهربائية».

ثانياً: نظرية الاستقطاب الميكانيكي Mechanism Polarization

هذه النظرية أيضاً لا تزال موضع دراسة وبحث، وهي تعتمد على مبدئين أساسيين هما: المبدأ الأول: تساقط قطرات المطر والثلج، والتي تصبح مستقطبة بفعل حقل الأرض الكهرومغناطيسي الطبيعي.

المبدأ الثاني: بلورات الثلج في السحب يتم شحنها بواسطة الاحتكاك مع الحبيبات أو البلورات و القطرات المتساقطة بواسطة الحث الكتروستاتيكي، وهذا بدوره يؤدي لتراكم الشحنات داخل السحب كما في الحالة الأولى.

## ثالثاً: نظرية هروب الانكسار

نظرية الفيزيائي الروسي ألكسندر كورفيتش، بمعهد لينيدوف عام 1992م، حيث تقوم فرضية كورفيتش على أن عملية فصل الشحنات تتم عن طريق الأشعة الكونية، والتي تقوم بتأيين الذرات ومن ثم انفصال الشحنات، وبالتالي يحدث فرق الجهد والذي يسبب التفريغ الكهربى.

إن كانت كل نظرية تملك وجهة نظر مغايرة لتفسير منشأ الشحنات، إلا أن هذا لا يلغى أبداً تراكم الشحنات وحدوث التفريغ الكهربى، ومن ثم الظاهرة الضوئية والظاهرة الصوتية. الجدير بالذكر أن فرق الجهد في حالة تراكم السحب قد يصل إلى مئات الملايين من الفولتات، وتنتقل شحنة مقدارها 10 كولوم على الأقل إلى الأرض (نقل شحنة تساوي كولوم واحد في ثانية واحدة تحتاج لتيار شدته 1 أمبير)، وعلى ذلك فإن التفريغ الكهربى الحادث من تراكم السحب يساوي تياراً كهربياً أكبر بكثير من 10 أمبير، لأن التفريغ الكهربى يحدث في جزء صغير من الثانية.

قدر العلماء متوسط الطاقة التي يمكن أن تنتجها السحب المتراكمة في الدقيقة بمئات الميجاوات، وهي في الحقيقة تمثل قدرة محطة نووية من الحجم الصغير. بعد استعراض تلك المعلومات البسيطة عن كيفية نشوء البرق والصواعق، وكيف أن البداية كانت مع التفريغ الكهربى والذي أطلقنا عليه الرعد، وأن هذا التفريغ الكهربى ما كان له أن يحدث إلا بتراكم الشحنات الكهربائية ووصولها للحد الذي يكفي لعملية التفريغ الكهربى. يصبح الآن الطريق ممهداً لمعرفة ما هو الودق.

إذا كانت الفرضيات والنظريات إلى الآن لم تجزم بشيء مؤكداً، فإننا لا يمكن اعتماد أي منها في تفسير الودق وما هو الودق. غير أن سياق الآيات وربطها بكيفية تكون البرق والتفريغ الكهربى، توضح لنا أن الودق قد يكون المقصود به هو الشحنة الكهربائية نفسها، فإذا كان الرعد هو عملية التفريغ الكهربى للشحنات الكهربائية، فإن الودق قد يكون هو الشحنة الكهربائية التي تراكمت وحدث لها تفريغ، ثم أنتجت البرق والصواعق.

لا أستطيع حقيقة أن أجزم هل المقصود بكلمة الودق هو الشحنات السالبة والتي تقترن بالإلكترونات، أم الموجبة والتي تقترن بالبروتونات، أم أنه الشحنة الكهربائية كمقدار ثابت. أعتقد كلمة مثل كلمة الودق تحتاج لتدقيق أكثر ودراسة أعمق، فربما تكون مفتاحاً لفهم عملية شحن السحب، بل والأكثر من ذلك قد تكون مفتاحاً لفهم الشحنات الكهربائية نفسها وكنهها. بالعودة لكتاب الله، سنجد إشارة بديعة عن الودق، وأقصد هنا كتاب الله، وليست تفسيرات المفسرين. لقد ورد لفظ الودق في كتاب الله في موضعين:

الآية الأولى: (اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) (سورة الروم، آية 48).

الآية الثانية: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنَ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ) (سورة النور، آية 43).

يقول المفسر أن الودق هو الماء فهل بالفعل الودق هو الماء. الماء المتساقط من السحب ذكره الله تعالى باسم المطر في حالة الضر، وباسم الغيث في حالة النفع، ودلت الآيات الكريمة عليه بفعل ينزل في حالة السحاب، وليس يخرج. كلمة خلال في كتاب الله التي جاءت مع الودق توحى بتخلل الأشياء، فعندما يخبرنا ربنا أن الودق يخرج من خلاله، فكأنه يصف تلك الأشياء التي تخرج من السحب المتراكمة وليست تنزل، وكلمة من خلاله ليست تعني من وسطه كما فسر البعض، ولكن تعني تخرج من بين التراكبات والتجمعات جميعها.

أما قول الله سبحانه وتعالى (وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ). أما البرد فقد شرحناه في معرض حديثنا عن النظريات التي حاولت تفسير نشوء البرق والتفريغ الكهربائي،

وجدير بالذكر أن نلقي الضوء إلى أن ارتفاع السحب في بعض الأحيان يصل الى عشرة كيلومترات أو أكثر، والبرد هو حبيبات الثلج الناعمة المتركمة في هذه السحب.

أما قول الله سبحانه وتعالى (يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ)، فقد جاء تفسيره على النحو التالي: «وقوله (يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ)، يقول: يكاد شدة ضوء برق هذا السحاب يذهب بأبصار من لاقى بصره، والسنا مقصور، وهو ضوء البرق. عن ابن عباس قوله: (يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ)، قال: ضوء برقه. عن قتادة، في قوله: (يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ)، يقول: لمعان البرق يذهب بالأبصار. قال ابن زيد، في قوله: (يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ)، قال: سناه ضوء يذهب بالأبصار»، انتهى التفسير.

في تفسير السعدي، يعتقد أن الهاء في برقه عائدة على السحاب، بمعنى يكاد برق السحاب «يكاد ضوء برق ذلك السحاب»، وقد جاءت معظم التفاسير بنفس المعنى تقريباً حيث البرق عائد على السحاب، ولكن أعتقد أن سنا برقه يعود على الودق، فالمقصود هنا هو الودق أي أن سنا البرق هو ناتج من الودق. وقبل أن أعطي استنتاجاً كاملاً حول هذه النقطة، أود أن أشير إلى تعبيرين في الآيتين الكريميتين وهما تعبير كسفا في الآية الأولى (فَتَشِيرُ سَحَابًا فَيَسْطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ)، وقد شرحنا الكسف في الفصل الخاص بكسوف الشمس، وبيننا أن المقصود هو قطع أو أجزاء مكثفة ومضغوطة، أما التعبير الثاني في الآية الثانية وهو تعبير ركاماً (يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ)، والركام هو أيضاً الطبقات بعضها فوق بعض وهي قطع متكاثفة من السحب.

من الواضح أن التراكم والتكاثف الذي يحدث للسحاب هو السبب الرئيس لخروج الودق، وكما تشير المعلومات العلمية أن عملية التراكم هذه يتبعها خروج شحنات كهربية والتي تتراكم في طرفي السحابة استعداداً لعملية التفريغ الكهربائي. هكذا نكون قد اقتربنا كثيراً من مفهوم ودلالة كلمة الودق، والتي أرجح أن تكون الشحنة الكهربية.

بناء على المعلومات السابقة، يمكننا تصور وفهم آخر لعملية نشوء الشحنات والتفريغ الكهربائي يمكن صياغته ربما يكون صحيحاً وربما يحتاج لتعديل. اعتماداً على الآيتين التاليتين (اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) (سورة الروم: الآية 48).

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنًا بَرَقَهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ) (سورة النور: الآية 43).

وكذلك عن طريق عقد مقارنة بين اللفظ القرآني وبين المعلومات العلمية، فإننا نعتقد أن جزيئات بخار الماء المتصاعد تحمل على سطحها شحنات جزئية بعضها سالب والآخر موجب، نتيجة استقطاب المجال الكهربائي الطبيعي للأرض، أو قد تكون بفعل الأشعة الكونية، وعندما يحدث التكاثر والتراكم لهذه السحب يحدث بالتالي تكاثر لهذه الشحنات الجزئية سواء السالبة منها أو الموجبة.

في الوضع الطبيعي، توزيع الشحنات داخل السحب يساعد على أن تبقى السحب في حالة منفردة غير متكاثفة، ولكن بسبب قوة تجاذب معينة، تؤدي هذه القوة إلى تراكم قطع السحب المختلفة مما يسبب تناثر الشحنات الكهربائية الموجودة في السحب، ويؤدي ذلك بدوره إلى انفصال هذه الشحنات وتراكمها على طرفي السحابة، مع استمرار تكاثر السحب يزداد تكاثر الشحنات، وبالتالي انفصالها وتميزها إلى شحنات سالبة وشحنات موجبة حتى يصل فرق الجهد بين طرفي السحابة إلى قيمة مناسبة لحدوث عملية التفريغ الكهربائي. تبدأ عملية التفريغ الكهربائي (الرعد) والذي يسبب الضوء الساطع (البرق)، ونتيجة تسخين الهواء بفعل التفريغ الكهربائي يصدر الصوت الذي نسمع (الصواعق).

ما زال أمام هذا الفصل الكثير والكثير والذي أشرح له متخصصين في علوم الفيزياء والظواهر المناخية بالتعاون من علماء اللغة لفهم كلمة الودق ومدلولها. ربما الوقوف على مدلول

كلمة الودق يفتح أمامنا طاقات معرفة عن الشحنات الكهربائية وطبيعتها وخصائصها وصفاتها لم تكتشف بعد.





## الفصل السابع: مَنْطِقَ الطَّيْرِ

كتاب قديم تعود أصوله إلى الهند، يحوي مجموعة معتبرة من القصص والحكايات. يقول الباحثون أن ابن المقفع قد ترجم الكتاب عن اللغة الفارسية وزاد عليه بعض الفصول التي لم تكن فيه من الأساس واسماه كليلة ودمنة.

لقد كان اللجوء للحيوانات واستنطاقهم ضرورة، فالكتاب يتعرض للعلاقة بين الحاكم والمحكوم، ويشمل مجموعة من الحكم والمواعظ ما كان لها أن تمر بسهولة بدون هذه الحيلة الذكية. الحيوانات هي الشخصيات الرئيسة في الكتاب، حيث يقوم بدور البطولة الأسد الملك، ثم شتربة الثور خادم الملك، واثنان من فصيلة ابن آوى وهما كليلة ودمنة. قد تبدو الأمور مسلية وممتعة، ولكن ماذا لو تحقق هذا الأمر واستطاع الإنسان فهم منطق الحيوانات؟ يبدو أننا على أعتاب أحداث عظام، وقصص واقعية سوف نسجلها قريباً للمخلوقات الأخرى بخلاف الإنسان، كل ما يلزمنا هو فك لغز شفرة منطق الدواب حتى نستمتع منها بشكل حصري إلى تاريخها، ونتعرف على وجهة نظرها في الحياة وفي الإنسان. لك أن تتخيل حجم المعارف والعلم الذي من الممكن أن يتبدى أمام الإنسان فقط إذا استطاع فك لغز منطق المخلوقات وفهمه. إننا بانتظار شامبليون آخر على غرار شامبليون حجر رشيد ليفتح للبشرية باباً معرفياً موصداً عن عالم، بل عوالم مختبئة تحت ترددات صوتية لا ندري عنها شيئاً.

عملية فك الترددات الصوتية وترجمتها إلى لغة مفهومة ليست خيالاً، وإنما علم يخطو بخطى ثابتة، ويوماً ما لا شك قادم سوف يتحقق هذا الحلم الذي يراود كثير من العلماء والباحثين. قبل أن يشير العلم الحديث لهذه الإمكانية، أشار كتاب الله إشارات لدى مدلولها لدى كل من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، أحسن القصص بلا منازع وأصدق الحديث بلا أدنى شك وكل ما فيه حق. وها هي قصة نبي الله سليمان مع الطير، وكيف فهم منطقهم،

وما دلالة ذلك لقوم يعلمون، إن كان أعطى الله نبيه سليمان هذا العلم وجعله آية، فلا شك أنها إشارة تحتاج للتوقف كثيراً. لا يليق بنا وبين أيدينا هذا الكم من المعارف أن نتجاوز ونعبر هذا الحدث العظيم والفريد دون توقف وتدبر.

سيقول أصحاب المجاز أن النمل ليس نمل وان الطير تعبير مجازي وهذا أمر مفهوم بسبب صعوبة فهم ما حدث بشكل منطقي. لكن لو افترضنا أن ما حدث حدث على وجه الحقيقية فسوف يقودنا هذا الفرض إلى محاولة بحث وفهم كيف تم هذا وماذا يمكن أن تفيدنا هكذا معلومات. القول بالمجاز مريح ولا يتطلب الغوص في العلوم ولا جهد التفكير الزائد؛ بينما القول بحقيقة ما حدث يتطلب عمل ذهني بالغ الصعوبة وأكثر الناس في التفكير زاهدون.

هذا الفصل يحمل تساؤلات أكثر بكثير من كونه يحمل إجابات، لعل هذه التساؤلات تجد إجابات عند أهل التخصص أو حتى تفتح عيونهم على أشياء جديدة وربما تساعد في فهم بعض الظواهر العلمية.

### الخواطر القرآنية

سميت السورة التي نحن في رحابها سورة النمل، ولعل التسمية هنا تحوي سرًا عظيمًا، ولنحاول قدر فهمنا أن نقرأ آيات من هذه السورة العظيمة.

(وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ) (سورة النمل، آية 16).

(حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) (سورة النمل، آية 18).

إن ما ذكره ربنا هنا في كتابه أن نبي الله سليمان علم منطق الطير، ثم بعد ذلك نجد أن نبي الله سليمان فهم منطق النمل، مع أن الآية الكريمة تتحدث عن منطق الطير، فإلى أي شيء يمكن أن تقودنا هذه الإشارة؟ لأن كتاب الله ينطق بالحق وقول الله هو الحق، فلا بد أن هناك سرًا في هذا الترتيب.

كيف تأول الأقدمون هذه الآية الكريمة وكيف حاولوا التوفيق بين منطق الطير وقول النمل. جاء في تفسير ابن كثير ما يلي:

(قوله: (يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء)، أي أخبر سليمان بنعم الله عليه، فيما وهبه له من الملك التام، والتمكين العظيم، حتى إنه سخر له الإنس والجن والطيور. وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضاً، وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر - فيما علمناه - مما أخبر الله به ورسوله، ومن زعم من الجهلة والرعاغ أن الحيوانات كانت تنطق كنطق بني آدم قبل سليمان بن داود - كما يتفوه به كثير من الناس - فهو قول بلا علم، ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة، إذ كلهم يسمع كلام الطيور والبهائم ويعرف ما تقول، فليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا، بل لم تزل البهائم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خلقت إلى زماننا هذا على هذا الشكل والمنوال، ولكن الله سبحانه وتعالى كان قد أفهم سليمان عليه السلام، ما يتخاطب به الطيور في الهواء، وما تنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها، ولهذا قال: (علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء)، أي مما يحتاج إليه الملك، (إن هذا هو الفضل المبين)، أي الظاهر البين لله علينا) انتهى التفسير.

ابن كثير هنا يعيب على الرعاغ والجهلة قولهم إن سائر المخلوقات كانت تنطق كنطق بني آدم، وهو محق كل الحق في ذلك، فالمخلوقات لها منطق ولكن ليس كنطق بني آدم ولو أنها كانت تنطق كما ينطق بني آدم ما احتاج نبي الله تعلم نطقها، ولكن لأن نطقها يختلف ويحتاج فهم مدلول أصواتها، علم الله نبيه سليمان هذا العلم الذي استطاع من خلاله فهم منطق النمل. يحق لنا أن نتساءل بنفس منطق ابن كثير، من أين أتى ابن كثير بالقول إن نبي الله سليمان تعلم منطق سائر الحيوانات، ولم يذكر القرآن صراحة سوى منطق الطير؟ لعل فهم نبي الله سليمان قول النملة هو ما أشكل على ابن كثير، إذ أنه لو توقف عند جنس الطير لأصبح منطق النمل غير مفسر وغير مبرر.

قال ابن العربي: من قال إنه لا يعلم إلا منطق الطير فنقصان عظيم، وقد اتفق الناس على أنه كان يفهم كلام من لا يتكلم ويخلق له فيه القول من النبات، فكان كل نبت يقول له أنا شجر كذا، أنفع من كذا وأضر من كذا، فما ظنك بالحيوان) انتهى الاقتباس من التفاسير. لقد اقترب قتادة والشعبي كثيراً، وقولهما إن هذه النملة كانت ذات جناحين هو قول مرسل وإن كانت محاولة محمودة، ولربما لو أتيح لهما الاطلاع على علوم اليوم، لربما كان لهما موقف آخر. أما قول فرقة من المفسرين إنه علم منطق جميع الحيوان، ولكن خص الطير لأنه جند من جنود سليمان يحتاجه كثيراً فخصه بالذكر، هو قول لا دليل عليه وإنما هو أقرب للأمانى.

أما قول ابن عربي: كان نبي الله سليمان يفهم كلام من لا يتكلم ويخلق له فيه القول من النبات فكان النبات يقول له أنا شجر كذا، فما ظنك بالحيوان، فهو تجرؤ وقول ليس عليه أدنى دليل، والعجيب يعيب ابن عربي على من يقول إنه لا يفهم إلا منطق الطير، ويستشهد بالإجماع على أن الناس اتفقوا على أنه كان يفهم كلام من لا يتكلم، وهل إذا اتفق العالمون على قول ما بدون دليل يعتبر هذا الإجماع دليل علمي ومنطقي يمكن الاحتجاج به في مسألة كهذه؟

اتفاق العالمين بدون دليل واضح يخصهم وحدهم، وكلام ربنا هو الذكر الذي ينطق بالحق، فإذا قال ربنا عن سليمان حاكياً عن نفسه علمنا منطق الطير فالمقصود هنا الطير، وهنا يجب إعادة النظر في المسمى، وإذا ورد قول النملة كنوع من منطق الطير فذلك أدعى أن يثير ويحفز عقولنا لنبحث عن المسمى وتوصيفه، فإن أصبنا فبتوفيق الله، وإن اخطأنا فحسبنا أننا وقفنا على كتاب الله.

الفهم العميق لكلمة طير يعيد تشكيل فهمنا للمفهوم التقليدي للطير، أو ربما يفتح الباب على مصراعيه أمام فرضيات التطور واكتشاف معلومات عن تاريخ الأنواع والكائنات. بالنهاية يبقى كتاب الله هو الشئ الوحيد الثابت والكل يسبح حوله.

كلمة طير وردت في كتاب الله سبعة عشر مرة، منها ست مرات خاصة بنبي الله داود وسليمان (عليهما السلام)، منها ثلاث مرات في سورة النمل فقط، أما النمل بصيغة الجمع فقد ذُكر مرتين، ومرة واحدة بصيغة المفرد ثملة.

### مدلول كلمة طير

جذر كلمة طير لها أصل واحد، وهو خفة الشيء في الهواء كما في قاموس بن فارس. من الواضح أن جنس الطير متعلق بالشيء الخفيف، وها هي الآية القرآنية الكريمة التالية تفرق بين الطائر الذي يطير بجناحيه وبين الدابة التي تدب على الأرض، ولنا وقفة مع عبارة طائر يطير بجناحيه.

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) (سورة الأنعام، آية 38).

لو حاولنا تسليط الضوء على عبارة (طائر يطير بجناحيه)، فهل معنى ذلك أن تصنيف طائر يستلزم وجود جناحين يمكن هذا المخلوق من الطيران؟ نستطيع أن نلاحظ في هذه الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى ذكر دواب الأرض، وذكر أيضاً ما يطير في السماء، ولكن لم يرد الذكر على الكائنات البحرية بحد علمي أن الوصف القرآني لم يشملهم، وقد أكون مخطئاً إذا أثبت أحد علماء اللغة وعلماء التصنيف غير ذلك. فإذا كان الوصف القرآني لا يشمل البيئة المائية فهذا معناه أن هذه الكائنات مستثناة من مسألة أمم أمثالكم.

لكي نستطيع أن نصل لمعلومات ذات قيمة في هذه المسألة يجب بحث وتعريف كلمة الأمة والأمم من خلال القرآن الكريم، وكذلك المقصود من كلمة أمثالكم، وما الفرق بينها وبين مثلكم، وكذلك لا بد من تعريف الدابة والوقوف على معناها، ولا بد أن يدرس هذا الأمر في حضور علماء الأحياء والتطور لمعرفة تطور الأنواع، وأي من هذه الأنواع بيئته الأصلية الماء، وأي منها تطور وانتقل بعد ذلك للماء، حتى نستطيع فهم لماذا الاستثناء هنا.

أحد فصحاء اللغة يتساءل أين بلاغة القرآن عندما يقول طائر يطير بجناحيه؛ من المعروف أن الطائر يطير بجناحيه، فما فائدة إضافة الجناحين هنا إلا إذا كان كلاماً زائداً؟ الآية تخبرنا عن معرفة معينة وهي أن هناك كائنات قد تطير بدون أجنحة ظاهرة وهذا لا جدال فيه. مع التدقيق العلمي، وجد أن هناك كائنات لديها ما يسمى أجنحة مختزلة، أو حتى حدث محور في الأجنحة. عندما نأتي على الجزء العلمي سوف تتكشف كثيراً من هذه الأمور.

### مدلول كلمة منطق

الجذر اللغوي للفظ منطق هو نطق، ومن خلال مقاييس اللغة نجد أن لها أصلين: الأصل الأول هو الكلام أو ما شابهه، والأصل الثاني نوع من اللباس. ولكن بتتبع كلمة نطق في كتاب الله نجد لفظ نطق أو إحدى مشتقاتها قد ذُكرت في كتاب الله اثنتي عشرة مرة. لو تدبرنا الآيات التالية، بالإضافة إلى الآية التي نحن بصدددها، سوف ندرك أن لفظ نطق يعني أصوات لها مدلولات. هذه الأصوات يشترك فيها جميع الكائنات، فإذا كانت هذه الأصوات ذات دلالة معينة، سمي نطقاً، وهذا بدوره يحيلنا إلى فهم معنى كتاب ينطق بالحق هو أن كل حرف فيه له دلالة صوتية معينة تحمل الحقيقة المطلقة.

الآية الأولى: (وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدِينَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) (سورة المؤمنون، آية 63).

الآية الثانية: (وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (سورة فصلت، آية 21).

يجب أن نقف كثيراً أمام (أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ)، فهل هذا معناه أن كل شيء له أصوات، وأن هذه الأصوات لها دلالات معينة؟

كذلك لا بد لنا من الأخذ في الاعتبار المدى الواسع للترددات الصوتية والأصوات التي يمكن أن نسمعها والتي تقع في مدى الصوت الذي يستطيع الإنسان سماعه، والترددات

التي خارج نطاق السمع للإنسان. الإنسان يستطيع فقط سماع الأصوات التي يقع مدى ترددتها ما بين 20 هيرتز و 20 كيلو هيرتز، أما الأصوات التي تقع في منطقة أقل من ذلك أو أعلى لا يستطيع الإنسان سماع هذه الأصوات. هذا المدى الضيق الذي يسمع فيه الإنسان يفسر لماذا يقول الله سبحانه أنه أنطق كل شيء. لا شك عندي أن كل شيء له ترددات صوتية مميزة والعلم أثبت كثير من هذه الأمور، وما زال نهر العلم يجري.

(وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (سورة فصلت، آية 21).

يبدو جلياً أن لكل شيء تردداً صوتياً، ولكن قدرتنا نحن محدودة في اكتشاف هذه الترددات، هكذا نخبرنا الآيات وتشير بثبات إلى هذه الحقيقة.

لقد تمكن الإنسان من توليد موجات صوتية يصل ترددها أو يزيد قليلاً عن مليون هيرتز، حيث لا تختلف كثيراً في الخواص عن باقي الموجات الصوتية، غير أنه يمكن لهذه الموجات أن تنتقل على هيئة أشعة عالية الطاقة نظراً لقصر طول موجاتها. قد يكشف العلم لنا قريباً عن الموجات الصوتية، وعن علاقات الكائنات والموجودات بهذه الموجات. كذلك تم تسجيل تردد صوتي للشمس، وربما كشف كهذا، بالإضافة إلى القدرة على فهم مدلولات هذه الأصوات، يقودنا إلى فهم أوسع لهذا العالم المترامي الأطراف. فهم الأصوات ليس مستحيلاً، وله دلالة معينة كما أخبر كتاب الله. سوف نظل نكرر قبل أن يكتشف العلم ذلك، أن الترددات الصوتية لجميع الكائنات لها دلالات معينة وليست اعتباطية ويمكن فهمها من خلال تحديد شفرتها.

فهم مدلول أصوات الحروف في القرآن الكريم، وإيجاد العلاقة بين بعضها البعض وبين الترددات الصوتية، ومحاولة تقنين هذه الترددات وفهمها بشكل فيزيائي ربما هو ما سوف يقود إلى اكتشاف وفهم منطق باقي المخلوقات. إنه قانون الوحدانية الذي ينطق بوحدة هذا الكون ووحدانية خالقه، إنه القانون الواحد الذي يربط جميع مكونات الكون، والذي آمن به علماء



الطبيعة ويسعون للوصول إليه بكل السبل. لتتابع المشهد القرآني الذي يحكي عن فهم نبي الله سليمان منطق النمل وقوله، فمن الواضح أن نبي الله سليمان آتاه الله القدرة (العلم) على معرفة دلالة الأصوات للكائنات التي ينطبق عليها لفظ الطير، بحيث تسمية الطير تكون تسمية صحيحة لهذه الكائنات.

للشيخ محمد متولي الشعراوي خواطر حول هذا الأمر يمكننا الإشارة لها، فهو يقترب كثيراً مما ذهبنا إليه.

(وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ) (سورة النمل، آية 16)، فالطير له منطق ولغة، لأنه كما قال تعالى: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ) (سورة الأنعام، آية 38). والآن ومع تقدّم العلم يتحدث العلماء عن لغة للنمل، ولغة للنحل، ولغة للسّمك... إلخ، وهذه المخلوقات تتفاهم بلغاتها بدقّة تفاهماً غريزياً، لكننا لا نفهم هذا المنطق، والحق - تبارك وتعالى - يُعلِّمنا:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) (سورة الإسراء، آية 44)، فَإِنْ قُلْتَ كَمَنْ قَالُوا هُوَ تَسْبِيحٌ دَلَالَةٌ لَا مَنْطِقَ وَمَقَالٌ، نقول طالما أن الله تعالى قال (وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) فلا بدّ أنه مقال وكلام، ولكن أنت لا تفهمه.

علماء اللغة يقولون: إن النطق خاصٌّ بالإنسان، أما ما تُحدثه الحيوانات والطيور فأصوات تُحدثها في كل وقت، مثل مواء القطّة، ونباح الكلب، وخوار البقر ونقيق الضفادع، لكن هذه الأصوات لها معنى (فنونوة) القطّة حين تجوع غير (نونوتها) حين تخاف. إذاً فهي تُعبّر، لكننا لا نعرف هذه التعبيرات، كيف ونحن البشر لا يعرف بعضنا لغات بعض، لأننا لم نتعلّمها. وللغة ضرورة اجتماعية تتواضع عليها، أي تتفق أن هذا اللفظ يعني كذا، فإذا نطقت به أفهمك، وإن نطقت به تفهمني) انتهى التفسير.

السؤال هنا، هل من الممكن أن يتم ترجمة هذه الآية الخارقة للعادة التي اختص الله بها نبيه سليمان وهي فهم دلالة الأصوات للكائنات الأخرى؟ هل من الممكن أن نحصل على برنامج كمبيوتر له القدرة على تحويل الدلالات الصوتية لباقي المخلوقات إلى أي لغة من لغات البشر؟ كيف يمكننا التوفيق بين منطق الطير الذي علمه نبي الله سليمان ومنطق النمل الذي فهمه كما جاء في القرآن؟

### الرؤية العلمية

مسألة إثبات إمكانية معرفة وفهم نطق الحيوانات لم يعد أمراً صعباً أو ضرباً من الخيال. كثير من الأبحاث العلمية الموثقة أثبتت أن هناك تواصل ما، وبقدر معين بين كل أفراد كل نوع من الأنواع، وأن الأصوات لها دلالات معينة بين المخلوقات المتشابهة يتم تداولها، ويستطيع هؤلاء الأفراد من خلال تلك الأصوات التفاهم والتواصل. كان من الممكن أن يكون هذا الأمر مدهشاً لو تم الحديث عنه في الماضي، أما الآن فأعتقد أن مسألة فهم نطق الكائنات من خلال فهم ترددات أصواتها هو مسألة وقت لا أكثر.

البروفيسور سابرينا إنجيسر، من جامعة زيورخ تؤكد أن دراسات عديدة أشارت إلى أن الحيوانات وبصفة خاصة العصافير لها القدرة على إصدار أصوات مختلفة كجزء من ترتيب معين فيما بينها، مع تأكيد الباحثة أن هذه الأصوات بشكل عام لا تحمل معنى محددًا.

هناك دراسات عديدة أثبتت أن العصافير، والتي تسمى عصافير الكستناء الثرارة، قادرة على التواصل مع بعضها البعض عن طريق إصدار أصوات وتغريدات معينة، مما يثبت أن هذه الأصوات والتغريدات لها دلالة ومعنى، وهو ما يمكن أن يُطلق عليه عملياً نطقاً. يقول الباحثون في جامعة زيورخ وجامعة أكسترا أن طائر الكستناء وموطنه الأصلي أستراليا، ويسمى طائر الكستناء المتوج الثرار، لديه القدرة على ترتيب الأصوات، ونقل معنى جديد تماماً.

تعتبر هذه النتائج خطوة أولى في إمكانية التعرف على أنظمة اللغة، والتفاهم بين الكائنات الحية بخلاف الإنسان. بحسب مجلة بلوس العلمية والمتخصصة في علم الأحياء، طيور الكستناء، استخدمت صوتين معينين. ولتقريب الصورة، لنفترض أن الصوتين هما صوت حرف الصاد وصوت حرف الواو، ترتيب هذه الأصوات يعني سلوكاً معيناً لدى تلك الطيور. فمثلاً نداء الطيران (ص، و (صو))، ونداء إطعام الصغار هو (ص، و، ص (صوص))، وعند إعادة إصدار الأصوات تلك، لاحظ الباحثون أن الطيور محل الدراسة تمتلك القدرة على التمييز بين تلك الأصوات بحيث تنظر إلى الأعشاش إذا سمعت الصوت الخاص بإطعام الصغار وتنظر إلى الطيور القادمة عند سماع الصوت الخاص بالطيران.

من ناحية أخرى، استطاع الباحثون التعرف على الجين المسئول عن عملية النطق، وهو جين مشترك بين الطيور والإنسان. وبحسب الباحث سبستيان هاسلير بمعهد ماكس بلانك في برلين، وكازو هيرووادا بجامعة ديوك الأميركية فإن الجين FoxP2i هو المرتبط بمشاكل اللغة والنطق

لقد تم تحديد هذا الجين في كلاً من الإنسان والطيور، والتعرف عليه في منطقة الدماغ. الأمر ليس سراً أو لغزاً محيراً، فهناك بالفعل أبحاث واعدة في هذا المجال تتحدث عن أصوات ذات معنى ومغزى لكثير جداً من المخلوقات.

### العلاقة بين الطير والنمل

التصنيف البشري يضع الطيور في تصنيف ويضع الحشرات والتي تضم النمل في تصنيف آخر. لقد ذكرنا سابقاً أن طير تعني خفة في الشيء، والآية الكريمة التي تتحدث عن طائر يطير بجناحيه تعني أنه يوجد احتمال طائر لا يملك أجنحة على الأقل بشكل ظاهري. منطوق لفظ الطير القرآني شمل كائن النمل كما في الآيات الكريمة، ولنحاول إيجاد العلاقة، وإن قصرنا فلربما يأتي من خلفنا يملك معلومات أكثر شمولاً وأكثر عمقاً ليشرح تلك الجزئية باستفاضة.

## النمل

ظهرت الحشرات على الأرض قبل 435 مليون سنة، ويعتبرها العلماء من أول الحيوانات التي ظهرت على سطح الأرض. بحسب السجل الأحفوري ظهرت الحشرات قبل الزواحف المجنحة بحوالي 204 مليون سنة.

أقدم الحفريات التي تخص الحشرات تم اكتشافها في حفريات تعود للعصر الديفوني (العصر الديفوني هو حقبة جيولوجية امتد من 416 إلى 2.359 مليون سنة مضت، وقد ظهرت فيه بعض الأسماك البرمائية التي كانت لها رئات وخياشيم وزعانف، وأطلق على هذا العصر، عصر ظهور الأسماك. يبلغ عمر الحفرية التي وجدت في العصر الديفوني 396 مليون سنة، وقد استطاع العلماء تحديد الوصف التشريحي للحشرة في هذا العصر، حيث كانت تمتلك فكاً سفلياً ذا قسمين. هذه الظاهرة بحسب العلماء مميزة الحشرات المجنحة، مما يعزز فرضية تطور الأجنحة عند الحشرات. يبدو أن الحشرات كانت لها قدرة كبيرة على الطيران، ولكن تطور تلك المقدرة على الطيران تبدو غامضة بالنسبة للعلماء.

النمل يقع تحت فصيلة تسمى النمليات، ووفقاً لعلماء الأحياء فإن رتبة هذه الفصيلة تسمى رتبة غشائيات الأجنحة، والتي تضم النحل والزنابير ضمن نفس الرتبة. معنى غشائيات الأجنحة أي داخلية الأجنحة، Endopterygota ويعتقد أن النمل قد تطور من أشباه الدبابير خلال ما يسمى بالعصر الطباشيري قبل 99 مليون سنة.

يتضح لنا أن لفظ الطير لا يمكن أن يكون مخصوصاً بها الطير الذي نعرفه الآن من خلال التقسيمات والتسميات، ولكن يجب إعادة التصنيف أو حتى على الأقل إعادة التسمية إذا كان تصنيف الكائنات على أساس طيور ودواب، وأن أهم ما يميز الطيور هو وجود الأجنحة، فلا شك أن النمل يوضع تحت تصنيف الطير كما أثبت العلم أنه من ضمن فصيلة تسمى غشائيات الأجنحة أي داخلية الأجنحة.

التناسق العجيب في الألفاظ وفي اختيار التعبيرات القرآنية والتي قد تُشكل على الناس كثيراً بسبب عدم وضوح المقصود والمعنى، لا يمكن أن تكون صادرة عن بشر. هناك ملاحظة

ظاهرة للعين بخصوص النمل والطيران، فهناك نوع من النمل والذي يطير صراحة، واسمه النمل الأبيض والذي يملك أجنحة تمكنه من القدرة على الطيران. تبعاً للمعرفة التي بحوزتنا الآن، فإن النمل الذي فهم نطقه نبي الله سليمان لا يخرج عن توصيف الطير كما عرفه القرآن وكما أثبت العلم. لعل هذه الآية الكريمة تحوي لمحة عن التطور وعن تحول قدرة الحشرات على الطيران وانفصال الكائنات إلى مجموعتين رئيسيتين؛ طيور ودواب، ولن يجيب على هكذا أسئلة إلا العلم المتمثل في نظرية التطور ومن خلال أدلة يمكن قياسها.

اقتصار فهم الطير على تلك الطيور الظاهرة مثل: المهدد، والغراب والصقور وما شابههم هو فهم سطحي للغاية، ولعل الإشارة القرآنية لو تلقفها من يتدبر القرآن ولديه معرفة بيولوجية معقولة لربما كان توصل لحقائق ومعلومات منذ زمن بعيد، لكن للأسف الخوف من طرح الأسئلة على كتاب الله ومحاوله فهم وتدبر الآيات جعل من القرآن كتاب طقوس لا يمكن فهمه إلا من خلال فهم محدود الزمان والمكان.

قبل أن أنتقل إلى لغة ونطق النمل، أود أن أشير لجزئية لفتت انتباهي، فقد أشاع البعض أن النمل يتكون من مادة زجاجية، وهذا هو سر عظيم لأن الله سبحانه وتعالى استخدم لفظ (يحطمنكم) في كتابه تعبير عن تدمير النمل، والتحطيم لا يكون إلا للزجاج.

أولاً النمل يتكون من مادة الكيتين، والكيتين مادة تتكون من عديد السكاريد أو يمكن اعتبارها بوليمر، أي سلسلة طويلة من جزيئات السكر، ويعتبر المركب الأساسي لحواف خلايا الفطريات. عديد السكاريد هو المكون الأساسي في الهيكل الصلب الذي يغطي أجسام الحشرات، ومنها النمل كما ذكرنا. جذر كلمة حطم في قاموس اللغة تعني كسر في الشيء، و مدلول الكلمة في كتاب الله تعني تكسير مواد جافة أو صلبة، كلمة حطام وصف بها الله سبحانه وتعالى الزرع بعد عملية الاصفرار، أو بصيغة أخرى الزرع الجاف المتصلب منزوع الماء، وعبر عن هذه العملية بقوله سبحانه (فتراه مصفراً) دلالة على فقد جزء من الماء.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا  
أَلْوَانَهُ ثُمَّ يُهْبِجُ قَتَرَاهُ مِصْفَرًا ثُمَّ يُجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ) (سورة الزمر،  
آية 21).

(اعلموا أنما الحياة الدنيا لعبٌ وهو وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ في الأموالِ والأولادِ  
كمثلٍ غيثٍ غيثٍ أعجب الكفار نباته ثم يهيج قتره مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذابٌ شديدٌ  
ومغفرةٌ من الله ورضوانٌ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) (سورة الحديد، آية 20).

كلمة تحطيم ليست فعلاً خاصاً بالزجاج فقط، ولكنه فعل يقع على كل ما هو صلب  
وجاف إذا تعرض لصدمة ما. إنها إشارة غاية في الإعجاز تدل على طبيعة هيكل النمل الصلب  
غير اللين كما أثبتته العلم حالياً، من ذا الذي يستطيع توصيف الحالة هذا الوصف الحقيقي  
واستخدام لفظ يعبر تعبيراً حقيقياً عما يحدث سوى صاحب العلم المحيط الذي لا يخفى عليه  
شيء في الأرض ولا في السماء.

### منطق النمل

الاعتقاد السائد عن لغة النمل كان هو طريق اللمس والرائحة. حديثاً تم اكتشاف  
وسيلة تواصل وتفاهم يستخدمها النمل عن طريق أصوات ذات ترددات معينة. بحسب كتاب  
موسوعة النمل لرياض احمد العراقي ومعن عبد العزيز جميل، فإن النمل يتكلم ويصدر ترددات  
صوتية معينة يسمعها بقية النمل ويتفاعل معها، وقد درس كلا من براون وهيككنج الأصوات  
التي تصدر من النمل واستطاعوا تسجيل تلك الأصوات بالفعل.

لقد كانت النتائج مذهلة حقاً، فالترددات الصوتية تختلف من نملة لأخرى، ومن جنس  
لآخر وكذلك من وقت لآخر، وقد أكد الباحثان أن للنمل حاسة سمع قوية جداً ولكنه لا  
يتفاعل مع صوت الإنسان، ويستطيع النمل تمييز الترددات الصوتية التي تنتقل عبر الأجسام  
المادية مثل الأرض أو السطح، ولكن ليست لديه القدرة على تمييز واكتشاف الترددات التي  
تنتقل عبر الهواء.

هذه المعلومات تأخذنا مباشرة إلى الوقوف إجلالاً وتعظيماً أمام دقة اللفظ القرآني الذي قص المشهد الذي حدث بين نبي الله سليمان وبين النمل. نبي الله سليمان سمع النمل فقط ولكن لم يَدْرُ حواراً مع النمل، ولا توجد أي إشارة على أن النمل سمع أو فهم ما يقول نبي الله، هو فقط استنتج أمراً عن طريق معرفة معينة، ونبي الله فهم ما قال النمل، وتعجب من ذلك. تبسم ضاحكاً من قولها فقط، ولم يطمئنها مثلاً، بعكس الحوار الذي دار بين نبي الله سليمان وبين الهدهد حيث سمع الهدهد نبي الله سليمان ورد إليه الجوان وكذلك فهم نبي الله سليمان منطق الهدهد؛ بعكس حالة النمل كان فهم المنطق من جانب واحد فقط.

يستكمل الباحثان الدراسة حول النمل، ويقرران أن النمل يستجيب لترددات خاصة به عن طريق مجسات معينة موجودة على قرون الاستشعار وفي منطقة الصدر والرأس، ويستخدم النمل قرون استشعاره بشكل رئيس في إرسال واستقبال الترددات الصوتية. يُعتقد أن النمل يقوم بتضخيم الترددات، بل وإزالة التشويش من الترددات الصوتية فيما يسمى بعملية الفلترة.

لا شك أن التقدم المذهل في مجال الصوت هو ما عزز الاكتشافات الحديثة عن النمل وقدرته على التخاطب، فقد لوحظ أن الشغالات في مملكة النمل تتوقف تماماً عن الحركة إذا ما أصدرت الملكة أمراً أو تنبيهاً معيناً من خلال الترددات الصوتية، حيث تنتبه الشغالات مع وضع استعداد لقرون الاستشعار وتركيز لفترة ليست قصيرة. النمل أيضاً له القدرة على إطلاق إشارات استغاثة عندما يتعرض لوضع خطير، بحيث تستطيع الأفراد الأخرى التقاط الإشارة، والتعرف على نوع الخطر وتحديد مكان الخطر. يتبقى لنا إشارة واحدة وخاطرة حول هذه الآية الكريمة لعلها تكون موضوع بحث واعد، وهو قدرة النمل المعرفية.

أخبرتنا الآية الكريمة أن النمل لديه نوعاً ما من المعرفة مكنته من معرفة نبي الله سليمان وجنوده، ومعرفة الأثر المتوقع أن يحدث للنمل إذا لم يدخل ويحتوى بمساكنه. قد تكون معرفة الخطر غريزية، ولكن معرفة البشر، ومعرفة أسمائهم، وتسمية الجمع بالجنود وهو تسمية

حقيقية هو ما يثير، ويحفز العقل ويستحثه لكي يبحث وينقب لعله يفهم ما هي هذه المعرفة، وكيف حصل عليها النمل، وبالتالي قد ينسحب ذلك على باقي الدواب والكائنات.

الآية الكريمة تدل أن هناك نوعاً من المعرفة قائم على الاستنتاج والاستدلال أكبر مما نتخيل ومما هو معروف حالياً.





## الفصل الثامن: قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ

كثير من الأعمال الروائية والسينمائية تنبأت الانتقال الآني أو الانتقال اللحظي. مسلسل ستار تراك الشهير، الذي يحكي عن الحياة المستقبلية للإنسان، تعرض لهذه الفكرة حيث قام أحد أفراد العمل بالدخول إلى غرفة صغيرة، وعن طريق تسليط شعاع ضوئي عليه، يلف الشعاع جسم هذا الشخص بالكامل ليختفي بعد ذلك، ثم يظهر في مكان آخر في غرفة شبيهة بالغرفة الأولى في مكان بعيد عن المكان الأصلي بمسافة كبيرة جداً.

هل حقا يمكن أن تتحقق مثل هذه الفكرة، وما مدى معقوليتها، وهل لها دلالة أو إشارة لدينا في القرآن الكريم؟

انتقال الإنسان في حد ذاته انتقالاً لحظياً يبدو بعيد المنال في الوقت الحالي، بسبب تعقيدات وعلاقات أعمق بكثير جداً من العلاقات التي تحكم الأشياء المادية، الأجسام غير الحية وعلى قمتها الإنسان. الجمادات مهما بدت معقدة فهي بالنهاية مجموعة من العلاقات الفيزيائية والتشابكات الكمية، بعكس الإنسان الذي يُعتبر مجموعة علاقات لا نهائية من العلاقات الفيزيائية، والبيولوجية، والنفسية والمعرفية المعقدة، والملتفة بعضها على بعض بشكل يصعب تمييزها والتعامل معها ببساطة.

يعتقد كثير من العلماء أن انتقال الأجسام المادية انتقالاً آنيًا ليس مستحيلًا، وأنه أمر وارد، وبشدة ومطروح للنقاش. لقد قرر القرآن الكريم هذه الحقيقة في سورة النمل، عندما سجل لنا القرآن الكريم الحديث الذي دار في مجلس نبي الله سليمان عن إمكانية إحضار عرش بلقيس إلى مجلسه، قال تعالى:

(قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِيَّ قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38) قَالَ عِفْرِيْتُ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي

لِيَبْلُوَنِي أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (40)) (سورة النمل، الآيات 38-40).

خبر هكذا وحديث صادقٌ وحقيقيٌ لا بد أنه إشارة تحفيزية للإنسان ليشحذ الفكر وي طرح الأسئلة على تلك الآية الفريدة، وعلى المفردات التي وردت في كتاب الله في وصفها. لعل الإشارة أن من قام بهذه الآية الخارقة هو من أهل العلم، يعطينا حافزاً للبحث والاجتهاد لفهم ما هو هذا العلم وهل يمكننا فعلها حالياً؟

### الخواطر القرآنية

ما كان حديثاً يفترى وما كان قصصاً عبثياً، ولكن تصديق الذي بين أيدينا من العلم والمعرفة و دلائل وإشارات ربانية لما هو آت، ولكن أكثر الناس في غفلة. آيات بينات تنطق بالحق وتصف مشهداً عظيماً، وإشارة علمية لا يمكن أن تمر إلا على أقوام لا يؤمنون بالعلم ولا يصدقونه. كل كلمة يمكن أن تكون مفتاحاً لبحث كامل لو وجدت من يصدق أنها كلمات الله حقاً و يقيناً، وأنها تحمل علم وأقدار الله المطلقة، وليست مجرد كلمات تم توارثها عبر الأجيال تخفي إيمان عشوائياً لا ظليل ولا يغني عن الدجل والشعوذة. تبدأ الآيات الكريمة بقول الله تعالى:

(قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ).

أقوال المفسرين حول هذه الآية الكريمة تتمحور حول ما يلي: جاء في تفسير ابن كثير: (قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ»، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَهُوَ آصَفُ كَاتِبِ سُلَيْمَانَ وَكَذَا رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ يَزِيدِ بْنِ رُومَانَ أَنَّهُ آصَفُ بْنُ بَرَخِيَاءَ، وَكَانَ صِدِّيقًا يَعْلَمُ الْإِسْمَ الْأَعْظَمَ، وَقَالَ قَتَادَةَ كَانَ مُؤْمِنًا مِنَ الْإِنْسِ وَأَسْمُهُ آصَفُ وَكَذَا، قَالَ أَبُو صَالِحٍ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ إِنَّهُ

كَانَ مِنَ الْإِنْسِ زَادَ قَتَادَةَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ كَانَ إِسْمُهُ أَسْطُومٌ، وَقَالَ قَتَادَةُ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ كَانَ إِسْمُهُ بَلِيخًا، وَقَالَ زُهَيْرُ بْنُ مُحَمَّدٍ هُوَ رَجُلٌ مِنَ الْإِنْسِ يُقَالُ لَهُ ذُو النُّورِ وَزَعَمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ لَهِيْعَةَ أَنَّهُ انْخَضِرَ وَهُوَ غَرِيبٌ جِدًّا؛ وَقَوْلُهُ «أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ»، أَيُّ إِرْفَعِ بَصْرِكَ وَأَنْظُرْ مَدَّ بَصْرِكَ مِمَّا تَقْدِرُ عَلَيْهِ فَإِنَّكَ لَا يَكِلُ بَصْرَكَ إِلَّا وَهُوَ حَاضِرٌ عِنْدَكَ) انتهى التفسير.

أتوقف قليلاً عند اسم صاحب نبي الله سليمان، والإصرار على معرفة اسمه، وما هي الفائدة التي تعود علينا بذكر اسمه؟ إذا كان كتاب الله لم يشر من قريب أو من بعيد لاسم هذا الرجل، كيف استطاع المفسرون معرفة هذا الاسم والقطع به؟ قول بدون دليل لا يصح ولا يجب الالتفات إليه، وإنفاق الوقت في هكذا معلومات لا يمكن اعتبارها إلا نوعاً من هو الحديث، حيث الانشغال عن الحديث الرئيس ومحاولة تدبر الحالة القرآنية، والاستفادة منها إلى أخبار تاريخية لا تسمن ولا تغني من جوع.

إذا قرأت في كتاب الله قصصاً أو حديثاً فأحسنوا الاستماع لعلمكم ترحمون، ولا تنصرفوا عما قال ربنا إلى ما قاله غيره، فما قاله ربنا هو أبلغ وأصدق الحديث وما قاله غيره ما هو إلا لهو. الانصراف عن تدبر أبلغ الحديث وأحسن القصص بأخبار جانبية وأحاديث أهل الكتاب لا نعلم مدى صوابها من خطئها لا يمكن أن يوضع إلا في سلة لهو الحديث، الذي يصرف الناس سواء بعلم أو بغير علم عن تدبر الآيات إلى قصص وأساطير ما ذكرها ربنا في محكم التنزيل، ولا يمكن أن تنطق هذه الأحاديث والأساطير بالحق كما ينطق كتاب ربنا بالحق.

الوقوف على كلمة واحدة في كتاب الله ومقارنتها بمثيلاتها وتدبر مواضع ذكرها في كتاب الله كفييل بأن يحل إشكاليات، ويفتح أبواب المعرفة على مصراعها بدلاً من استجداء المعارف والمعلومات من تاريخ سحيق طحنه الزمان وأتى عليه ولم يتبق منه سوى آثار متفرقة لا يمكن اعتمادها كمصدر موثوق للعلم.

أشار الطبري إشارة خفيفة لمثل ما قاله الآخرون، بأنه آصف ولم يزد على ذلك. جاءت أقوال تفسير الكبير كالآتي:

(أما قوله: (قال الذي عنده علم من الكتاب) ففيه بحثان: اختلفوا في ذلك الشخص على قولين: قيل كان من الملائكة، وقيل كان من الإنس، فمن قال بالأول اختلفوا، قيل هو جبريل عليه السلام، وقيل هو ملك أيد الله تعالى به سليمان عليه السلام، ومن قال بالثاني اختلفوا على وجوه:

القول الأول: قول ابن مسعود، أنه الخضر عليه السلام.

القول الثاني: وهو المشهور من قول ابن عباس، أنه آصف بن برخيا وزير سليمان، وكان صديقاً يعلم الاسم الأعظم إذا دعا به أجيب.

القول الثالث: قول قتادة، رجل من الإنس كان يعلم اسم الله الأعظم.

القول الرابع: قول ابن زيد، كان رجلاً صالحاً في جزيرة في البحر، خرج ذلك اليوم ينظر إلى سليمان.

القول الخامس: بل هو سليمان نفسه، والمخاطب هو العفريت الذي كلمه. وأراد سليمان عليه السلام

إظهار معجزة وتحداهم أولاً، ثم بين للعفريت أنه يتأتى له من سرعة الإتيان بالعرش ما لا يتيها للعفريت) انتهى التفسير.

أقرب تفسير أميل إليه هو قول قتادة أنه رجل من الإنس عنده علم من الكتاب، لأنه هو القول الموافق والأقرب لكتاب الله. أما القول بأن المعنى بالذي عنده علم من الكتاب هو نبي الله سليمان نفسه هو قول غريب، ولو نظرت إلى صياغة الآيات تجد حديثاً يدور بين نبي الله سليمان وبين من هم في مجلسه، فكيف يكون المعني هو نبي الله سليمان نفسه؟

معظم التفاسير تطرقت إلى أن العلم المعني هو معرفة اسم الله الأعظم، ولا أعرف ما الدليل القائم على ذلك، ومن أين استدل المفسرون على أن علم الذي عنده علم من الكتاب هو

اسم الله الأعظم؟ كما ذكرنا آنفاً أن كل هذه الاجتهادات ومحاولات بشرية للتأويل، تظل تدور في فلك الفكر البشري الخاضع لمعارف الزمان الذي صيغت فيه هذه التأويلات. بالنظر لكلمة كتاب ومدلولها في كتاب الله أرحم القول بأن علم الكتاب هو علم خاص بالقدرة على إحضار العرش وكل ما يلزم لإتمام هذه العملية.

الكتاب ما هو إلا مجموعة من المسائل والتعليمات والقوانين الخاصة بموضوع الكتاب، ففي حالة نقل عرش بلقيس من مكان إلى مكان آخر انتقالاً فورياً أو لحظياً، لا بد أن يكون الكتاب متعلقاً بعملية النقل هذه وكل تفاصيلها. قد يتضمن هذا الكتاب علم الرياضيات والفيزياء وعلم المواد، أو علوم الباراسيكولوجي، أو حتى علوم لم نصل لها بعد.

مما لا شك فيه أنه كتاب يشمل كل علم يساعد على إتمام هذه العملية ويدفع في اتجاه إنجازها. أنا هنا لست بصدد البحث، هل كان عصر نبي الله سليمان من التقدم بحيث يتيح لأحد أفراد هذا العصر إنجاز هكذا مهمة، أم أن الأمر هو أمر خارق في عصره أعطاه الله لأحد من خلقه تكريماً وتأيداً لنبيه، إنما نبحت مفهوم هذه الآية في كتاب الله، وما يمكن أن تشير إليه وتدل عليه. سؤال نبي الله سليمان نفسه، من يستطيع أن يأتيني بعرشها لا شك يدل على أن نبي الله سليمان يعلم أن هناك قدرة لدى البعض على الإتيان بالعرش في ظروف غير عادية.

فهم مدلول بعض الكلمات سوف يقودنا لفهم هذه الآية التي حدثت في عهد نبي الله سليمان وقصها القرآن وأمرنا ربنا بتدبرها.

### مدلول كلمة كتاب

وردت كلمة كتاب في القرآن الكريم ما يقارب مائتين وإحدى عشرة مرة، وكلمة كتب ست مرات. وقد جاءت كلمة كتاب بمعان ومدلولات مختلفة، ولكن جميعها تشير إلى أن الكتاب هو مجموعة مسائل وأوامر وتعليمات خاصة بموضوع الكتاب. جاء الكتاب بمعنى

رسالة في قول الله تعالى (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ) (سورة النمل، آية 29).

الكتاب هنا يشمل تعليمات محددة خاصة بالموضوع الذي أرسل من أجله، وهو دعوتهم.

وجاء الكتاب بمعنى كتاب دراسي (أي يتم تدارسه) في عدة مواضع، حيث الكتاب لا

يخرج عن كونه مجموعة من التعليمات والمواضيع المتعلقة بالموضوع محل الدراسة:

(وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ

الْمُنِيرِ) (سورة فاطر، آية 25).

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ) (سورة الحج، آية

8).

(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً

وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ) (سورة لقمان، آية

20).

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ

شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا

غُرُورًا) (سورة فاطر، آية 40).

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي

السَّمَاوَاتِ اثْنُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (سورة الأحقاف،

آية 4).

(فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (سورة الصافات، آية 157).

(أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ) (سورة الزخرف، آية 21).

(أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ) (سورة القلم، آية 37).

(وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ) (، سورة سبأ، آية 44).

(أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ) (سورة الأنعام، آية 156).

(يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا) (سورة النساء، آية 153).

(أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا) (سورة الإسراء، آية 93).

(وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) (سورة الأنعام، آية 7).

(وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ) (سورة العنكبوت، آية 48).

الكتاب بمعنى المرشد، أو دليل العمل، أو الخطة المسبقة (الشرع):

(وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابٌ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبَشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ) (سورة الأحقاف، آية 12).

(أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابٌ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مَرِيَّةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ) (سورة هود، آية 17).



(وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْكُمْ سَتَدْرُؤُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابَ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ) (سورة البقرة، آية 235).

(وَلَيْسَتَعْفِيفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِياتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَعُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (سورة النور، آية 33).

من الواضح أن لفظ الكتاب يعني مجموعة من القوانين والتعليمات الخاصة بمسألة معينة، والكتاب في الآية التي نحن بصدددها هو مجموعة المسائل، والترتيبات والعلاقات المسئلة مسئولية مباشرة عن عملية نقل عرش بلقيس نقلاً آتياً أو لحظياً. الكتاب ليس مقصوراً على كتاب سماوي، فما سُمي الكتاب السماوي بالكتاب إلا أنه نُظِمَ من مجموعة من الأمور، ومرتبة بشكل يؤدي وظيفة أساسية للقارئ وهي الفهم الذي يقود للعلم.

### مدلول كلمة طرف

الجذر الثلاثي لكلمة طرف: الطاء، والفاء، والراء، لها أصلان: أولهما حد الشيء وحرفه، والأصل الثاني هو حركة في بعض الأشياء. قبل أن أسجل خواطري حول هذا الجذر اللغوي، دعوني أسرد الآيات الكريمة التي ذكرت فيها كلمة طرف أو أحد مشتقاتها.

ذكرت كلمة طرف في كتاب الله في ثمانية مواضع، وكلمة طرفي في موضع واحد، وكلمة أطراف في ثلاثة مواضع.

## أولاً: كلمة أطراف

الآية الأولى: (أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (سورة الرعد، آية 41)

تفسير الطبري حول كلمة طرف، وتأويلها جاء كما يلي: (قول ابن عباس «أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا»، قال: أولم يروا أنا نفتح لمحمد الأرض بعد الأرض. كان الحسن يقول في قوله: «أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا»، هو ظهور المسلمين على المشركين. قال ابن جرير: خرابها وهلاك الناس) انتهى التفسير. تأويل نقصها من أطرافها في التفاسير لا يخرج عن معنى فتح الأرض بعد الأرض أو ظهور المسلمين على المشركين.

الأطراف بمعنى الحواف أو النهايات هو تعبير مقبول، ولكن ينبغي أن نعرف أن الأطراف لا تعني فقط شيئاً مادياً. بل المدلول غير المادي لكلمة طرف هو الأكثر شيوعاً، أطراف النهار لا تعني حافة مادية للنهار، وإنما نهاية تأثير النهار. وأطراف الأرض قد تعني نهاية تأثير مجال الأرض، فالأرض كما نعلم ليست هي فقط الجزء الصلب، ولكن الغلاف الجوي الخاص بها يعتبر جزءاً منها، أو حتى نهاية تأثير مجال الأرض سواء الجاذبية أو المجال الكهرومغناطيسي.

كلمة أطراف الأرض أشكلت على الكثيرين، حيث اعتبر بعض الناس أن كلمة أطراف دليل على أن الأرض مسطحة، فكيف يكون هناك أطراف لشيء كروي؟ لا يمكن أن تكون هناك أطراف للأرض إلا إذا كانت الأرض مسطحة. بالطبع هذا القول هو قول ساذج وسطحي للغاية، فلو وقف القائل بذلك على كلمة أطراف في القرآن، لفهم أن كلمة أطراف تعني نهاية تأثير الشيء، ولم ترد في كتاب الله للتعبير عن شيء مادي إطلاقاً.

كلمة أطراف التي جاءت مع الأرض تشير إلى أن للأرض تأثير ما، وهو ما أثبتته العلم من خلال المجال المغناطيسي للأرض، أو قد يكون هناك تأثير آخر لم نصل إليه بعد. إذا علمنا

أن أي جسم متحرك بسرعة معينة وتبعاً لنظرية النسبية الخاصة لأينشتاين، فإنه يبدو وكأنه يتناقص في اتجاه حركته. الحقيقة أن الجسم نفسه ذا الأبعاد المادية لا يتناقص، وإنما ما يتناقص هو البعد الأفقي لهذا الجسم. قد يكون المعنى هنا هو تناقص أحد أبعاد الأرض في اتجاه حركتها، أو يكون هناك تفسير آخر لأطراف الأرض لم نستطع إدراكه، بسبب نقص المعلومات المتاحة. ما يمكن أن أؤكد هنا أن كلمة طرف تعني نهاية تأثير شيء ما أو بداية تأثيره.

الآية الثانية: (فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ) (سورة طه، آية 130).  
جاءت معظم التفاسير حول كلمة أطراف النهار على أنها صلاة الظهر، والبعض قال صلاة الصبح والمغرب.

الله سبحانه وتعالى إذا ذكر الصلاة ذكرها بلفظ أقم الصلاة، كما في الآية الكريمة.  
(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ) (سورة هود، آية 114).

أما الآية هنا فالمقصود هو التسبيح، وبالطبع التسبيح يختلف عن إقامة الصلاة.  
إقامة الصلاة محددة بأوقات معينة، بمجرد إدراكك أحد الأطراف فهو وقت الصلاة، إذا أتمتها فقد أتمت الصلاة في وقتها، وعليك انتظار الوقت التالي لإقامة الصلاة التالية، أما التسبيح فهو غير محدد بأوقات أو عدد، وهو حركة مستمرة، فإذا كنت في حركة مستمرة فإن كذلك حركة ضوء النهار هي في حركة مستمرة، وفي حالة الحركة فإن النهار له في كل لحظة طرفان، حيث طرف نهاية في مكان وفي نفس اللحظة طرف بداية في مكان آخر. فكلمة أطراف مناسبة تماماً في حالة التسبيح المرادفة للحركة المستمرة.

الآية الثالثة: (بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ) (سورة الأنبياء، آية 44).

كلمة أطراف في هذه الآية تشبه الآية الأولى التي سبق تفسيرها و الخاصة بنهاية أو بداية تأثير الأرض.

### ثانياً: كلمة (طرفي)

وردت كلمة طرفي في كتاب الله مرة واحدة، وقد كنت قد أشرت إليها في الآية السابقة عندما بينت الفرق بين الصلاة والتسبيح.

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرْفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ) (سورة هود، آية 114).

### ثالثاً: كلمة طرف

الآية الأولى: (وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِّن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ) (سورة الشورى، آية 45).

تفسير الآية الكريمة كما جاء في الطبري: (يقول ابن عباس ومجاهد عن طرف خفي، وهو أن معناه أنهم ينظرون إلى النار من طرف ذليل، وصفه الله - جل ثناؤه - بالخفاء للذلة التي قد ركبته، حتى كادت أعينهم أن تغور، فتذهب. أما السدى و قتادة، فقد فسروا (ينظرون من طرف خفي) على أنهم يسارقون النظر) انتهى التفسير.

الصحيح عندي أنه من مكان بعيد، وهو نهاية مجال وتأثير النار، أو أبعد نقطة من الممكن أن يروا النار من خلالها، فهؤلاء الكفار يقفون بعيداً عن النار ويسارقون النظر إليها من مكان بعيد خفية، ولو تأملنا الآية القرآنية التالية يتضح المقصود.

(إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا) (سورة الفرقان، آية 12).

الثانية:

(لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ) (سورة آل عمران، آية 127).

كلمة (طرفاً) في هذه الآية كما بينت ذلك أغلب التفاسير أن المقصود بها جزءاً، ففي تفسير البغوي: ليقطع طرفاً، أي لكي يهلك طائفة من الذين كفروا، وقال السدي: معناه ليهدم ركناً من أركان الشرك.

أعتقد أن المقصود بطرف الذين كفروا هو تأثير هؤلاء الكفار، فلا يكون لهم أدنى تأثير سواء مادي بإجبار الآخرين على الكفر، أو معنوي بإغراء غيرهم، وتزين الكفر.

الآية الثالثة: (مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْتَدْتَهُمْ هَوَاءً) (سورة إبراهيم، آية 43).

طرفهم هنا معطوف على الأفئدة، وكما جاء في الجزء الأول - الفصل السادس - أن الفؤاد هو مجال القلب، وهناك تأثير متبادل بين الإنسان والطبيعة والكون من حوله؛ فإذا كان التأثير في اتجاه واحد بحيث لا يرتد هذا التأثير مرة أخرى للقلب، هنا يحدث الارتباك والتشويش، لأن حلقة الاتصال قد انقطع أحد أطرافها.

الأمر الطبيعي هو أن الإنسان يؤثر في محيطه ويتأثر به من خلال اتصال حقيقي، والفؤاد وهو مجال القلب هو جهاز الاستقبال لدى الإنسان، فإذا أصبح هذا الجهاز عاطلاً لن يستقبل تأثير الكون من حوله، وبالتالي يفقد البوصلة.

الآية الرابعة: (عِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ) (سورة الصافات، آية 49).

بالنظر إلى الآيات السابقة لهذه الآية.

(يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (45) بِيضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (46) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (47) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (48)) (سورة الصافات، آيات 45-48).

تتحدث الآيات عن شراب أهل الجنة، وتؤكد أن تأثير هذا الشراب مقصور على النفع فقط، ولا يضرهم. (لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ)، القول إن المقصود بالآية الكريمة نساء أهل الجنة، أو ما يطلق عليه الحور العين ليس عليه أي دليل من كتاب الله، وسياق الآيات

يدعم وبشدة أن المعنى بالحديث هو شراب أهل الجنة. سوف نأتي على تعبير حور عين في الفصل القادم.

الآية الخامسة: (وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أُنْتَابُ) (سورة ص، آية 52).

كما الآية السابقة، بالنظر إلى الآيات السابقة لهذه الآية يتضح أن المقصود شراب أهل الجنة وطعامهم (الفاكهة)، وتأکید أن تأثير هذا الطعام والشراب غير متعدي الأثر كما يحدث في الدنيا.

(جَنَاتٍ عَدْنٍ مُّفْتَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ (50) مُتَكِنِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (51) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أُنْتَابُ (52)) (سورة ص، الآيات 50-52).

الآية الثامنة: (فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ) (سورة الرحمن، آية 56).

هذه الآية الكريمة من الآيات التي يستدل بها كثير من المفسرين على الحور العين، أو ما اتفق عليه نساء أهل الجنة، ولكن عند قراءة الآية من خلال سياق الآيات السابقة واللاحقة يتبين لنا شيء آخر:

(فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (50) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (51) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (52) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (53) مُتَكِنِينَ عَلَى فُرْشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانِ (54) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (55) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (56) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (57) كَانَهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (58)) (سورة الرحمن، آيات 50-58).

سنجد أن الآية يسبقها الحديث عن عينين تجريان، وكذلك فاكهة كثيرة وشراب، فيصح معها بنفس الاستدلالات السابقة أن الحديث هنا عن الطعام والشراب، وأقصى تأثير لهذا الشراب والفاكهة لا يمكن أن يكون ضاراً أو له أي تأثير جانبي. الطرف بمعنى التأثير هو الأكثر قبولاً هنا وذو دلالة واضحة. نحر الدنيا له تأثير جانبي لا يخفى على أي إنسان،

وكذلك أي نوع من طعام أو شراب له تأثير ضار إذا أكلت منه، ولكن ذلك لا يكون أبداً في الجنة، طعام وشراب أهل الجنة مقصور على النفع فقط، وليس له أية آثار جانبية.

الآية التاسعة: (قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) (سورة النمل، آية 40).

من خلال قراءة الآية الكريمة، نجد أن من قام بإحضار عرش بلقيس هو أحد جلوس نبي الله سليمان في مدة قصيرة جداً. الوقت لم يكن مؤثراً في عملية نقل العرش، كما سنرى بعد قليل. هذه الآية حدثت في هذا الوقت أمام نبي الله سليمان، ووصفها القرآن الكريم وصفاً حقيقياً وبلغاً، وعندما يقول الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك، فمن الواضح أن المقصود هنا هو مدى البصر، بتعبير دقيق، المسافة الضوئية بين نبي الله وبين المخاطب.

أعتقد أن المقصود هنا قبل أن يعود إليك الشعاع الضوئي الذي أطلقته في اتجاهي، والمعروف أن هذا الشعاع الضوئي هو جزء من عملية الإبصار، ونهاية عملية الإبصار هذه هو طرفها. لو حاولنا ترجمة هذا الكلام فيزيائياً فإن عملية الانتقال هذه سوف تتم أسرع من سرعة الضوء، وهنا إشارة مهمة للغاية بحيث إذا صح ما ذهبنا إليه، فإن عملية الانتقال تمت عن طريق علم يعمل خارج نطاق الفيزياء التقليدية التي نعرفها حتى الآن، فالانتقال لم يتقيد بالزمان أو المكان، وقد يكون هذا العلم هو أحد أفرع علم الباراسيكولوجي (أحد تأثيرات النفس البشرية الخارقة).

هل يمكن أن تكون هذه الآية العلمية التي حدثت أمام نبي الله سليمان على يد أحد أصحاب العلم إشارة لنا بأننا نستطيع تحقيقها لو اتبعنا الأسباب وتوصلنا إلى هذا العلم؟ قبل أن أنتقل إلى الرؤية العلمية لهذا الموضوع، أود أن أورد مقولة للشيخ محمد الغزالي في كتابه نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم، في معرض تفسيره لهذه الآية يقول: (وأظن - تفسيراً لما وقع

- أن المادة تحولت إلى طاقة تجرى بسرعة الضوء، ثم عادت سيرتها الأولى عرشاً تجلس عليه الملكة).

مع عدم تخصص الشيخ في علوم الفيزياء إلا أنه جاور التفسير المنطقي بحد غير مسبوق. إذا اعتمدنا تأويل كلمة طرف كما بينها، أعتقد أن سرعة الضوء هنا لا تنفي بالعرض، ولكن قوة أخرى هي المسئولة عن عملية النقل هذه.

تحليل كلمة طرف تشير إلى أن الفيزياء التقليدية ربما لا تكون مفيدة في فهم هكذا ظاهرة، ومع ذلك سوف نحاول التعرّيج قليلاً على الفيزياء التقليدية، وما جاء في عملية النقل الآتي بشكل علمي بعيداً عن الخرافات. المرحلة الثانية سوف يكون لنا وقفة مع قدرات النفس الخارقة بشكل استقصائي بعيداً وتحليلي قدر المستطاع.

### النظرة العلمية

عملية الانتقال الآني أو اللحظي نفسها ليست فصلاً من رواية خيالية، وإنما موضوع يشغل بال الباحثين على أعلى المستويات. التوصل لمعلومات كافية تقود إلى عملية الانتقال الآني سوف يغير وجه هذا العالم، وسوف ينقل البشرية خطوة لا مثيل لها إلى الأمام. الأسطر القليلة القادمة سوف تقص علينا الفيزياء التقليدية أو الفيزياء التي نعرفها وجهة نظرها عن هذا الأمر؛ يتلوها علم الباراسيكولوجي وقدرات النفس الخارقة، التي تبحث لها عن موضع قدم في عالم العلم المقاس.

### الفيزياء التقليدية:

لو أردنا أن نتبع عمليات الانتقال الآني فلا بد أن نعود قليلاً إلى الوراء، وتحديدًا إلى بدايات القرن التاسع عشر، عندما وضع العالم الأمريكي جوزيف هنري والعالم البريطاني مايكل فاراداي النظرية المسماة بنظرية الحث. تقول النظرية: (إن مرور تيار في سلك يمكن أن يؤدي إلى مرور تيار في سلك آخر)، والمصادفة أن كل عالم منهما وضع نظريته بدون الترتيب مع زميله الآخر، وكانت هذه النظرية إيداناً ببدء عصر انتقال الصوت أو ما يعرف بالإذاعة.



جاء بعد ذلك البريطاني جيمس كلارك ماكسويل بنظريته التي تثبت وجود موجات كهرومغناطيسية تنتقل بسرعة الضوء، ليم صياغة مجموعة من النظريات والأفكار التي مكنت الإيطالي ماركوني من تصميم جهاز استطاع من خلاله إرسال أول إشارة اتصال بموجات الإذاعة عبر الهواء عام 1895م. كانت الرسالة عبارة عن شفرات برقية خلال مسافة لا تزيد عن الكيلو والنصف متر، ولم يمر عام 1901م حتى تمكن ماركوني من إرسال شفرات برقية عبر المحيط الأطلسي بين إنجلترا ونيوزيلندا.

ما لبث أن طور العلماء أنواعاً من أجهزة الإرسال والاستقبال مكنتهم من التقاط إشارات الإذاعة وتضخيمها. لا يعرف على وجه الدقة تاريخ انتقال أول صوت بشري، إلا أن أصح المصادر تذكر أن عام 1906م شهد مولد أول انتقال لصوت بشري عبر الإذاعة، على يد العالم الكندي ريجينالد فسندين. لقد كان لهذا الكشف العظيم أثره البالغ، حيث ساعد الانتقال الصوتي عبر الإذاعة في التواصل ما بين سفينة و سفينة، أو التواصل بين السفينة والشاطئ، للمساعدة في عمليات الإنقاذ والإنذار.

لقد ظهر ذلك جلياً حينما اصطدمت السفينة (S) Republic بسفينة أخرى في المحيط الأطلسي، وبسبب إرسال نداء الاستغاثة عن طريق الراديو تم تقريباً إنقاذ معظم ركابها. ولعل الحادثة الأشهر في التاريخ الحديث، وهي غرق السفينة تيتانيك، كان للراديو دور مهم في إنقاذ بعض الركاب 1912م. انتقال الصوت كان بوابة العبور للتفكير في إمكانية نقل الصوت مصحوباً بالصورة، وهو ما يعرف بالثلاثي التلفزيوني. ما بين عام 1928م و 1935م تم استخدام موجات متوسطة خاصة بهيئة الإذاعة البريطانية لنقل الصورة، وكانت الصورة عبارة عن ثلاثين خطاً، كانت معها الصورة ضعيفة الوضوح وكثير من التفاصيل غائبة.

ما إن حل عام 1936م، حتى تمكنت الإذاعة البريطانية من إطلاق أول إرسال تلفزيوني عالي الوضوح من قصر الكسندرا في شمال لندن، ومنذ ذلك الوقت وعملية التطوير والتحديث مستمرة ودون كلل. عملية الانتقال هذه عملية سريعة جداً، ولكن ليست بسرعة الضوء. والحديث هنا عن انتقال صوت أو صورة، والصوت والصورة في النهاية موجات تم

انتقالها من مصدر معين، ثم تمت ترجمتها من خلال جهاز الاستقبال لتعطي نفس الصوت أو الصورة.

منذ متى بدأ التفكير في الانتقال الآني أو اللحظي للأشياء المادية كما تم تقريباً نقل الموجات؟ بعد اختراع الطائرة وتحديدًا في منتصف القرن العشرين، بدأت فكرة الانتقال الآني بمفهومها الشامل، وهو انتقال مادة من مكان إلى مكان آخر في صفر زمن، في إيجاد مساحة لها على طاولات البحث والنقاشات العلمية.

كانت الصورة النمطية لانتقال جسم من مكان لمكان آخر تتمثل في جهاز ارسال، يقوم بقياس وقراءة جميع خصائص ومكونات الجسم المراد نقله، ثم يقوم الجهاز الأول بعملية مسح لجميع ذرات الجسم، ومن ثم حفظها على هيئة شفرة، يتم إرسالها للجهاز الثاني، والذي بدوره يعتبر جهاز استقبال ليقوم بترجمة وفك هذه الشفرة، ليعيد إنتاج نسخة مطابقة تمامًا للجسم الأصلي، عن طريق مخزن يحتوي على جميع أنواع الذرات الموجودة والمعروفة.

قد تكون هذه الفكرة قد تحققت جزئياً بالفعل، حيث الطابعات ثلاثية الأبعاد. في الطابعات ثلاثية الأبعاد يتم إدخال تصميم معين، ومن ثم تقوم الطابعة بإنتاجه مطابقاً تماماً للتصميم المرسوم مسبقاً، حيث تتم عملية مسح للجسم، ثم إرساله للطابعة ثلاثية الأبعاد لتقوم بنسخه كما الجسم الأصلي، اعتماداً على مخزون من المواد الأولية في الطابعة. تبقى هذه الفكرة تدور في فلك النسخ وليس انتقال آنيًا حقيقياً. ما تم نقله في هذه العملية هو معلومات فقط، ولم ينتقل الجسم المادي بنفسه، أي أن الذرات على الجانبين مختلفة كما أن الجسم الأول والثاني لهما نفس الوجود، ولكن في مكانين مختلفين.

في عملية الانتقال الآني من المفترض ألا يوجد إلا جسم واحد، وفي مكان واحد بنفس ترتيب الذرات، ونفس الخصائص والمواصفات. إذاً عملية الانتقال الآني الحقيقي هي عملية انتقال الجسم نفسه، إما عن طريق تحويله إلى شيء قابل للنقل. لتقريب الفكرة تحويل الجسم إلى ذرات، أو حتى كيات (الكم هو مصطلح فيزيائي، يعبر عن أصغر كمية تمتلك صفات

طبيعية، ولا يمكن تقسيمها إلى أجزاء أصغر)، ثم إعادة تجميع هذه الذرات أو الكرات مرة أخرى لتكوين الجسم الأصلي.

عند البحث عن أي مصدر للمعلومات قد تكون مفيدة نتحدث عن الانتقال الآني، وجدت أن هناك بعض المعلومات المتناثرة هنا وهناك، نتحدث مرة عن انتقال صندوق صغير خلال مسافة 6 أمتار. وعلى حسب المواقع غير الموثقة، فإن هذه العملية تمت في عام 1969م، ولكن التجربة فشلت. ثم إن هناك أيضاً بعض المعلومات عن إعادة التجربة عام 1993م، عن طريق شركة الحواسيب (إي بي أم) IBM، وتم نقل قطعة معدنية مسافة 90 سم. الحقيقة أن هذه المعلومات عند البحث والتقصي لم أجد لها أي أثر واقعي، فلا أظن أنها حقيقة أبداً، بل هي نوع من خيال كاتبها.

أول خطوة حقيقية تمت على طريق الانتقال اللحظي أو الآني كانت عام 1992م، واعتماداً على نظرية علمية لكل من أينشتاين وشرودنجر، وكانت تنص على أنه يمكن لجسمين كونيين (جسيمات كمية مثل الفوتونات والإلكترونات) أن يظلا على اتصال دون رابط مادي تحت ظروف معينة، وهذه الظاهرة تسمى التشابك الكمي.

ظاهرة التشابك الكمي، هي ظاهرة تجعل كلاً من الفوتونات والإلكترونات وكأنها مرتبطة معاً برباط، رغم وجود مسافات كبيرة بينها. ببساطة إذا تم تحقيق مثل هذه النظرية عملياً، فإن عملية الانتقال الآني تصبح محتملة الحدوث بشكل كبير. هناك مبدأ في الفيزياء الحديثة ينص على أنه إذا كان لدينا فوتونين يمكننا قياس استقطاب أي من الفوتونين عند أي زاوية، فإنه بالإمكان التنبؤ بسلوك الفوتون الثاني إذا خضع للقياس نفسه. هذا المبدأ هو ما اعتمد عليه فريق بحثي في جامعة جنيف بقيادة البروفيسور نيكولاس جيزين، لتسجيل مسافة قدرها 25 كم في مجال النقل الكمي.

تجربة فريق نيكولاس جيزين تتلخص في إصدار فوتونين من مصدر ضوئي واحد بينهما تشابك كمي، بحيث تم وضع الفوتون الأول في أسلاك بصرية، أما الفوتون الثاني تم إبقاؤه

حبس بلورة معينة كجزء أول من التجربة. في الجزء الثاني من التجربة تم إطلاق فوتون ثالث في اتجاه معاكس للفوتون الأول، والمنطلق في الألياف البصرية ليصطدم به ويتحطم كلياً، وقد لاحظ نيكولاس أثر الاصطدام على الفوتون الثاني الحبس في البلورة رغم أنه بعيد عن الفوتون الأول بمسافة 25 كم، وتعتبر هذه النتيجة نصراً مبيئاً في مجال التشابك الكمي.

لا يمكن اعتبار هكذا تجارب على النقل الآني أنها حققت نتائج إيجابية بالنسبة للنقل الآني للمادة كما في تصورنا، فالنقل هنا لم يتعدى معلومات تخص الحالة الكمية للجسم، لكن مما لا شك فيه أن نتائج كهذه تعتبر خطوة هامة جداً قد يتبعها الكثير والكثير فيما بعد، وخاصة ونحن على أعتاب فهم جديد للمادة تكاد الحدود في هذا الفهم تتلاشى بين المادي واللامادي. رغم التقدم العلمي والتدفق المعلوماتي الهائل إلا أن الإنسان لم يستطع نقل ذرة واحدة آنيًا على قدر معلوماتي. وأعتقد أن نقل المادة ليس مستحيلًا، وربما في المستقبل القريب يتحقق هذا النقل. أما بخصوص نقل الإنسان، فإن الأمر يعتبر أعقد بكثير، بسبب العلاقات التي تحكم الإنسان وتتحكم فيه. المادة محكومة بعلاقات كمية تعتبر إلى حد ما متواضعة جداً إذا ما تمت مقارنتها بالعلاقات التي تحكم الإنسان، فالإنسان مجموعة لا نهائية من العلاقات المعقدة، سواء الكمية، والبيولوجية، والنفسية والمعرفية، تجعل مسألة نقله آنيًا من وجهة نظري مستحيلة.

لا أحد يدري على وجه الدقة ماذا تحمله قادم الأيام، ولقد عودنا العلم أنه دائماً يتبع الخيال أو أن الخيال قاطرة العلم في كثير من الأحيان.

### علم الباراسيكولوجي

قد تكون الفيزياء التقليدية غير قادرة حالياً على تفسير تلك الظاهرة، أو أنها بعيدة بقدر ما عن تحقيق هذا الإنجاز؛ إلا أن علم الباراسيكولوجي (علم خاص بقدرات النفس الخارقة) يمكن أن يعطي تفسيراً معقولاً عن تحريك الأشياء عن بعد، وإن كان هناك كثير من العلماء يعارضون علم الباراسيكولوجي لما يحتويه من غوامض وأشياء صعبة التفسير وغير مقاسه.

مع التقدم المذهل والنظريات الحديثة والتي تتحدث عن قانون واحد يصف الكون جميعاً ونظرية الأوتار الفائقة، ربما علم الباراسيكولوجي يجد له موضع قدم ويصبح مقبولاً بشكل كبير في المستقبل بناء على دلائل يمكن قياسها. لا أعتقد أن علم الباراسيكولوجي بمنأى عن علم الطبيعة، ولكن نحتاج لمزيد من الوقت لتكتمل الصورة، فالعلاقة لا شك قائمة، ولكن إدراكنا لهذه العلاقة بشكل كامل لم ينضج بعد.

يختص علم الباراسيكولوجي بدراسة أربع ظواهر أساسية:

الظاهرة الأولى: ظاهرة التليباتي أو الاستجلاء البصري (التخاطر) Telepathy وهي ظاهرة قراءة الأفكار، ويتم عن طريق الاتصال بين عقول الأفراد، وهذه الظاهرة لا تعترف بالزمان أو المكان، ولا يتم فيها أي نوع من أنواع الاتصال المباشر المعروف. الظاهرة الثانية: قراءة ما وراء البصر

القدرة على قراءة ما وراء البصر Clairvoyance كروية موقف معين أو حادثة لشخص برغم وجود مسافة كبيرة تحول دون الرؤية المباشرة. الظاهرة الثالثة: بعد النظر

وهي القدرة على معرفة الأحداث قبل وقوعها. Precognition.

الظاهرة الرابعة: تحريك الأشياء عن بعد

تختص هذه الظاهرة بدراسة ما يسمى تحريك الأشياء عن بعد دون أي اتصال فيزيائي مباشر، و فقط عن طريق النظر إليها. Psychokinesis. إن كانت فكرة التحريك بالتخاطر فكرة تبدو جذابة ومثيرة لخيال الكتاب والمؤلفين، فإنها كذلك بالنسبة للعلماء والباحثين. سجلت بعض الكتابات العلمية بعض الظواهر الخارقة في نظر العلماء، وإن كان تفسير هذه الظواهر مازال غيباً ولا يمكن الادعاء بفهمها وتفسيرها علمياً بشكل كامل.

عدم فهم الظواهر أو عدم وجود تفسير علمي لها لا يمكن أن يلغي وجود هذه الظواهر وتكرارها، بل يدفع في اتجاه البحث خلفها ومحاولة تفسيرها.

يُطلق على التركيز العقلي لتحريك الأجسام دون اتصال ملموس مصطلح العقل فوق المادة. لا يعني ذلك أن العقل هو المسئول عن هذا التحريك ولكن تسمية افتراضية. قد يكون للنفس والقلب علاقة وثيقة بالأمر، ولكن الجزم بذلك غير واقعي وغير مبرهن مائة بالمائة كما أفردنا في (الفصل السادس - الجزء الأول).

من أشهر الأشخاص الذين قاموا بظاهرة التحريك عن بعد كما هو مسجل في بعض المراجع؛ رجل الدين الهندي (ساثيا ساي بابا)، والروسية (نينا كولاجينا) و(يوري جيلر). استحققت مثل هذه الظواهر لفت انتباه المتابعين بسبب عدم تأثر هذه الظواهر بالمسافة، مما يجعلها تعارض وبشكل واضح قوانين الفيزياء التقليدية. لنلقي نظرة سريعة على أشهر من عُرف بالقدرات النفسية الخارقة.

### أولاً: ساثيا ساي بابا

لو حاولنا التعرف على حياة ساثيا ساي بابا الزعيم الديني والفيلسوف والخطيب الهندي، سنجد أنها حياته مليئة بالمتناقضات بحسب رواية معاصريه ومتابعيه والباحثين في سيرته. أتباع ساي بابا ومناصروه يعتبرونه زعيماً روحياً من الدرجة الأولى، وله اتصال إلهي، بل وصل الأمر بالمتشددين منهم باعتباره تجسيدا للإله في صورة إنسان. على النقيض من ذلك يعتبره منتقدوه دجالاً ومشعوذاً، مكانه الطبيعي السجن بسبب اعتداءاته الجنسية المتكررة، والتي لم يحاسب عليها بسبب نفوذه السياسي القوي.

ما بين أقصى اليمين وأقصى اليسار، نستطيع أن نتلمس للرجل بعض القدرات غير العادية بحسب روايات كُتِّب وصحفيين تابعوا هذا النموذج عن قرب. قد تعود قدراته لخفة اليد برأي بعضهم، وقد تعود لقدرات نفسية خارقة برأي البعض الآخر، نحن هنا لسنا مخولين بالحكم بقدر ما نحن نعرض بعض هذه الأخبار في محاولة لاستبيان القدرات النفسية الخارقة، والقارئ هو الحكم بالنهاية.

لا يمكننا إغفال مثل هذا الشخص لما تمتع به من شهرة واسعة وملاحظات معتبرة؛ بحسب تقرير لصحيفة الي بي سي البريطانية والمنشور عام 2011م، والذي قرر أن الرجل أن له قدرات روحية خارقة مثل ثني القلائد والساعات عن بعد.

بعض الكُتّابات الصحفية أشارت إلى ظهور كُتّابات بخط يده في بقاع مختلفة في العالم، أو على مستشفيات في لندن. في عام 1976م، قام أستاذ الفيزياء هصور نيرسيمه Housr Narasimhaiah في جامعة بنجلور في الهند بتوجيه خطاب علني يطلب من الساي بابا الخضوع لظروف معينة للحكم على قدراته وإخضاعه للبحث والتدقيق، ولكن الساي بابا تجاهل الخطاب، وقال في معرض حديثه عن هذه الرسالة أنها تفتقر إلى الاحترام وأنها تحمل لهجة تحدي واضحة. أنقل هنا جزءاً هاماً من رد الساي بابا، لأنه من خلال هذا الجزء خصيصاً تظهر لنا الحلقة المفقودة التي تسبب في عدم اعتراف الكثيرين بهذا العلم غير المقاس.

يقول الساي بابا في رده (أن العلم يقتصر على عالم التجربة والماديات التي تخضع إلى العقل الإنساني، وبدوره فهذا العقل يريد جواباً علي اليقين أو الشك، بينما الكرامات والروحانيات تسمو علي الشك واليقين إلى عالم أسمى تتجلى فيه مظاهر القوة الروحانية)، ثم طلب من البروفيسور وضع قوانين وشروط تستند إلى القوة الروحية لكي يستطيع فهم ما أسماه الكرامات والروحانيات.

في الجزء الأخير من رسالته، والتي طلب فيها الساي بابا من البروفيسور هصور وضع قوانين وشروط تستند إلى القوة الروحية هو محق تماماً، فلا يمكن بحال من الأحوال الاعتماد على الفيزياء التقليدية في فهم وتفسير القوى النفسية الخارقة.

على مستوى الفيزياء ذاتها نجد أن الفيزياء وقوانين نيوتن والتي تصف حركة الأجسام الكبيرة قد وقفت عاجزة تماماً أمام وصف الأجسام الذرية، ولو حاولت استخدام قوانين الأجسام الكبيرة في وصف حركة الإلكترون على سبيل المثال، فمن المنطقي أن تفشل المحاولة فشلاً ذريعاً.

الوضع الطبيعي ألا ننفي وجود حركة الإلكترون، وإنما ننفي وجود قوانين يمكنها أن تصف هذه الحركة. من أجل ذلك كانت النظرية النسبية و المعادلات الموجية لعلماء أمثال شرودنجر لوصف الأجسام الذرية ومحاولة التوفيق بين الجسم والموجة من خلال نظرية الكم. كيف يمكن لقوانين الفيزياء الحالية تفسير الظواهر النفسية؟ وكيف يمكن إخضاع الظواهر النفسية الخارقة لمثل هكذا قوانين لا تعمل القوى النفسية في نطاقها؟ سيظل دورنا بخصوص القدرات النفسية الخارقة مقتصرًا على التدوين والتحليل والإحصاء، بسبب النقص الشديد في المعلومات وبسبب الحلقة المفقودة ما بين الامادي والمادي.

### ثانيًا: نينا سيرجيفنا كولاجينا

كولاجينا أذهلت العالم بسبب قبولها الخضوع للاختبارات، والتي أصبحت مثار جدل كبير في أوساط علماء الفيزياء وعلماء الباراسيكولوجي. وكعادة الأشخاص أصحاب القوة النفسية الخارقة يوجد مؤيدون يعتقدون في جدية ما تقوم به السيدة كولاجينا، بينما على الجانب الآخر يقف المعارضون لمثل هذه الأعمال بالمرصاد ويعدونها نوعًا من الدجل والشعوذة، بسبب عجز العلم عن تفسيرها.

لقد سجلت بالفعل التجارب التي خضعت لها السيدة كولاجينا تقدمًا ملحوظًا، حيث استطاعت تحريك أشياء صغيرة من مكانها دون اتصال مباشر مثل علبة ثقاب، واستطاعت أيضًا التعرف على الألوان دون رؤيتها، فقط عن طريق لمسها. كما سجل العلماء لها كيف استطاعت تحريك البوصلة عن طريق إمرار يدها فوق البوصلة، وقد ظهر عليها علامات إعياء وجهد كبيرين وكيف أن البوصلة كانت تتبع يديها. استطاعت كولاجينا في إحدى التجارب التأثير على قلب ضفدع حي، حيث جعلت نبضات قلبه تتسارع بشكل ملحوظ، ثم تتباطأ مرة أخرى إلى أن توقف تمامًا.

في إحدى التجارب تم إجراء التجربة على أحد العلماء وملاحظة تأثير نينا كولاجينا على العالم، بعد مراقبة نبضات قلب العالم بواسطة أجهزة حساسة وبعد بدء التجربة لاحظ



الشخص المراقب للتجربة تصاعد ملحوظ في نبض قلب العالم محل التجربة، مما تطلب منه إيقاف التجربة فوراً حرصاً على حياة العالم.

تعتبر نينا كولا جينا من أهم وأشهر الأشخاص أصحاب القدرات الخارقة، بسبب موافقتها على إجراء التجارب أمام الباحثين بغرض فحصها، وهذا ما عزز مصداقية القدرات الخارقة التي قامت بها. لقد استخدم الباحثون أشياء مختلفة الحجم والشكل في تجاربهم، وقد أقر الباحثون بأنهم قاموا بالعديد من الاحتياطات التي تضمن عدم تلاعب نينا كولا جينا والتأكد من عدم وجود أي نوع من الحيل والخدع.

ومع ذلك كان هناك أحد الاعتراضات القوية الموجهة لنينا كولا جينا، وهو احتمالية استخدامها مغناطيس صغير لتحريك الأشياء عن بعد. قام الباحثون بعد ذلك باستخدام أشياء لا تتأثر بالمغناطيس مثل أعواد الثقاب، ووضعها داخل حاجز زجاجي لمنع التأثيرات الهوائية أو خيوط قد تكون غير مرئية، وقد سجلت التجربة نجاحاً ملحوظاً.

رغم ذلك فهناك دائماً اعتراض ونقد موجه للسيدة كولا جينا بسبب الشروط غير الكافية من وجهة نظر العلماء على إجراء مثل هذه التجارب، إذ أن معظم التجارب كانت تتم إما في منزلها أو في غرف فنادق، وكانت تحتاج لوقت طويل من التركيز والبعد عن أي مؤثرات، مما جعل الكثير يشك في أنها تقوم بترتيب حيل ماكرة لتنفيذ مثل هذه الأشياء.

وجود هكذا أمثلة واضحة وخصوصاً السيدة كولا جينا هو ما لفت انتباه العلماء لواحد من أهم فروع علم الباراسيكولوجي، وهو ما يعرف بعلم السيوكينيز. وكلمة سيوكينيز (Psychokinesis) مقطعان تعني العقل والحركة، ويعني المصطلح قدرة العقل على التحريك. رغم أن جميع الأبحاث تتحدث عن قوة العقل على التحريك إلا أننا في الجزء الأول من الكتاب كما قد أشرنا إلى دور القلب في التأثير، لذلك نحن هنا ننقل تأثير العقل دون تدخل منا مع تحفظنا على العضو المسئول عن التأثير.

## ثالثاً: يوري جيلر

المثال الثالث لدينا هو يوري جيلر، وهو أيضاً يعد من أصحاب الظواهر الخارقة، حيث حقق جيلر شهرة لا بأس بها بسبب قدراته غير العادية في التخاطر وتحريك الأشياء عن بعد أمام عدد من الجمهور. يقول جيلر عن نفسه أنه اكتشف هذه القدرة وهو في سن مبكرة، حوالي الرابعة من عمره، عندما اكتشف قدرته على ثني سكاكين وأدوات المطبخ.

العرض الأكثر إثارة بالنسبة لجيلر هو تمكنه من إحداث تغيير ملحوظ في هيكل معدني موجود في قاعدة للأسلحة الأمريكية كان قد تم إنشاؤه حديثاً. من الأشياء الطريفة التي تعرض لها جيلر، العرض الذي قدمه على شاشة التلفزيون البريطاني، وقام من خلاله بثني الملاعق، وقد حذر الجمهور من أن الملاعق سوف تنثني في منازلهم لكنه فشل فشلاً ذريعاً، ومع ذلك استطاع تجاوز ذلك الفشل بواسطة السمات الشخصية التي يتمتع بها وحضوره المميز.

أشهر الاعتراضات على جيلر جاءت على لسان جيمس راندي، أحد المشهورين بخفة اليد، حيث رصد جيمس مليون دولار لأول دليل على وجود القدرات الخارقة، شريطة أن يخضع صاحب القدرات لشروط يحددها جيمس بنفسه ولم ينجح أحد في هذا الاختبار.

ومع ذلك فقد خضع جيلر لإجراء بعض التجارب في معهد سترااتفورد للأبحاث بواسطة عالمي الفيزياء راسل تارج وهاروك بهوف، وقد تم وضع جيلر في غرفة مبطنة ومعزولة بطبقتين مغناطيسيتين. استطاع جيلر الإجابة على 8 أسئلة بطريقة صحيحة لمعرفة وجه زهر الطاولة من أصل 10 أسئلة، بالإضافة لإجابته عن كل الأسئلة الأخرى.

كان الانتقاد الموجه لهذه التجربة هو انتقاد على أساس الجو العام الذي أجريت فيه التجربة، والذي بحسب وصف أحد النقاد يشبه جو السيرك والألعاب البهلوانية، لا أجواء اختبار قدرات خارقة. هناك أمثلة عديدة لأشخاص تم اختبار قدراتهم العقلية على التأثير المادي، ولكن اكتفيت هنا بالثلاث أمثلة الأكثر وضوحاً وشهرة في هذا المضمار.

تجربة بروفييسور دين ( جامعة ديوك)

من الأشياء الجديرة بالذكر تجربة بروفيسور في جامعة ديوك الأمريكية يدعى رين، ففي عام 1934م بدأ البروفيسور رين في تصميم ظروف معملية معينة لدراسة ظاهرة قدرة العقل على التحريك عن طريق استخدام زهر النرد. كان لاستخدام رين زهر النرد في التجربة قصة طريفة، حيث فاجأه لاعب قمار محترف وهو مستغرق في إجراء الاختبارات الخاصة على قوة التحريك باستخدام العقل، وأخبره أنه يستطيع التأثير في زهر النرد عند التركيز الذهني، وبالفعل استطاع البروفيسور رين التأكد من قدرة الشاب غير العادية على التحكم في ظهور أوجه زهر الطاولة، وبعد حصول رين على دليل قوي على وجود الظاهرة بدأ بالفعل في إجراء التجارب الخاصة به مستخدماً زهر الطاولة.

كان يطلب رين من الشخص موضع الاختبار أن يلقي زهر الطاولة 24 مرة باستخدام زهر واحد، و12 مرة باستخدام زهرين، سجل البروفيسور رين النتائج مع حساب احتمالات المصادفة. فمثلاً ظهور الرقم 6 أربع مرات هو أمر مصادفة، وأي نتيجة أعلى من ذلك أو أقل من ذلك لا بد أن تكون هناك عوامل أخرى مؤثرة، ربما تكون قوة العقل على التحريك. كان رين يطلب من الأشخاص موضوع الاختبار إلقاء الزهر مباشرة بأيديهم مع التركيز.

وبالفعل حصل رين على نتائج مذهلة وخصوصاً في حالة التركيز الذهني الشديد؛ ولعل الأمر الملفت للنظر في هذه التجربة أن شدة قوة التركيز كانت تأتي من الصلاة برأي أحد طلاب الدراسات الدينية، حيث تساعد الصلاة على قوة التركيز مما أعطت نتائج إيجابية للغاية. لكن على ما يبدو أن رين لم ترق له مسألة الصلاة ودورها في التركيز، وأراد التأكد عملياً من هذه الفرضية فقام بإجراء التجربة مرة أخرى باستخدام مجموعتين مختلفتين، كل مجموعة من أربعة أشخاص. المجموعة الأولى من طلاب الدراسات الدينية والمجموعة الثانية من محترفي القمار، وعند إجراء التجارب كانت النتائج مذهلة فقد حققت مجموعة الطلاب الدينية نتائج تفوق احتمال الصدف، مما يعزز القول بقدرة العقل على التحريك.

كعادة التجارب التي تعتمد على القوى النفسية لا تخلو من المشاكل، فتجارب البروفيسور رين تعرضت لانتقادات سواء بسبب استخدام الأشخاص في التجربة، أو حتى استخدام الزهر

نفسه، إذ كان هناك فرضية تقول أن الوجه الذي يحمل الأرقام الكبيرة أثقل بقدر ما من الوجه الذي يحمل أرقاماً أصغر، وعندما قام رين باستخدام زهر دقيق للغاية في التجربة كانت النتائج أضعف من سابقتها، لهذه الأسباب وعدم قناعة رين الكاملة بالنتائج لم يقم بنشر نتائجها، رغم اقتناعه بوجود ظاهرة التحريك باستخدام العقل.

هناك دلائل لا يستهان بها على التحريك بالتخاطر، ولكن لا يزال العلم في شك من ذلك ولا يثق بالنتائج، بسبب تعارضها مع المقاييس العلمية المتاحة وعدم القدرة على الإمساك بهذه القدرات.

إن مثلاً واضحاً ضربه ربنا عز وجل في كتابه عن قدرة أحد شهداء مجلس نبي الله سليمان على التحريك عن بعد هو مفتاح ودلالة واضحة وإشارة لا يمكن إغفالها للإنسان على إمكانية حدوث هذا الأمر إذا اجتمعت أسبابه وقوانينه، إنه القرآن الكريم الذي وصفه الخالق سبحانه وتعالى بأنه هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان. أعتقد أن مفتاح هذا الأمر يقع ضمن نطاق علم الباراسيكولوجي، وأن الفيزياء الحالية غير قادرة على تفسير ذلك. ربما الفيزياء المستقبلية والتي سوف تقوم على نظرية الأوتار الفائقة تكون لديها إجابة مقنعة، وتستطيع أن تخبرنا كيف يمكننا تحريك الأشياء بعيداً عن الزمان المكان.



## الفصل التاسع: حور عين

لو قُدر لنا أن نسأل الجنين في بطن أمه عن الحياة بعد الولادة لما استطاع مهما وصل خياله وعبقريته، بفرض أنه عبقرى في هذه الحالة، أن يتخيل الحياة بعد الولادة. لن يدرك معنى التنفس أو معنى الرحابة والسعة، لن تكون لديه أي فكرة عن التذوق، لن تخطر على باله مسألة الشعور والإحساس، وكم هي جميلة لحظات السعادة التي لا يمكن القبض عليها بشكل مادي. مهما شرحت له، ومهما وصفت ومهما أبدعت في الوصف فلن يمكن أن تعطيه وصفاً حقيقياً لما سوف يري؛ لأنه بسهولة شديدة ليست لديه أدوات قياس حقيقية يستطيع من خلالها فهم الحياة بعد الولادة.

لو قلت له أنك سوف تتنفس الهواء بديلاً عن هذا الحبل الواصل بينك وبين أمك فلن يفهم معنى التنفس لأنه لم يجربه ولم يختبره، ولن يعرف ماذا تقصد بالهواء. لو قلت له أن الغذاء أصناف وأشكال، كل منها له مذاق رائع ولون مختلف، هو لن يدرك مفهوم المذاق، ولن يعرف ماذا تقصد باللون. إن أقصى ما يمكن عمله في هذه الحالة هو أن تقرب له المعاني والمفاهيم بحيث يستطيع أن يدرك اختلاف الحياة بعد الولادة عن قبلها ويدرك أنه سوف يكون سعيداً، ولن يتمنى بحال من الأحوال أن يعود لبطن أمه حيث الضيق والمحدودية في كل شئ.

لو قدر لك أن تسأل الهدهد، عن مفهوم الجنة لديه فلن يزيدك عن قوله أرض مليئة بالخبء. جنة الضفدع مستنقع؛ وجنة العصفور شجرة. اذهب واسأل دودة القز عن جنتها، فسوف تخبرك أنها أرض سطحها التوت، وسقفها التوت، وحيطانها التوت، وأنهار تجري بورق التوت. حتى إذا استوت دودة القز وصارت فراشة تبدل مفهوم الجنة لديها ليصير أرض الزهور، والورود والرحيق اللانهائي.

لن تمثل الزهور والرياحين قيمة تذكر لدى دودة القز وكل ما يعينها هو ورق التوت، كما لن يمثل ورق التوت قيمة لدى الفراشة في طورها الناضج. ما يمكن أن تعده نعيماً مقيماً في فترة قد يتحول عديم القيمة في المستقبل. النسبية تغزو كل شئ وتصر على الإطاحة بكل ثابت.

لو سألت إنساناً عن رغبته في أن تكون لديه حور عين في الجنة، على اعتبار أن الحور العين هن النساء الجميلات، بل فائقات الجمال، لن يتردد في الإجابة بنعم وألف نعم. نساء أهل الجنة؛ هذا هو المفهوم الذي يتبادر إلى الذهن بمجرد سماع لفظ الحور العين. مفهوم المتعة هو مفهوم نسبي للغاية، وكما الرجال يستمتعون بمرافقة النساء، فكذلك النساء يستمتعون بمرافقة الرجال. ليس هناك فرق يذكر بين الرجال والنساء في هذه الجزئية.

لماذا يحتكر الرجال (الذكور) الجنة ونعيمها بينما تحول مفهوم النساء إلى أشياء ومتاع؟ لماذا لا يكون لها نفس النصيب كما للرجال والجنة ليست حكراً على جنس معين؟ هل الفهم الخاص بأن النساء متاع فإنهن خلقن للرجال، هل هو منهج قرآني أم أنه تراث إنساني جاء القرآن يضبطه ويصحح المفاهيم حوله؟

ما استطعنا استنتاجه من خلال تحليل اللفظ القرآني والخاص بلفظ الحور العين تحديداً يخبرنا أن كل ما نسجناه حول الحور العين وعلاقتها بالعلاقات الجنسية هو محض تصورات ذهنية، وصور نمطية للمتعة داخل أدمغة البعض ليس لها أي علاقة بالمنهج القرآني. الحديث عن الجنة في كتاب الله يستخدم في الأغلب الأعم صيغة الجمع أو صيغة النفوس والتي تشمل الذكور والإناث.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (سورة البقرة، آية 82).

لفظ الذين آمنوا هو لفظ عام يدخل تحته الذكور والإناث ولا يمكن لعامل القول إن المقصود هنا الذكور حصرياً. الآية التالية تقرر هذه الحقيقة من خلال تحديد الذكر والأنثى بشكل مباشر.

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا) (سورة النساء، آية 124).

سوف نرى من خلال الآيات التالية كيف أن الحديث عن الجنة حديث موجه للنفوس والناس بصفة عامة من ذكر أو أنثى دون تفضيل جنس على جنس.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (سورة الأعراف، آية 42).

تحدثت الآية الكريمة هنا أيضاً عن تخصيص الجنة بشكل شمولي لا بشكل إقصائي حيث التعبير لا نكلف نفساً ينقل للأذهان أن المراد بالحديث النفس بصفة عامة وليس الجنس ذكر أو أنثى.

(وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ) (سورة الزمر، آية 73).

الذين اتقوا ربهم هم بالطبع من جنس البشر المكلف وليس نوعاً معيناً وبنسباً محدداً.  
(تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا) (سورة مريم، آية 63).

العبودية مفهوم يشمل الإنسان بغض النظر عن جنسه ولا يقول أن المقصود هنا هو جنس الذكور إلا متحيز لا يستبين مدلول الألفاظ.

(مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ) (سورة غافر، آية 40).

تأكيدات متتالية على أن الجنة ليست مكان امتياز لجنس فوق جنس، وإنما دار جزاء ومنح وعطايا للنفوس على السواء.

التفسيرات التي جعلت جنساً يسود على جنس، وبنسباً يملك الحق في اتخاذ جنس آخر كمتاع هي تفسيرات تخص أصحابها ورؤى جنينية لمفهوم الجنة وحالة الجنة لا يمكن أن



تصل لحقيقة الجنة وحالها. الكلمات القرآنية والتعبيرات الربانية تصف حالات عبقرية لأنها من لدن حكيم عليم. من خلال تحليل الألفاظ والتعبيرات يمكننا أن نتلمس طريقنا، ولا نجزم أبداً أننا وقفنا على الحقيقة؛ فلا يعلم تأويله إلا الله. من أجل فهم شامل للتعبير القرآني حور عين سوف نحاول فهم جذر الكلمات ومدى ارتباطه بالمدلول في كتاب الله.

### مدلول كلمة حور

كلمة حور كما جاء في قاموس اللغة لها ثلاثة أصول: أولها لون من الألوان، وثانيها الرجوع، وثالثها شئ يدور دوراً. تبعاً لمنهجنا في فهم اللفظ القرآني فإن الكلمة تحمل وصف حالة معينة، وعلى ذلك هي في الحقيقة تحمل وصفاً وأصلاً واحداً، ولكن بسبب بعض الاختلافات، واعتماداً على نسبة التحريف التي أصابت لسان العرب، فقد اكتسبت بعض الكلمات أصولاً زائدة عن أصلها الحقيقي. ما يقرر ذلك هو كتاب الله، وليست أمانينا. من خلال التحليل الدقيق للكلمات وأصولها نستطيع استخراج الأصل الصحيح والذي غالباً ما تكون الأصول الأخرى فروعاً منه أو حالات خاصة من الأصل الأول.

مثال كلمة حور والتي يقول معجم اللغة أن لها ثلاثة أصول وهي لون، ورجوع، ويدور دوراً. من خلال تتبع اللفظ في كتاب الله نجد أن الأصل المسيطر هو يدور دوراً، ومن خلال فهم مدلول الرجوع واللون نستطيع أن نستخلص أن الأصلين الباقيين ما هما إلا حالة خاصة من الأصل الأول وهو يدور دوراً.

الرجوع ما هو إلا دورة أيضاً ولكنها دورة واحدة بحيث من يذهب يعود وهذا هو المقصود بأصل الحور هو الرجوع (عوداً على بدء). أما الأصل الثاني لكلمة حور وهو لون، فقد جاء من خلال المعاجم أن بياض الشئ أي تبيضه هو الحور، ويقال حور الثياب يعني بياضها. من هنا نستطيع أن نقول أن أصل حور لا يمكن أن يكون لوناً في المطلق، وإنما لون عائد من اللون الأصلي. عملية تحويل اللون إلى اللون الأصلي هي ما يمكن تسميته بالحور وهي عملية دوران أيضاً أو إعادة الثوب إلى اللون الأصلي أو إرجاعه إلى أحد أصوله.

من هنا نستطيع القول أن لفظ حور يعني إدارة الشيء دورات معينة. من ذلك أيضاً الحوار الذي نعرفه حيث سُمي الحوار حواراً لأنه يتم فيه أخذ ورد، حيث يتكلم شخص ويرد عليه آخر وهكذا كأنها دورات من الحديث والحديث المقابل. لو لم يكن الحوار بهذا الشكل من الأخذ والرد المتكرر لما صح أن يسمى حواراً.

ذكر لفظ حور أو أحد مشتقاته في كتاب الله في عشرة مواضع، خمسة منها جاءت في صورة حور وخمسة جاءت في صورة حواريين (أصحاب نبي الله عيسى). الآية الكريمة التي نستطيع من خلالها فهم مدلول كلمة حور بشكل صحيح، مع الأخذ بعين الاعتبار جذر الكلمة هي الآية رقم 14 الواردة في سورة الانشقاق. وحتى يمكننا فهم اللفظ لا بد من فهم سياق الآيات قبل وبعد هذه الآية الكريمة.

(فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (7) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (8) وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (9) وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وِرَاءَ ظَهْرِهِ (10) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (11) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (12) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (13) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (14) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (15)) (سورة الانشقاق، آيات 7-15).

بالنظر إلى سياق الآيات الكريمة نجد أن مدلول حور هو الرجوع على أصله أي يعود إلى حالة كان قد غادرها، وهذا هو أصل كلمة حور والتي تعني يدور دوراً. لقد جاءت التفسيرات تصف كلمة حور بالرجوع، ولكن لسبب ما حدث خلط بين وصف الحور بالرجوع، وبين وصف الحور باللون أو باللون الأبيض تحديداً، كما جاء من خلال تفسير القرطبي:

(إنه ظن أن لن يحور أي لن يرجع حياً مبعوثاً فيحاسب، ثم يثاب أو يعاقب . يقال: حار يحور إذا رجع، قال لبيد: وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رمادا بعد إذ هو ساطع. وقال عكرمة وداود بن أبي هند، يحور كلمة بالحبشية، ومعناها يرجع. ويجوز أن تنفق الكلمتان فإنيهما كلمة اشتقاق؛ ومنه الخبز الحواري، لأنه يرجع إلى البياض. وقال ابن عباس: ما كنت أدري: ما يحور؟ حتى سمعت أعرابية تدعو بنية لها: حوري، أي ارجعي إلي، فالحور في كلام

العرب الرجوع؛ ومنه قوله - عليه السلام - : اللهم إني أعوذ بك من الحور بعد الكور يعني: من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة، وكذلك الحور بالضم. وفي المثل (حور في محارة) أي نقصان في نقصان. يضرب للرجل إذا كان أمره يدبر، قال الشاعر: واستعجلوا عن خفيف المضغ فازدادوا والذم يبقى وزاد القوم في حور. والحور أيضا: الاسم من قولك: طحنت الطاحنة فما أحات شيئا؛ أي ما ردت شيئا من الدقيق. والحور أيضا الهلكة؛ قال الراجز: في بئر لا حور سرى ولا شعر) انتهى التفسير.

رغم أن التفسيرات والأقوال تثبت أن الحور هو الرجوع، ولكن كما نعلم أن الترادف الكامل غير موجود باللغة العربية. الكلمات دائماً تصف حالة دقيقة من حيث الصفات والخصائص، ولا يمكن أن تؤدي كلمة معنى آخر بنسبة مائة بالمائة، ولا بد من وجود تغير في حالة أي كلمة عن الأخرى. كذلك لا يمكن أن تكون كلمة حور هي نفسها كلمة رجوع، إنما كلمة حور تعني دورة، أو تعني عودةً على بدء، أو انطلق من نقطة ثم عاد إلى نفس النقطة أي أتم دورة كاملة. بينما مفهوم الرجوع لا يشترط أن يكون عائداً إلى نفس النقطة.

على ذلك نستطيع القول أن لفظ الحور يصف دورة كاملة، وهو أقرب لمفهوم التماثل. التماثل بتعبير بسيط هو عند تدوير شكل معين بدرجة ما ينتج نفس الشكل، مثال ذلك المثلث متساوي الأضلاع له ثلاثة محاور تماثل، أي أنه عند تدوير المثلث سوف يعطي نفس الشكل كل دوران قيمته 60 درجة. تستطيع العين أن تميز الجمال في الأشياء كلها كانت درجة تماثل هذه الأشياء كبيرة، ويعتبر التماثل في اللوحات الفنية ذا قيمة عالية، ولعل المنحوتات الفرعونية اكتسبت قيمتها الفنية العالية لما لها من درجة تماثل عالية جداً.

التماثل هو في الحقيقة من أسرار الجمال التي تكمن في الأشياء، وعكسه التشوه، فيقال عن الفاكهة المنتظمة متمائلة، إذا كان يمكن تقسيمها إلى أجزاء متساوية. وكل شيء يمكن تقسيمه إلى أجزاء متساوية هو في الحقيقة يملك درجة من درجات التماثل. من الطبيعي إذا حدث تشوه في الشكل لو بدرجة بسيطة، هنا سوف يفقد الشكل ميزة التماثل بحيث عند تقسيم الشكل إلى أجزاء سوف يصبح أحد الأجزاء أكبر أو أصغر قليلاً من الأجزاء الباقية.

إذا كان التماثل هو أحد أسرار الجمال، فهو لا شك أيضاً دليل على سلامة وصحة المنتجات الطبيعية مثل الفاكهة والخضروات. كثير من أماكن بيع الفاكهة والخضروات ذات المستوى المرتفع تقوم بفرز المنتجات على أساس التماثل، حيث تستبعد أي منتج غير متماثل، لأن التماثل في حد ذاته دليل على صحة وسلامة المنتج بالإضافة إلى شكله الجمالي المميز.

مدلول كلمة حور والتي تصف دورة هي في الحقيقة تصف التماثل أو قل إن شئت أساس التماثل، مفهوم رياضي هندسي بحت. بعد أن وقفنا على مدلول كلمة حور من خلال جذر الكلمة ومن خلال مدلول الكلمة في الآية الكريمة السابقة سوف نحاول فهم مدلول كلمة عين حتى يكتمل التعبير القرآني.

#### مدلول كلمة عين

جذر كلمة عين هو العين والياء والنون، وقد جاءت في قواميس اللغة على أن أصلها العين التي يبصر بها أو التي منها النظر. لم تتطرق القواميس للحالة التي يصفها جذر الكلمة، ولكن من خلال كتاب الله سنجد مفهوماً أكثر شمولية للفظ العين، من خلال مقارنة آيتين من آيات كتاب الله:

الآية الأولى: (وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُّوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) (سورة البقرة، آية 60).

العين هنا هي عين الماء كما يتضح، وعين الماء هي الشيء الذي يفيض بالماء.

الآية الثانية: (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) (سورة المائدة، آية 83).

من خلال هذه الآية الكريمة يتم تحديد خواص وصفات لفظ العين، حيث العين هي الشيء الذي يفيض بالدمع والآية السابقة العين تفيض بالماء، ولا بد أن نلاحظ أن الفيض أو إفراز السائل هو عملية مستمرة ومتجددة.

على ذلك يمكننا القول أن مدلول كلمة عين هي الشئ الذي يفيض بشئ بشكل مستمر، أو يمد بشئ ما في صورة متجددة، وسميت العين التي نبصر بها عيناً لأن من خواصها إفراز سائل يحافظ على صفة البصر؛ وسميت عين الماء بهذا الاسم بسبب خاصيتها التي تعتمد على الفيض المستمر.

بالإضافة إلى الآيتين السابقتين يمكننا الاستعانة بلفظ (يستعين) الذي ورد في سورة الفاتحة لتثبيت المعنى وتقوية الفكرة حيث جذر الكلمة واحد بزيادة أحرف العلة والسين والتاء ليتحول لفظ عين لفظ يستعين أو استعين. حرف العلة والسين والتاء تفيد- كما يقول أهل اللغة- الطلب، ولفظ يستعين كما نعلم يعني طلب المدد أو العون، فيكون لفظ عين وحده هو وصف حالة مدد أو حالة فيض، وعندما دخل مقطع الألف والسين والتاء على اللفظ أصبح اللفظ يعني طلب العون أو المدد أو الفيض. مفهوم لفظ يستعين متوافق تماماً مع مدلول جذر كلمة عين في كتاب الله التي تعني الشئ الذي يفيض باستمرار. من هنا نستطيع القول أن لفظ عين هو وصف لحالة من الفيض المستمر أو المدد المستمر. خاصية الاستمرار هي خاصية رئيسية من خواص المسمى (العين)؛ لأنه في حالة جفاف العين الخاصة بالنظر سوف تفقد حقيقتها وتلف، وبالتالي لا يصح تسميتها بالعين، وكذلك جفاف عين الماء يجعلها مجرد حفرة ولا ينطبق عليها لفظ عين لأنها فقدت القدرة على الفيض المستمر.

من هنا يمكننا فهم الآية الكريمة التي أشكلت على الكثيرين في سورة الطور:

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ) (سورة الطور، آية 48)

حاول البعض تفسير العين هنا بشكل تجسدي على أنها تشبه عين الإنسان، تنزه ربنا عن ذلك وعلا علواً كبيراً، والبعض قال الآية تعني أنك بنظرنا وتحت مرآنا، والبعض الآخر قال تؤمن بالآية ولا نسأل عن كيفية العين.

هذا الارتباك شئ طبيعي في حالة فهم العين على أنها جنس العين التي تبصر بينما إذا تم فهم العين على أنها تمثل حالة الفيض والعون والمدد المستمر زال كل التباس. إنك بأعيننا أي في قلب الفيض المتجدد والعون والمدد المستمر من الله. هل هناك اطمئنان أبلغ من هذا

الاطمئنان؟ الفهم هو مفتاح الوصول وتمام الإيمان وسلامة القلب بينما التقليد دون وعي حقيقي هو الباب الخلفي للكفر والشرك والإلحاد.

إذا كان الحور يعني دورة أو تماثل كما ذكرنا، والعين تعني حالة فيض أو مدد مستمر متجدد، يصبح التعبير القرآني العظيم (حور عين) حالة من التماثل والاستمرارية والتجدد، وهذه الحالة هي الحالة المثالية التي تصف الجنة ومشمات الجنة في كل آيات الكتاب العظيم. لو بحثت في قواميس اللغة عن تعبير بسيط وبلغ يعبر عن النعيم الأزلي في صورة مثالية لن تجد تعبيراً أبلغ ولا أروع من التعبير القرآني حور عين. فكل ما في الجنة هو في حالة حور عين أي في حالة تماثل كامل (حور) وتجدد واستمرارية (عين).

بعد هذا التقديم ومحاولة فهم مدلول كلمتي حور وعين ثم دمجهما سوياً لفهم التعبير بشكل كامل، دعونا ننتقل لبحث جميع الآيات الكريمة التي ورد فيها لفظ حور عين بيان مدلولها.

الآية الأولى: (كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ) (سورة الدخان، آية 54).

لفظ زوجناهم هنا أشكل على كثير من المفسرين وذهب تفكيرهم إلى حالة تزواج الذكر بالأنثى وخصوصاً العملية الجنسية. المتبع للفظ زوجناهم في اللغة وفي كتاب الله سوف يجد أن لفظ زوج يعني رافق وصاحب بشكل متوافق. جذر زوجناهم هو زوج ويعني كما في قاموس اللغة مقارنة شئ بشئ. من خلال كتاب الله نجد أن مقارنة شئ بشئ لا تكفي ولا بد من وجود حالة توافق، ومن ذلك سمي الزوج والزوجة بسبب حالة التوافق والتكامل بينهما معنى التزويج واضح في سورة الشورى كما في الآية التالية:

(أَوْ يَزُوجُهُمْ ذُرَّانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) (سورة الشورى، آية

5).

لا يمكن لعقل أن يفهم أن التزويج هنا يعني أي شئ من قبيل النكاح، ولكن يأتي لفظ يزوجهم ذرانا وإناثا أي يرافقههم ويتوافق معهم ذرية من الذكور والإناث. لفظ يزوجهم

لا يقتصر على مجرد منحة الذرية، بل أن تكون هذه الذرية متوافقة ومنسجمة مع والديها، وهذا هو تمام النعمة وكمال العطية.

الآية الثانية التي تعطينا تأكيداً على مفهوم الزوجية بأنه التوافق والتكامل والتوافق هي الآية في سورة ق:

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) (سورة ق، آية 7).

في هذه الآية الكريمة إشارة إلى قانون الزوجية الذي يحكم كل مكونات الكون حيث كل جزء يتوافق مع جزء آخر ويتكامل معه لأداء الوظيفة المنوط بها على أكمل وجه. آية أخرى في كتاب الله تنهي هذا الجدل وتوضح مفهوم لفظ زوج في سورة الصافات:

(أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ) (سورة الصافات، آية 22).

السؤال المنطقي هو ما ذنب أزواج الذين ظلموا إن كان مفهوم الزواج هو المفهوم المتداول لدى البشر؟ الإجابة بالطبع لا تزر وزارة وزر أخرى، ولا يمكن أن يستقيم هنا مفهوم الزواج إلا إذا كان يعني الموافقين توافقا تاماً وكاملاً مع الذين ظلموا. أزواج الذين ظلموا هم أعوانهم الذين يكملون الناقص، و يتطوعون بإتمام ما لم يتم، وهم على ذلك متوافقون تماماً مع هؤلاء الظالمين.

من هنا نجد أن معنى زوجناهم بحور عين أي يرافقتهم ومتوافق تماماً معهم في حالة من التماثل والتجدد والاستمرارية. أصحاب الجنة تلازمهم هذه الحالة الفريدة في كل ما حولهم وفي كل نعيم يذوقونه. حالة الحور العين في هذه الآية الكريمة حالة عامة وليست مقصورة على شيء معين كما نلاحظ في الآيات السابقة لهذه الآية الكريمة والآيات اللاحقة لها:

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (51) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (52) يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (53) كَذَلِكَ زَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (54) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمَنِينَ (55) لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (56)) (سورة الدخان، آية 51-56)

سبقت آية زوجناهم آيات كريمة تتحدث عن جنات وعيون ولباس أهل الجنة، والآية التالية تتحدث عن فاكهة خاصة بأهل الجنة. كل هذه المعطيات تتميز بحالة التماثل، وهو عين الجمال، وعدم التشوه، والتجدد والاستمرار، وهذا المعنى هو ما تؤكد الآيات رقم 56 والتي تتحدث عن الخلود وأن أهل الجنة لا يذوقون الموت فيها.

الآية الثانية: (وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ) (سورة الطور، آية 20)

ما جرى على الآية السابقة والتي جاء فيها التعبير القرآني زوجناهم بحور عين يجري تماماً على هذه الآية الكريمة، ومن خلال سياق الآيات السابقة واللاحقة يصبح الأمر أكثر وضوحاً.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (17) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (18) كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (19) مُتَّكِنِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (20) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ (21) وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (22)) (سورة الطور، الآيات 17-22).

في هذه الآيات الكريمة نفس المعنى السابق وهو متع سبقت التعبير القرآني وزوجناهم بحور عين، مثل الفاكهة ولحم مما يشتهون. كل هذه المتع يجري عليها وصف الحور العين وهي التماثل، وعدم وجود تشوه، والتجدد والاستمرار، وهو عين حال الجنة والذي تؤيده جميع الآيات التي تتحدث عن الجنة ونعيمها.



نحن لا ننفي ولا نثبت أن هناك متعة جنسية في الجنة بسبب عدم ورود نص صريح في كتاب الله يتحدث عن هذه المتعة؛ بينما توجد نصوص متعددة تتحدث عن المتع الأخرى مثل الفاكهة، والشراب، والبطائن، والأرائك. كل ما هنالك أننا نقول أن لفظ الحور العين نفسه لا يعني نساء أهل الجنة، ولو أن هناك متعة جنسية في الجنة فسوف ينطبق عليها حال الحور العين؛ بمعنى أنها متعة غاية الكامل، ليس هناك ما يشوبها، وهي متعة متجددة؛ أي أنها في كل مرة تختلف عن التي قبلها. لذلك نحن لا نقول بشيء لم يذكره الله صراحة في كتابه، ونؤيد هذا الفرض بتحليل التعبير القرآني حور عين الذي لا يصف نساء أهل الجنة، وإنما هو وصف أعم وأشمل وأكمل يصف حالة الجنة ونعيمها التام الأبدي.

كثير من المجتهدين المعاصرين فسروا الحور العين على أنها فاكهة وليست نساء أهل الجنة، ولكن الصحيح أن لفظ الحور العين هو لفظ عام يصف حالة الأشياء، ويمكن فهم المقصود هل هو فاكهة أو غير فاكهة من خلال سياق الآيات. إذا كان الحديث منصّباً على الفاكهة، ثم وصف هذا الحديث بحور عين، فذاك يعني أن الفاكهة سليمة تماماً لا شائبة فيها، ومتجددة باستمرار (تمثال وتجدد). التجدد على كل المستويات من اللون والطعم والشكل بحيث تبدو وكأنها بداية كل شيء، وهل هناك متعة تفوق متعة البدايات.

إذا كان الحديث عن لحم طير، فكذلك توصيف حور عين يعني أيضاً التمثال والتجدد. وإذا كان الحديث عن بطائن وفرش، فكذلك صفات هذه الفرش والبطائن التمثال والتجدد، وإن كان الحديث عن متعة جنسية فيجري عليها ما جرى على سابقها من التمثال والتجدد.

الآية الثالثة: (حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ) (سورة الرحمن، آية 73).

التعبير القرآني في هذه الآية الكريمة جاء بلفظ حور فقط دون لفظ عين مما يدل على صفة التمثال هي السائدة بينما صفة التجدد لم ترد. هذا الوصف الرائع موافق تماماً لحالة المقارنة الواردة في سورة الرحمن حيث حالة الجنتين الأولى والتي خصصها ربنا لمن خاف مقام ربه وحالة الجنتين الأقل كما يظهر من الآيات التالية.

وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ (46) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تُكذِّبَانِ (47) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (48)  
 فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تُكذِّبَانِ (49) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (50) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تُكذِّبَانِ (51) فِيهِمَا  
 مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (52) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تُكذِّبَانِ (53) مُتَكَبِّرِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ  
 إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (54) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تُكذِّبَانِ (55) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ  
 يَطْمِئِنَّ بِإِنْسٍ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (56) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تُكذِّبَانِ (57) كَانَهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (58)  
 فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تُكذِّبَانِ (59) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (60) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ  
 تُكذِّبَانِ (61) وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ (62) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تُكذِّبَانِ (63) مُدْهَمَمَاتٍ (64) فَبِأَيِّ  
 آلَاءِ رَبِّكَ تُكذِّبَانِ (65) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ (66) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تُكذِّبَانِ (67) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ  
 وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (68) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تُكذِّبَانِ (69) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (70) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ  
 تُكذِّبَانِ (71) حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (72) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تُكذِّبَانِ (73) لَمْ يَطْمِئِنَّ بِإِنْسٍ  
 قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (74) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تُكذِّبَانِ (75) (سورة الرحمن، آيات 46-75).

سورة الرحمن تتحدث عن ثنائيات عجيبة، من هذه الثنائيات مقارنة ومقابلة بين نوعين من الجنان. النوع الأول لمن خاف مقام ربه جنتان. النوع الثاني قال عنه ربنا من دونهما جنتان. من خلال إجراء مقابلات بين ما تحتوية الجنتين الأولين وبين ما تحتويه الجنتين الأخيرين نلاحظ الوفرة في الجنتين الأولين بينما الأقل وفرة في الجنتين الأخيرين.

الجنتان الأوليان: ذَوَاتَا أَفْنَانٍ، الجنتان الأخريان مُدْهَمَمَاتٍ الجنتان الأوليان: فِيهِمَا  
 عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ، الجنتان الأخريان: فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ الجنتان الأوليان: فِيهِمَا مِنْ كُلِّ  
 فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ، الجنتان الأخريان: فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانُ الجنتان الأوليان: مُتَكَبِّرِينَ عَلَى  
 فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ، الجنتان الأخريان: فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ.

الجنة الأوليان: فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ، الجنة الأخرى: حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ الجنة الأوليان: كَانَهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ، الجنة الأخرى: لَمْ يَطْمِئِنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ.

من خلال المقابلة سنجد أن كل حالة وفرة للجنين الأولين تقابلها حالة وفرة أقل في الجنة الأخرين، وعلى ذلك نجد أن آية (فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ) تقابلها آية (حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ). تم تفسير الآية الخاصة بقاصرات الطرف في الفصل السابق وقلنا أن قاصرات الطرف يعني تأثير الفاكهة أو المأكّل والمشرب مقصور على النفع فقط ولا يتعدى إلى الضرر. لدينا بعض الملاحظات الهامة على وصف الحور العين في هذه الآيات تحديداً على أنه تصف الفاكهة وليس وصفاً لنساء الجنة.

الآية التالية (كَانَهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ) تنفي ذلك تماماً.

فهل تعتقد أن وصف الياقوت بلونه الأزرق أو الأحمر، والمرجان بألوانه الأبيض، والأحمر، والوردي والأحمر الداكن، يتناسب مع وصف النساء، أم أن وصف الفاكهة هو الأقرب؟ قد يكون لفظ يطمئن هو ما أشكل على الناس فهم هذه الآية؛ أو أن ضمير التأنيث هن سبب بعض التشويش لدى الكثيرين. وحتى نزيل هذا الالتباس سوف نخرج قليلاً على تعريف هذه المسميات بشكل بسيط ومختصر. ضمير التأنيث «هن» هو عائد على قاصرات الطرف، والتي تصف أشجار الفاكهة، أو الفاكهة ذاتها، وقد ورد في كتاب الله هذا الضمير واصفاً غير العاقل في أكثر من موضع.

(حُجُّوا شَهْرَ مَعْلُومَاتٍ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحِجَّ فَلَا رَفْثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحِجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ) (سورة البقرة، آية 197).

(وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا) (سورة نوح، آية 16).

أما لفظ يطمّث فأصله طمّث ويعنى المس، واللفظ لم يرد في كتاب الله سوى في موضعين واصفاً قاصرات الطرف. من خلال تتبع اللفظ وتحليله، والحالة التي يصفها، ومقارنة اللفظ مع لفظ طمس المقارب في الصوت للفظ طمّث سنجد أن الطمّث يعني مس الشيء مما يسبب أذىً معيناً. يذهب كثير من الناس إلى أن الطمّث هو طمّث النساء المعروف؛ ولكن من خلال كتاب الله يتضح لنا خطأ هذه الفرضية.

تسمية العملية البيولوجية التي تحدث للنساء بالطمّث هي تسمية بشرية خالصة وليست صحيحة، حيث استمدت خصائصها وصفاتها من المعارف القديمة وخصوصاً معارف أهل الكتاب الذين كانوا يظنون أن هذه العملية البيولوجية هي مس من الشيطان يؤذي من خلالها المرأة. هذا المسمى صححه القرآن من خلال تسمية هذه العملية بالحيض.

(وَاللَّائِي يَئْسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا) (سورة الطلاق، آية 4).

من هنا نجد أن لفظ الطمّث هو المس الذي يسبب أذى، وأقرب معنى معاصر له هو عملية التلوث؛ فيكون معنى يطمّثن أي لا يلوّثها. لفظ الإنس يعني الحضور والمشاهدة، وقد تم شرح هذا اللفظ من خلال الجزء الثالث من الكتاب عند تحليل كلمة الإنسان وفهم مدلولها. لفظ الجان أصله جن، ويصف حالة من صفاتها وخصائصها الاختفاء وعدم القدرة على رؤيتها. في الوضع الطبيعي، معنى الإنس والجان في الآية الكريمة هو الأشياء الظاهرة الواضحة الحاضرة، ومعنى الجان هو الأشياء المخفية. فيكون معنى الآية الكريمة لا يلوّثها شيء ظاهر أو شيء خفي. هذه الفاكهة التي أعدت لأهل الجنة لا يجري عليها قانون الدنيا من التعرض للتلوث سواء عن طريق تلوث ظاهري (تشوه - كسر - إنخ)، أو تلوث غير مرئي مثل العدوى الفطرية أو ما شابهه. لكي يستقيم المعنى بشكل صحيح يلزمنا فهم مدلول كلمة الخيام من خلال كتاب الله لكي نستطيع فهم التعبير القرآني ( مقصورات في الخيام).

## مدلول كلمة الخيام

جذر كلمة خيام هو خيم، وكما جاء في قاموس اللغة تعني الإقامة والثبات، كذلك لفظ خيم يستخدمه الناس في وصف تغطية شيء أو أن شيء لف شيئاً آخر. من خلال مقارنة الآية التي ذكر فيها لفظ الخيام مع الآية المقابلة التي ذكر فيها قاصرات الطرف؛ وحيث أن قاصرات الطرف تعني تأثيراً مقصوراً على النفع- كما بينا- فإن مقصورات في الخيام تبدو أنها تصف تأثيراً أقل للمتعم المذكورة. كلمة خيم تعني ثبات وتدل على كسل أو نحول فيبدو أن الحور أو الأشياء المتماثلة تكون أقل تأثيراً من مثيلاتها في الجنتين الأوليين التي أعدها الله لمن خاف مقامه سبحانه وتعالى.

هذا التقابل الواضح بين الحالة الأولى في الجنتين الأعلى وبين الحالة الثانية في الجنتين الأقل تأثيراً يظهر بشكل واضح في التعبير القرآني الذي وصف عيون الماء في كلتا الحالتين. جاء التعبير القرآني يصف الماء بقوله فيهما عينان تجريان في حالة الجنتين الأوليين وهو تعبير عن الوفرة؛ بينما جاء التعبير القرآني يصف الماء بقوله فيهما عينان نضاختان في حالة الجنتين الأخريين، وهي الأقل وفرة. هكذا تجري المقابلات بين مشتملات الجنتين الأوليين وبين مشتملات الجنتين الأخريين. وعلى ذلك تكون قاصرات الطرف في الأولى تعني تأثير الأشياء مقصوراً على النفع، بينما في الثانية أقل تأثيراً. لفظ خيام وجذر الكلمة يؤيد هذه الفرضية ويقويها، والتعبير القرآني الذي استخدم لفظ الحور بدون استخدام لفظ عين الذي دائماً ما كان ملازماً للفظ الحور يوحي بهذه الصفة الأقل في الجنتين الأخريين.

لفظ الخيام يعني إقامة، وثباتاً بالمعنى السليبي وهو الخمول أو الكسل أو شيء خامد. لفظ الخيام الذي ذهب إليه المفسرون على أنه مكان للسكن وأن نساء أهل الجنة سوف يكون مقصورين في هذه الخيام هو تفسير مستمد من البيئة المحيطة لا يمثل الألفاظ في كتاب الله. هل الخيام كمكان للسكن متعة أو هل هذه البداية تتناسب مع حال الجنة الذي وصفه ربنا بالتأمل والتجدد والاستمرارية. لماذا يصر الناس على أن كتاب الله جاء على مقاس أهل البداية

وعلى فهمهم للمتعة بينما كتّاب الله جاء للعالمين. هل جربتم حياة الخيام والتعامل مع الخيام التي يتخذها الناس سكني في البيئات البدائية؟

هل فيها متعة أم مشقة وعناء. الخيام التي جاءت في كتّاب الله ليست مكاناً للسكن كما وصف ربنا، وإنما هي وصف لحالة الحور الذي يصف التماثل في كل شيء، وفي هذه الحالة هو حالة الفاكهة، والتي يصبح تأثيرها أقل من تأثير الفواكه في الجنتين التي أعدها الله لمن خاف مقام ربه. من ناحية أخرى لفظ الخيام لم يذكر في كتّاب الله سوى مرة واحدة، ومن المعروف لدى العرب أن لفظ خيام يطلق على ما يسكن فيه، وهو نوع من الحياة البدائية، لكن كتّاب الله وصف محل السكن بثلاثة أوصاف هي كما يلي:

وصف عام حيث وصفها ربنا بالمساكن، سواء في الدنيا أو في جنات الآخرة، جاء وصف مساكن الدنيا في سورة التوبة:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) (سورة التوبة، آية 24).

في سورة التوبة أيضاً عبر ربنا عن السكن في الجنات بلفظ مساكن كما نرى: (وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (سورة التوبة، آية 72).

الوصف الثاني الذي وصف به ربنا ما يسكن فيه الناس هو وصف البيوت. وصف البيوت هو الوصف السائد في كتّاب الله والذي يعبر تعبيراً حقيقياً عن أماكن الإيواء التي تؤوي قاطنيها.

(لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ

أَوْ بِيوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بِيوتِ عَمَاتِكُمْ أَوْ بِيوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بِيوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ  
أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ  
تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (سورة النور، آية  
61).

(وَكَانُوا يَنْخِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بِيُوتًا آمِنِينَ) (سورة الحجر، آية 82).

(وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَ لِقَوْمِكَ بِمِصْرَ بِيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا  
الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) (سورة يونس، آية 87).

الوصف الثالث هو وصف المساكن الفارهة أو الأكثر قيمة وقد ذكرها ربنا في كتابه  
بالقصور:

(وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأْنَا فِي الْأَرْضِ تُحْتَدُونَ مِنْ سُهُولٍ قُصُورًا  
وَتَخْتُونَ الْجِبَالَ بِيُوتًا فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) (سورة الأعراف، آية  
74).

في الآية التالية تحديداً ذكر ربنا فضله بأن يجعل لنبية قصوراً وجنات تجري من تحتها  
الأنهار دليل على النعيم والرفاهية:

(تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ  
لَكَ قُصُورًا) (سورة الفرقان، آية 10).

من خلال تتبع الآيات الكريمة التي ذكرت المأوى والسكن للإنسان سواء في الدنيا  
والآخرة لا يمكن اعتبار الخيام بمفهومها البشري هي محل سكن في الجنة. الجنة التي تتميز  
بالكمال، والتمام، والتماثل، والتجدد والاستمرار تتخذ الخيام سكناً، وبين أيدينا كتاب الله يذكر  
البيوت والقصور. لا شك أن الخيام بمفهومها البشري هي العودة للبداية حتى العرب في  
القديم كانوا يستخدمون لفظ دار لوصف بيوتهم ولفظ بيت، إنما الخيام كوصف للسكن هو  
وصف بدائي لا يتلاءم مع الجنة وصفاتها وخصائصها التي ذكرها ربنا سبحانه وتعالى في كتابه.

عدم القدرة على تحليل اللفظ وفهم جذر الكلمة (خيم) جعل العرب يلجأون إلى أقرب معنى لديهم على أن الخيام هي مكان السكن والإقامة. لن أكون مبالغاً إذا قلت أن وصف الخيام هذا عزز بشكل كبير فرضية أن الحور العين نساء أهل الجنة، لأن اللفظ يكاد لا يستعمل إلا في الخيام التي نعرفها، أو ما نسميها حالياً بالخيمات. عند تحليل لفظ خيم والذي وجدنا أنه يعني الإقامة والثبات أو الخمول، وجدنا أن المعنى مختلف تماماً، وأن المقصود هو تأثير المتع في الجنتين الآخرين يكون أقل منه في الجنتين الأوليين.

الآية الرابعة: (وَحُورٌ عِينٌ) (سورة الواقعة، آية 22).

آيات سورة الواقعة من الآية 10 وحتى الآية 38 تصف حالة صنفين من أهل الجنة، (السابقون) و (أصحاب اليمين).

لا شك أن السابقين وأصحاب اليمين هم في الحقيقة رجال ونساء، لذلك لا بد أن تكون المتع هنا للرجال والنساء دون تفریق. هذا النعم الوارد في الآيات الكريمة لم يفرق بين النساء وبين الرجال سواء في السرر الموضونة أو في الطعام والشراب والفاكهة، ولكن المفسرين عندما قالوا أن الحور العين هم نساء أهل الجنة هم من أوجدوا هذا الفرق، حيث خصصوا الحور العين للرجال دون النساء.

من خلال مقابلة النعم المخصصة للسابقين مع النعم المخصصة لأصحاب اليمين، سنجد أن تعبير (الحور العين) يقابل (فرش مرفوعة)، ووصف هذه الفرش المرفوعة من حيث أن الله سبحانه وتعالى أنشأهن إنشاءً وجعلهن أبكاراً، عرباً أتراباً. يبدو لي أن الحور العين هنا تصف حالة عالية من الفرش أو الشئ الممهد (لفظ فرش يعني الشئ الممهد). تعبير الحور العين هو في حد ذاته وصف يحمل خصائص التماثل والتجدد والاستمرار، ثم شبه ربنا هذا الحور العين باللؤلؤ المكنون تأكيداً على صفة التماثل التي تتميز بها الأنواع الجيدة من اللؤلؤ.

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ) (10) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12) ثَلَاثَةٌ مِّنَ

الْأُولَئِينَ (13) وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (14) عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (15) مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (16) يَطُوفُ



عَلَيْهِمْ وَلَدَانٌ مُّخْلَدُونَ (17) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (18) لَا يَصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (19) وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (20) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (21) وَحُورٌ عِينٌ (22) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (23) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيًا (25) إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا (26) وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (27) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (28) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (29) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (30) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (31) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (32) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (33) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (34) إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً (35) لِّجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (36) غُرْبًا أَتْرَابًا (37) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (38)) (سورة الرحمن، آيات 10-38).

من خلال فهم وصف الجنة الخاصة بأصحاب اليمين، وخصوصاً مسألة الفرش المرفوعة، سنجد أن الوصف يؤكد على هذا المعنى، وهو أن الله أنشأ هذه الفرش وجعلها أبكاراً، أي ليست على مثال سبق مع فضيلة التجدد والاستمرار. قول الله سبحانه عرباً أي تفصح عن نفسها وهو دليل على التخلص من الشوائب بل أعلى درجات النقاوة. كذلك لفظ أترابا يعني متساويات وهو ما يقابل التماثل الذي هو من أهم خصائص الحور.

يبدو أن الحور العين في حالة أصحاب الجنة السابقين تماثل حالة الفرش المرفوعة في حالة أصحاب اليمين غير أن حالة الحور العين هي الحالة الأعلى درجة بينما الحالة الثانية هي الحالة الأقل والتي فصلها ربنا ووضحها بتفصيلات تتناسب تماماً مع خصائص وصفات ألفاظ الحور العين ولكن بدرجة أقل، حيث لفظ حور عين ذاته يحمل خصائص التماثل في أعلى درجاته والتجدد والاستمرار، نجد أن الفرش المرفوعة احتاجت لبيان حالتها وتوضيحها من حيث النشأة والجعل وصفة الجمال.

يمكننا تلخيص ما توصلنا إليه من فهم الحور العين على أنها حالة من التماثل والتجدد والاستمرار تصف حالة الجنة وكل ما فيها، ولا يمكن فهمها بعيداً عن السياق الذي قيلت من خلاله. أما اعتبار الحور العين نساء أهل الجنة فهو وصف لا يمكننا إثباته بسبب عدة عوامل:

أولاً: مدلول اللفظ ومفهومه من خلال كتاب الله الذي لا يؤيد هذا. ثانياً: أن الجنة للذكر والأنثى، وأى تخصيص للذكر بعيداً عن الأنثى أو العكس يجب أن يكون بدليل واضح وقوي من خلال كتاب الله وليس مجرد رؤية شخصية.

ملاحظة أخيرة: في قاموس اللغة وعند شرح جذر كلمة حور ورد أن الحور هو أن تسود العين كلها مثل الطباء والبقر وليس في بني آدم حور. ثم يستطرد الكتاب ليقول إنما قيل للنساء حور العيون لأنهن يشبهن بالطاء والبقر. قال الأصمعي ما أدري ما الحور في العين ويقال حورت الثياب أي بيضتها. من هنا نجد أن من اللغة أيضاً معنى الحور العين في وصف النساء كان غير مقنع لبعض القدماء ويحتاج لتكلف حتى يتم توفيقه مع لفظ النساء. أعلم جيداً أن هناك تقريباً إجماعاً على إن لفظ الحور العين يصف نساء أهل الجنة، ولعل الأمانى هنا قد فعلت فعلها ولا أحد يريد أن يتخلى عن هكذا وصف بسهولة.

لكن دراسة محايدة وتحليل اللفظ بشكل منهجي لا يثبت أبداً أنها مقصورة على نساء أهل الجنة بفرض أن هناك نساء أهل الجنة وإنما هي حالة عامة تصف كينونية كل مشتملات الجنان ولا يمكن فهمها إلا من خلال السياق التي وردت فيه. أخيراً نرجع قليلاً على لفظ الحواريين أصحاب نبي الله عيسى، ومدلول هذا اللفظ من خلال جذر كلمة حور.

### مدلول لفظ (الحواريون)

جاء لفظ الحواريين في كتاب الله في أربعة مواضع كلها تصف أصحاب نبي الله عيسى كما يلي:

(فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَآشَهِدُ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ) (سورة آل عمران، آية 52).

(وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَآشَهِدُ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ) (سورة المائدة، آية 111).

(إِذْ قَالَ الْخَوَارِئِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ) (سورة المائدة، آية 112).

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْخَوَارِئِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِئِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عُدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ) (سورة الصف، آية 14).

ماذا قال المفسرون في مفهوم لفظ الخواريين؟ في تفسير الطبري جاء ما يلي حول مفهوم كلمة الخواريين التي ذكرت في سورة آل عمران. «وأما (الخواريون)، فإن أهل التأويل اختلفوا في السبب الذي من أجله سموا (خواريين) فقال بعضهم: سموا بذلك لبياض ثيابهم. عن سعيد بن جبير قال: إنما سموا (الخواريين)، ببياض ثيابهم. وقال آخرون: سموا بذلك: لأنهم كانوا قصارين يبيضون الثياب.

عن ابن أبي نجیح، عن أبي أرطاة قال: «الخواريون»، الغسالون الذين يحورون الثياب، يغسلونها. وقال آخرون: هم خاصة الأنبياء وصفوتهم. عن روح بن القاسم، أن قتادة ذكر رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال: كان من الخواريين. فقيل له: من الخواريون؟ قال: الذين تصلح لهم الخلافة) انتهى التفسير.

لا يمكن فهم مدلول كلمة الخواريين بدون فهم جذر الكلمة وفهم الفترة التي عاش فيها نبي الله عيسى. مسألة البياض وتبييض الثياب كما قد بينا أن أصلها يرجع إلى الأصل الأول للكلمة وهو يدور دورة بمعنى تبييض الثياب أعادته إلى لونه الأصلي من خلال إدارته إلى أصله. الخواريون مشتقة من الحوار وهو الأخذ والرد كما بينا في بداية الفصل، و يبدو جلياً أن الخواريين سموا بهذا الاسم بسبب كثرة الحوار الذي كانوا يديرونه مع نبي الله عيسى، وتشهد على ذلك آيات الذكر الحكيم في سورة المائدة.

(وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (111) إِذْ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (112) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (113) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوْلَادِنَا وَأَخْرَانَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (114) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مَنكُم مِّنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (115)) (سورة المائدة، آيات 111-115).

الآيات الكريمة تسجل حواراً بين أصحاب نبي الله عيسى وبين نبي الله عيسى نفسه بغية الوصول للحقيقة. إنهم يبحثون عن المعرفة من خلال السؤال، ومن خلال اختبار هذه المعرفة بشتى الوسائل. الحوار هو نقاش بين طرفين فيه أخذ ورد، وهذا ما ثبت من خلال الآيات الكريمة. من ناحية أخرى أثبتنا أن مرحلة ظهور الكلام والذي هو مرحلة متقدمة للتعبير عن الفكرة خلال فترة نبي الله عيسى ( الجزء الأول - جسداً له حوار)، أو تسبقها بقليل، وهي فترة ظهور الفلاسفة كما سوف يأتي في (الجزء الثالث من كتاب تلك الأسباب). هذه الفترة على ما يبدو تميزت بالمتكلمين أصحاب القدرة العالية على الحوار وطرق إدارته، وذلك يتناسب تماماً وصف الحواريين مع هذه المرحلة على أنهم منسوبين لقدرتهم على الحوار، وليسوا منسوبين إلى تبييض الثياب كما ذكر السابقون.



## الفصل العاشر: إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوثَرَ

سورة من أعظم السور في كتاب الله، كنز لا يقدر بثمن، أقصر السور على الإطلاق، تلخص كل ما يمكن أن يقال في مجال التنمية البشرية، إنها سورة الكوثر وما أدراك ما الكوثر. (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوثَرَ (1) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (3)) (سورة الكوثر، آيات 1-3).

هل الكوثر نهر في الجنة خاص برسول الله ؟

مع مكانة رسول الله صلوات ربي عليه العظيمة ومنزلته الكريمة إلا أنه لا توجد آية واحدة صريحة في كتاب الله تنص على ضمان الجنة أو تبشر بالجنة لرسول الله. على العكس من ذلك فإن القرآن فيه ما ينفي فكرة ضمان الجنة لمن على قيد الحياة، ويجعلها خالصة في يد الله، لا أحد يدري على الإطلاق ما هو سائر في أمر الجنة أو النار إذ الأمر كله بيد الله. هذا ليس تقليلاً من شأن رسول الله ومكانته التي لا ينكرها أحد، وشرف مكانة الأنبياء والمرسلين، ولكنه كتاب الله الذي بين أيدينا لم يرد فيه نص صريح يبشر أحداً معيناً بالجنة وقت حياته. هناك فرق كبير بين ذكر صفات أهل الجنة أو أصحاب الجنة والتي وردت بغزارة في كتاب الله، وبين تعيين شخص محدد أنه من أهل الجنة والذي لم يرد أبداً في كتاب الله . يقول المفسرون لا ينبغي لأحد كائن من كان أن يشهد لشخص معين بالجنة أو بالنار إلا من شهد له القرآن أو رسول الله، والحقيقة أن رسول الله صلوات ربي عليه نزل عليه قرآن يعزز هذه الفرضية، وهي لا أحد يحق له أن يقول فلاناً من أهل الجنة أو فلاناً من أهل النار، لا أحد يعلم على وجه التحديد ما يصير إليه هذا الإنسان فيما يستقبل من حياته. الرسول نفسه يبلغ الرسالة التي أرسلها الله، وهي التي بين أيدينا (كتاب الله)، ولا يمكن قبول رواية شخص عن شخص عن شخص تعارض كتاب الله وخارج المنهج القرآني.

لك أن تتخيل أن آية كريمة في كتاب الله تخبر الرسول الكريم أن يقول ما أدري ما يفعل بي ولا بكم، ثم يقف رسول الله يقول فلان في الجنة؟ قد يقول أحدهم أن تخصيص رسول الله بأشخاص بعينهم أنهم من أهل الجنة هو وحي من عند الله.

هذا الفرض لا بد أن تكون له شواهد في كتاب الله، أما ولا، بل النقيض هو الواقع، فلا يمكن أن نقبل تبشير شخص معين في حياته بالجنة وهو ما زال يعمل ولم تنتهي حياته بعد، لقد حسم القرآن هذه الجدلية كما سوف نرى، وأن الكل بين يدي الله ولا يجب أن يأمن أحد مكر الله.

أما الأحاديث الكثيرة التي تقول إن رسول الله بشر فلاناً وفلاناً بالجنة، إن كان رسول الله قال هذا الكلام فيحتمل أن يكون على سبيل التمني والرجاء، ولا يمكن أن يكون على سبيل الضمان، لأن أمر الجنة والنار بيد الله وحده، وليس لنبي أو رسول أن يدخل أحد الجنة أو النار، فما الأنبياء والمرسلون إلا نذر للناس يبينوا أكثر الذي يختلف فيه الناس، ثم مرجعنا جميعاً إلى الله.

آية واضحة في كتاب الله تؤيد فكرة عدم ضمان الجنة بيد أحد حتى رسول الله، فقبل أن نتجاوز هذه الآية الكريمة في كتاب الله ونقول على الله ما لا نعلم استناداً على أقوال بشر قالوا سمعنا، يجب أن نفهم هذه الآية بشكل كامل وواضح دون أدنى تأثير عاطفي:

ما كنت بدعاً من الرسل، يقول الله سبحانه وتعالى: (قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) (سورة الأحقاف، آية 9).

الآية واضحة لدرجة أن أهل التأويل قالوا إن المقصود هو ما يدري رسول الله ما يفعل به ولا بهم يوم القيامة، ولكن بعض أهل التأويل حاول تأويل الآية بشكل يخالف معناها،

حيث لم يستسيغوا هذا القول على رسول الله. أورد بعض المفسرين تساؤلاً عجيباً، إذ كيف يتبع الناس الرسول لو أن الرسول لا يدري ما يفعل به ولا بهم؟

هذا التساؤل يحمل خلطاً واضحاً، فالرسول الكريم يعلم جيداً أن الكل سوف يصير إلى الله وعلى هذا أرسل، ولكن لا يعلم الحكم يوم القيامة، وهو عين الرسالة إذ كل يعمل على مكاتته. آيات القرآن جميعها تتحدث عن الحكم والحساب يوم القيامة، ومن ثم الجنة والنار بيد الله، لا لأحد كائن من كان أن يشرك الله في الحكم، ولا يمكن أن يكون هناك ضمان للجنة أو للنار إلا بعد الحساب ومن خلال الله نفسه سبحانه وتعالى.

الآية الكريمة متسقة تماماً مع باقي الآيات الكريمة التي تتحدث عن أن الأمر كله بيد الله، ولا يوجد تعارض أبداً إلا في عقول وأفهام بعض البشر. الفرق بين أن يعلم الرسول أن الكل صائر إلى الله وموقوفاً أمامه وبين أن يعلم رسول الله الحكم الصادر قبل يوم الحساب هو فرق جد خطير. الحالة الأولى هي عين الإيمان بالله، أما الحالة الثانية تدخل في حكم الله، والله يقول لا يشرك في حكمه أحداً، تنزه ربنا عن ذلك وتنزه رسولنا الكريم أن يقول بغير ما أنزل الله.

(قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا) (سورة الكهف، آية 26).

في نفس السياق، يقول الله سبحانه وتعالى إنه لا يطلع على غيبه أحداً، ثم استثنى إلا من ارتضى من رسول، فإن قال أحد أن الله استثنى هنا الرسول، فيجوز أنه خصه بعلم الغيب وعلم من في الجنة ومن في النار، فنقول إن لفظ رسول تلزمه الرسالة، وهذا الغيب الذي يطلع الله عليه الرسول لا بد أن يكون من ضمن ما أنزل الله، ومن ضمن حدود الرسالة، وهي القرآن الكريم المفصل والتبيان لكل أمر. لم يدع القرآن المجال مفتوحاً لكل مدعي أن يقول ما يشاء بدون دليل وكأنها الأمانى. من يقول أن الرسول اطلع على غيب غير ما في القرآن لا بد أن



يأتي بدليل من كتاب الله الذي فصل كل شيء وبين كل شيء، لا يحق لإنسان يؤمن بالله أن يقول على الله ما لا يعلم، فضلاً عن أن يقول ما يعارض كتاب الله صراحة.

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (26) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (27)) (سورة الجن، الآيات 26-27).

هذه الآية الكريمة توضح أن كل الأمور الغيبية المذكورة في القرآن هي من الأمور التي ارتضى الله أن يطلع عليها رسله، لا يمكن أن تفهم هذه الآية إلا من خلال الآية التالية التي ينفي فيها رسول الله علم الغيب ويقرر أنه فقط نذير وبشير.

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (سورة الأعراف، آية 188).

الأمور الغيبية التي أطلع الله عليها رسله سوف نجد لها صدى في كتاب الله، وغالباً ما كانت تختم هذه الآيات بقول الله سبحانه وتعالى (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك). لقد حاول بعض الشراح الهروب للأمام بالقول أن آية ما كنت بدعا من الرسل منسوخة بالآية الثانية في سورة الفتح.

(لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيَتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا) (سورة الفتح، آية 2).

يقول المفسرون: بعدما نزلت آية ما كنت بدعاً من الرسل أنزل الله ليغفر لك الله ليبين لرسوله ماذا يفعل به. بغض النظر عن مسألة النسخ والمنسوخ وبطلان القول تماماً بأن آية في كتاب الله تبطل عمل آية أخرى؛ فهذا قول عظيم، لا يجوز على كلمات الله، كيف لكتاب محكم أن تكون فيه آيات تبطل عمل آيات أخرى دون ذكر ذلك صراحة، ويترك الأمر هكذا لكي من استعصى عليه فهم آية قال بنسخها، بالطبع موضوع النسخ موضوع طويل ومعقد ويحتاج لكتاب كامل، وخصوصاً أن الآيات التي قال بها البعض أنها منسوخة، قال آخرون

أنها ليست كذلك، ولا يوجد إجماع على آية أنها منسوخة بمعنى بطلان حكمها. سوف نتعرض لموضوع النسخ في الجزء الثالث من الكتاب بشيء من التفصيل.

هذه الآية التي بين أيدينا لا تعني غفران الذنب المستقبلي، ولكن تعني غفران ذنوب ماضية حدثت بالفعل؛ سوف نوضح ذلك، ولكن بعد استعراض ما جاء في تفسير القرطبي. (واختلف أهل التأويل في معنى ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقيل: ما تقدم من ذنبك قبل الرسالة، وما تأخر بعدها، قاله مجاهد ونحوه قال الطبري وسفيان الثوري، قال الطبري: هو راجع إلى قوله تعالى: إذا جاء نصر الله والفتح، إلى قوله تواباً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك، قبل الرسالة وما تأخر إلى وقت نزول هذه الآية) انتهى التفسير.

لو أن المقصود بهذه الآية الذنوب المستقبلية لكان التعبير بلفظ ما سيتقدم من ذنبك وليس ما تقدم، فهذه الآية لا نسخ فيها، وليس فيها ضمان بالجنة، ولكنها إكرام لرسول الله ومكانته العظيمة. إن كان أهل التفسير قالوا عن ما تقدم من ذنبك وما تأخر تعني ما تقدم من ذنبك قبل البعثة وما تأخر هو الذنوب حتى نزول الآية، إلا أن لي وجهة نظر حول هذه الآية الكريمة، الذنوب التي يقترفها الإنسان مختلفة ومتنوعة، فمنها ما يعلم ومنها ما لا يعلم، ومنها ما يدرك ومنها ما لا يدرك، فما يعلم ويدرك الإنسان من هذه الذنوب ثم يتبعها بالاستغفار والتوبة، تتأخر هذه الذنوب ولا تترك تأثيرها على حياة الإنسان، خصوصاً على قلبه. أما الذنوب التي ندركها ونعلمها، أو حتى ندركها ونعلمها ولا يتبعها الاستغفار هي الذنوب التي تتقدم ويصبح لها تأثير.

الذنوب التي لا نعلم ربما والتي تحوها الحسنات هي ما سوف تتأخر، وكأنها ذنوب غير نشطة، أما الذنوب التي تتقدم هي الذنوب التي لم يلحقها الاستغفار. كلا النوعان من الذنوب تحتاج لمغفرة الله سبحانه وتعالى حتى لا تؤثر على حياة الإنسان في الدنيا أو في الآخرة.

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي

لِلذَّاكِرِينَ) (سورة هود، آية 114).

الحسنات يذهبن السيئات في الدنيا فلا تترك أثرها على قلبه وعلى حياته، أما في الآخرة فإن الله يغفر ما يشاء.

(وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ) (سورة الرعد، آية 22).

(أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرُؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) (سورة القصص، آية 54).

معنى تقدموا واضح في الآية التالية في سورة البقرة، (أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (سورة البقرة، آية 110).

تقدموا تدل على ما تفعلوا لا على ما سوف تفعلوا، من خلال التفاسير ومن خلال مدلول الكلمة نجد أن التعبير القرآني ليغفر لك الله ما تقدم لا تعني أبداً ما سوف تفعل أو ما هو قادم في حياتك وإنما أشياء فعلت ومضت. هذا المدلول القرآني يتماشى تماماً مع المنهج القرآني القائل بعدم ضمان أمر الجنة لإنسان طالما لم تنتهي حياته ولم تُختم أعماله.

الآية الكريمة الآتية والتي يعتقد البعض أنها تحمل ضمان بالجنة لأشخاص بعينهم هي ليست كذلك، وإنما عن حالات إذا انطبقت على بشر فهم من أهل الجنة، وهذا التطابق لا يعلم طبيعته وحقيقته سوى الله سبحانه وتعالى. حال الذين أنعم الله عليهم مشروط بطاعة الله والرسول، ولا تحمل أي ضمان لشخص بعينه لدخول الجنة.

(وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) (سورة النساء، آية 69).

طاعة الرسول متعلقة باتباع الرسالة والتي حددها ربنا عندما قال يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك.

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) (سورة المائدة، آية 67).

التوجيه الرباني شديد الوضوح في ربط وظيفة الرسول بتبليغ ما أنزل إليه من ربه، والتحذير الرباني قائم لكل رسول إذا لم يفعله فإنه لم يبلغ رسالة ربه. ونشهد شهادة حق ويقين أن رسول الله أدى وبلغ ما أنزل إليه من ربه. التحذير في الآية الكريمة إرشاد رباني كما طاعة الرسول توجيه رباني، ولكن هذا التوجيه وهذا الإرشاد بعيد عن ضمان الجنة، إذ الحكم لله فقط ولا يجوز القفز على هذا الحكم.

قد ينزع البعض ويفهم ما لم نقصده بأننا نحاول القول إن رسول الله ليس في الجنة أو أننا نشكك في منزلة وفضل رسول الله التي لا ينكرها إلا جاهل. كل ما نود قوله إن الحكم في الآخرة لله وحده كما قال ربنا، وإن أي بشر مهما علت منزلته، حتى وإن كان رسول من الله، فهو واقع تحت هذا الحكم، ولا يمكن أن يكون شريكاً لله. والآية (وَمَا أَدْرِي مَا يُفَعَلُ بِي) التي قننا بتحليلها والوقوف عليها كانت دليلاً معتبراً على ما ذهبنا إليه.

اعتقادنا أن أنبياء الله ورسله هم هداة البشرية ومصايحها، وهم أهل الجنة. إنه الفرق بين الاعتقاد والإيمان من جهة وبين التحليل والقراءة من جهة أخرى. لو سألتني هل رسل الله في الجنة؟ سأقول لا شك أن رسل الله في الجنة، ولكن لو سألتني هل فلان رسول الله في الجنة؟ ستكون الإجابة منقسمة إلى جزئين: بالطبع إيماني واعتقادي أنه في الجنة، ولكن لا أستطيع أن أصدر الحكم إذا لم يصدره الله صراحة من باب قول ما ليس لي. فروق طفيفة للغاية يجب أن تفهم في إطار علمي بحثي الهدف الرئيس منها تخلص المفهوم الإلهي من أي أقوال شركية نقولها بحسن نية دون الالتفات إلى خطورتها إذ نجعل من الرسول أو النبي شريكاً لله في الحكم وهو في الحقيقة واقع تحت حكم الله بنص كتاب الله ولا يدري الرسول نفسه ما يفعل به ولا بالآخرين.

لكن قطعاً هو يعرف أن الأمر بيد الله، وأن الحكم لله، وأنه لا شفاعة لأحد إلا بإذن الله. هذه الأمور علمها عند الله، ولم يأتِ التصريح بشيء منها في القرآن، لذلك نقف على كتاب الله، ولا نتعداه خوفاً ورجاءً ومعرفة بقدر الله.

### الكوثر

إذا كان الكوثر ليس نهراً في الجنة فماذا يكون الكوثر؟

لاحظت أن كثير ممن قالوا أن الكوثر نهر في الجنة وصفوا هذا النهر، وكأنهم شاهدون عليه، رغم أن القرآن الكريم لم يصرح بشيء كهذا. من المفترض أن أي حديث عن أمر ما في الدنيا أن يكون متبوعاً بالدليل، فما بالكم بالحديث عن أمور غيبية لا يعلمها إلا الله. لكي نقبل حديثاً عن أمور غيبية لا بد أن يكون عالم الغيب هو من أشار إليه بدليل واضح وصریح. بعض التفاسير قالت أن الكوثر هو الخير الكثير، وهذا التأويل من وجهة نظري هو أقرب التفاسير إلى أصل الكوثر كما سوف نرى.

أصل كلمة الكوثر في اللغة هو كَثُرَ، وتعني الوفرة أو الزيادة، وكلمة أعطيناك فهو خطاب من الله عز وجل للإنسان بصفة عام، إذ لا يوجد تخصيص يدل على إن هذا الخطاب لرسول الله أو حتى للمؤمنين، مثال ذلك كلمة اقرأ هي أمر عام للإنسان، والأمثلة كثيرة من الآيات في كتاب الله التي ورد فيها اللفظ متصل بكاف المخاطب.

(أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ) (6) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (8)) (سورة الانفطار، الآيات 6-8).

كذلك الخطاب بلفظ أدراك موجه للإنسان بصفة عامة. (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ) (سورة الحاقة، آية 3).

إذا لم يكن الخطاب مخصصاً فيجب حمله على العموم، وخصوصاً إذا كان سياق الآيات يدل على ذلك، والسورة توجيه عام لم ينته بوفاة الرسول الكريم، ولكنها عاملة إلى يوم الدين.

الخطاب هنا موجه لكل إنسان، بما في ذلك رسول الله في حياته صلوات ربي عليه. هذا الخطاب يعني أن كل إنسان أُعطي كَوْثراً أي وفرة وزيادة ما.

الناس في الحالة العادية وبصفة عامة متوسطون، أي يتمحور الإنسان حول معدل متوسط في جميع مناحي حياته، لكن كل إنسان يملك زيادة أو وفرة في شيء ما عن الآخرين، وهو ما يسمى بالموهبة أو التفرد في عمل ما بشكل متميز.

الكوثر عطية الله وهبته لكل إنسان، بحيث يصبح متميزاً في أمر ما عن الآخرين. الله سبحانه وتعالى يخاطب الإنسان، أي إنسان بقوله إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ. إنها كلمات الله موجهة إليك أنت بالتحديد، كل من يقرأ هذه الآيات هو يقرأ كلمات الله إليه، فاستمع لربك وهو يقول لك إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ؛ لقد حباك الله بكثرة في شيء ما زيادة عن الآخرين، فكيف نستغل هذه الميزة وهذه الزيادة التي وهبها الله لكل واحد منا. الإجابة جاءت سريعاً ومن خلال الآية التالية:

الآية الثانية: ( فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ )

تحورت التفاسير حول هذه الآية على أن المقصود بالآية أقم الصلاة والذبح يوم الحج. ليكون معلوماً أن الصلاة الشعائرية جاءت في كتاب الله متبوعة بلفظ أقم، لتدل على إقامة الصلاة، أما الألفاظ التي لم تأت مسبوقة بفعل أقم فلها تأويل آخر، تعني المداومة والتواصل، وهذا ما يحتاج لفصل كامل لبيان أفعال صلى بدون فعل أقم، بشكل بسيط ومختصر.

فعل صلى ومن خلال مدلول الكلمة في كتاب الله نجد أنها تعني المداومة على شيء ما، من ذلك معنى يصلى النار أي يدوم عليها. ولتمام المعنى لا بد أن نفهم مدلول النحر، وماذا يعني. النحر في اللغة هي نحر الإنسان، وأصل الكلمة كما جاء في قاموس اللغة النون والحاء والراء، تعني البزل (بحرف الزاي) (الشدة والقوة)، وجاء في قاموس اللغة معنى ينحر العلم نحرًا تعني قتلت هذا الشيء علمًا. من هنا نجد لفظ أنحر هو الأقرب لمعنى أبذل قصارى جهدك.

فيكون تأويل الآية الكريمة (فصل لربك وانحر) داوم على هذا الشيء الذي أعطاك الله، وابدل قصارى جهدك.

إنه توجيه إلهي، ما أحكمه حين يقول للإنسان أنه يملك كنزاً خاصاً به، من أجل استخراج هذا الكنز السمين لا بد من مداومة العمل وبذل أقصى ما يمكن من جهده. النحر هنا لا يعني الذبح، وخصوصاً أن لفظ الذبح قد ذكر في كتاب الله صراحة:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلِيَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فَسُقُ الْيَوْمَ يَأْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (سورة المائدة، آية 3).

الآية الثالثة: (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)، جاء في تفسير الطبري ما يلي: «وقوله (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)، يعني بقوله جل ثناؤه: (إِنَّ شَانِئَكَ) إن مبغضك يا محمد وعدوك (هُوَ الْأَبْتَرُ)، يعني بالأبتر الأقل والأذل المنقطع دابره، الذي لا عقب له). انتهى التفسير.

أصل كلمة شانتك هو شين، وهو خلاف الزينة، يشين الشيء يعني أظهر عيوبه ليبدو منفراً وغير مقبول، وكلمة يشين تحمل في طياتها بغضاً وكرهاً. فالشين هنا هو نوع من التركيز على العيوب والنواقص لغرض غير طيب.

الأبتر أصلها بتر، وتعني فصل شيء عن شيء، أو قطع أو عزل شيء عن شيء. الآية الكريمة تحمل توجيهاً وتحذيراً، أما التوجيه فهناك أشخاص يتفرغون لانتقاص أصحاب الميزات وإظهار نواقصهم وعيوبهم. هذا الانتقاص مغلف بالكره في محاولة لإظهار العيوب والتركيز عليها، فلا تبتئس بما يصنعون، فمن يفعل ذلك هو في الحقيقة أبتر، أي معزول ومنفصل عن الموهبة والخير الكثير الذي وهبه الله إياه، نسي وترك ما وهبه الله وشغله شأن الناس عن

شأنه. هذه الظاهرة يستطيع الإنسان إدراكها بكل سهولة حيث لا يفهم ولا يستطيع استيعاب قدرة شخص على التفرد والتميز إلا من هو بالفعل متميز ومتفرد في شيء ما، وأغلب من ينتقصون أصحاب المواهب والميزات هم في الحقيقة غير قادرين على فهم واستيعاب القدرات المتميزة للآخرين.

الإنسان غالباً ما يقيس الأمور على مقياسه الشخصي، فإذا كان متواضع القدرات في أمر ما، فهو يتوقع من الآخرين نفس التواضع في القدرات، خصوصاً إذا كانوا كلهم مشتغلين ومتخصصين في نفس المجال. هذا الانتقاص ومحاولة التقليل من شأن أصحاب المواهب لا يخرج إلا من معدومي الكفاءة والموهبة، أو بالأحرى الذين لم يستطيعوا إيجاد ميزتهم ولم يعملوا بجد عليها حتى تؤتي ثمارها.

هذه السورة العظيمة تثير في الإنسان الطموح وتوقد الأمل حتى يدرك الإنسان أنه متميز في شيء عن الآخرين. مهما استصغر الإنسان نفسه، ومهما أحاط به مجتمع أبتز فإن الله يوحى إليه من خلال هذا الكتاب العظيم أنه متميز وليس مجرد رقم.

إنه وعد الله للإنسان، ومن أصدق من الله وعداً، فهل تؤمن حقاً أننا نمتلك شيئاً ثميناً لا يملكه غيرنا. التطبيق العملي للإيمان بهذه السورة العظيمة هو تشمير السواعد والبحث داخل نفوسنا عن هذا الكوثر. قد يكون مخبئاً لا يكاد يبين، قد تكون هناك عوامل كثيرة أطفأت وردمت هذا الكوثر داخلنا، قد يكون مدرساً، أو صديقاً، أو قريباً أو حتى ظرفاً لا دخل لنا فيه قد هدم وكسر هذا الكوثر، واعتقدنا أننا لا نملك أي ميزة.

ها هي قراءة القرآن تعيدنا مرة أخرى لنقطة البداية وتنفخ الروح فينا مرة أخرى فهل نمتثل لأمر الله سبحانه وتعالى إذ يقول

(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (سورة الأعراف، آية 204).

لا بد أن نفهم أمره ومراده قدر طاقتنا، ونتيقن أنه بدون المداومة وبذل أقصى الجهد، لا يمكن أن نصل إلى هذه الميزة التي ميزنا الله بها وتلك الموهبة الفريدة التي منحنا إياها.



التوجيه الرباني الذي يدفعنا دفعا للبحث داخل نفوسنا والتوقف فوراً عن التنظير على الآخرين والإيمان أن لكل منا قدرات خاصة.

إن محاولة تتبع نواقص الغير أو محاولة إثبات أن الآخرين غير متميزين هي محاولة لها رد فعل سلبي على النفس، فسوف تشغلنا هذه المحاولات عن سبر أغوار نفوسنا، واكتشاف مكنونها والوصول إلى الكنز المخبيء داخلها.

لا يجب أبداً أن نعطي الفرصة لذلك الأثر ينفث سمه في نفوسنا فتظلم النفوس ويصبح كوثرنا غوراً فلن نستطيع له طلباً. الاتصال السليم بالخالق مع بذل قصارى الجهد هو الطريق الوحيد للوصول لهذا الكوثر، ومن ثم ازدهاره، ثم يؤتي أكله بإذن ربه. القيام بأي عمل بصورة أقل من الممكن لديك هو في الحقيقة إهدار لقيمة الهبة أو الكوثر التي منحك الله إياها.

## الفصل الحادي عشر: أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ

كيف يمكن للمعارف البدائية أن تؤثر سلباً على فهم كتاب الله وكيف يمكن للنظرة الذكورية أن تنحرف بتأويل آيات قرآنية لصالح طرف معين دون إدراك حقيقي لهذا الانحراف؟ إنها قصة زواج رسول الله من زينب بنت جحش التي لم تستطع العقول فهمها من خلال كلمات وألفاظ القرآن الكريم. فصالت وجالت خلال سيرة رسول الله بتفسيرات ورؤى لا يقبلها عقل أو منطق على شخص عادي فما بالكم برسول الله.

رجل ذو وجاهة ومكانة اجتماعية، وينتمي لعائلة ذات مكانة مرموقة، ولديه خادم أحسن إليه وعامله معاملة حسنة لدرجة أنه اعتبره ابناً له. ذات يوم جاء هذا الشاب يريد الزواج من إحدى قريبات الرجل الذي رباه، فرفضت أسرة الفتاة رفضاً قاطعاً، متعلقة بالفارق الاجتماعي الكبير، وأن هذا الأمر قد يسبب لهم حرجاً بالغاً، وكذلك رفضت الفتاة إذ رأت أنه لا يكافئها؛ لا شك أن الفتاة وأهلها واقعون تحت ضغط مجتمعي رهيب يرفض هذا النوع من الزواج، وإن كانوا يتعاملون مع الخادم على أنه ابن لهذا الرجل الكريم إلا أن الحقيقة التي يعرفها الجميع أنه ليس ابنه، بل خادمه، فالتعامل برفق وكرم أخلاق شيء والزواج شيء آخر.

ما كان من هذا الرجل الكريم إلا أن أخذ على عاتقه مسألة إقناع الفتاة وأهلها ليقبلوا زواج الفتاة من خادمه الذي يعده ابنه، لا سيما أن الرجل يحمل أفكاراً ثورية عن المساواة والعدالة وإزالة الفروق بين البشر. بعد شد وجذب وافقت الفتاة وأهلها على مضمض إرضاء للرجل الكريم وطاعة لأمره.

ما هي إلا شهور قليلة وبدأت تدب الخلافات بين الزوجين، وبدأ الزوج يسئ معاملة الزوجة بشكل واضح وجلي، ماذا يكون شعور الرجل الكريم الذي تدخل لإتمام هذا الزواج

وهو يرى إحدى قريباته ومن امتثلوا أمره وهي تعاني من هذا الزواج؟ في المقابل الزوج لا يكثر بذلك، بل ويريد أن يفارقها.

لا شك أنه سوف يوجه اللوم لنفسه، وهو على ذلك بين أمرين أحلاهما مر. الأمر الأول أن يطلب من خادمه مفارقتها، وهو الصواب، لما يرى من استحالة الحياة بينهما، ولكنه يخشى حديث الناس ووقوع اللائمة عليه، أو أنه ينصح الخادم باستمرار الحياة وأن يحسن المعاملة، مع ما يعلمه من المعاناة التي تسبب فيها هذا الزواج للفتاة وصعوبة العيش بهذه الطريقة. إنه الضغط المجتمعي مرة أخرى، والذي يدفع هذا الرجل لقبول الأمر الواقع مع أن الصواب هو إنهاء هذه المعاناة بالطلاق.

يحاول الرجل الكريم جاهداً تجنب الطلاق، لما سوف يسببه هذا الطلاق من ألم نفسي لا يُحتمل للفتاة أولاً، إذ كيف تقبل الزواج بهذه الطريقة وتقدم من وجهة نظرها تنازلات ثم يتم تطليقها من هذا الفتى، والذي ما قبلته إلا من أجل تدخل الرجل الكريم وهو في الأساس أحد أقربائها. كل المحاولات في إخفاء الطلاق بائت بالفشل وحدث الطلاق. الآن توجد فتاة خارجة للتو من تجربة مريرة، كان الرجل الكريم وهو أحد أقربائها سبباً مباشراً فيها، وهي الآن تعاني نظرات مجتمع قاسية. نسوة المدينة قالوا امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه، فماذا ستقول النسوة عنها إذ أنها تنازلت وتزوجت من فتى كان خادماً لدى قريبها هذا، والفتى لم يحسن معاملتها بل طلقها.

هذا السرد البسيط فقط لكي نستطيع فهم ملابسات الواقعة وظروف الموقف بشكل بسيط دون الدخول في تعقيدات الماضي ومقاييسه. زواج رسول الله صلوات ربي عليه من السيدة زينب ابنة عمته والتي كانت زوجة زيد بن حارثة من أكثر المواضيع حساسية، وأكثرها إساءة لرسول الله، وفيها من القول على رسول الله وعلى الله ما يندى له الجبين.

ادعاء أن المعاصرين أو الأقرب لعهد رسول الله هم أكثر فهماً لهذه القصة هو ادعاء باطل وخاطئ. القصة مليئة بالتفاعلات النفسية التي أخبر عنها القرآن، ما كان لأحد أن يطلع

عليها، ولا لأحد علم بها. القرآن الكريم أشار إليها من خلال نظم الكلمات القرآنية البديع، ليعطي صورة واضحة لما يمكن أن تكون عليه القصة، بعيداً عن الخيالات والتصورات الساذجة.

مثال صارخ على هذا التأويل المختلط بالمعارف الشخصية والقياس المجتمعي الذي لم يأخذ في الاعتبار تفرد الرسول وأخلاقه الرفيعة التي أهلتها لتلقي الرسالة وأدائها بكل صدق وأمانته في التبليغ. لقد تمادى بعضهم بأن ادعى وقال على الله ما لم يقوله ربنا، بحجة تأويل النص، وكأن الله هو شيخ قبيلة من قبائلهم يسارع في تنفيذ رغبات نبيه على حساب الجميع. إنه قول لو يعلمون عظيم، وتعاطي ساذج مع نصوص إلهية محكمة وبلغمة، وتفتيش في نوايا وخفايا النفس بطريقة ما أنزل الله بها من سلطان.

لقد خلف هذا التهاون كوارث لا حصر لها على هذه الأمة، فبرغم أن القرآن الكريم تبيان وتفصيل لكل شيء، إلا أن التفسيرات هي التي حلت محلها وأصبحت تعمل عمله. ما ذلك إلا بسبب خوف الناس من التعاطي مع كتاب الله، أو حتى محاولة فهم فكرة ما، والبوح بها بعيداً عن الإجماع. هذا التمسك العجيب بروايات بشرية بحجة تجليل رسول الله، وأصحاب رسول الله، هو ما أساء حقاً لرسول الله وأصحابه. وسنرى ذلك واضحاً في الآية التي تصف مشهد طلاق زيد ابن حارثة لزَيْنَب بنت جحش، ثم زواج رسول الله منها:

(وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا) (سورة الأحزاب، آية 37).

ماذا أنتظر من شخص تربى وتعلم على قيم إنسانية عليا بعيداً عن الظن والهوى، ثم يقول له أحدهم في تفسير هذه الآية الكريمة ما معناه أن رسول الله رغب في زواج زينب وهي

متزوجة ممن في حكم ابنه، أو أن الله أبلغه أنه سوف يتزوج من زينب، وهي بالفعل متزوجة من شخص تربى في حجر النبي وأنعم النبي عليه لدرجة أنه اتخذها ابناً له؟

قد يقول أحد الذين يشركون كلام الله بكلام البشر هل أنت تنكر القرآن؟ أرد بكل ثقة وأقول أرفض الفهم المنحرف للقرآن ورؤية البعض الضيقة عن كلام الله، وطالما أن هناك مكاناً لفهم أكثر اعتدالاً وسليماً ومتسقاً مع كتاب الله، فلا يعنيني من قال وما يقول ولما قال.

دارت أقوال المفسرين حول الآية الكريمة، حول معرفة ما دار في نفس رسول الله، وكأن المتأول علم دواخل نفس الرسول الكريم ومكنونها، وحجتهم في ذلك أن الآيات توضح ذلك. زعموا أن حب زينب وقع في قلب رسول الله فأحبها وكرم ذلك حتى أظهره الله وتم طلاق زينب وتزوجها رسول الله بأمر من الله مباشر.

الحقيقة ما قاله المفسرون بعيد كل البعد عن كتاب الله، وعن أبعاد القصة، وعن شخصية الرسول العظيم الذي أعطى القرآن ملامح غاية في الدقة عنها، ولا يمكن وضع تلك الأقوال المشوهة على رسول الله إلا في خانة وجهة النظر الشخصية للمفسر، والتي تعكس تفاعله هو وشخصيته وثقافته مجتمعه. حتى من قرأوا تلك التفسيرات وحاولوا الدفاع عن رسول الله بالقول هو بشر، وهذه الأمور جائزة في حق البشر ودليل صدق القرآن أنه لم يخفي تلك الأمور، نعم هو بشر متصف بالصدق والأمانة والخلق العظيم، وهذا الفعل لا يستقيم مع شخص عادي فكيف يستقيم مع شخص بهذه المواصفات.

في محاولة لفهم هذه الإشكالية يقول بعضهم إن الله أخبره بأنه سوف يتزوج زينب، ولذلك هو أخفى هذا الخبر. ما هذا؟ من قال إن الله أخبر نبيه أنه سوف يتزوج زينب وهي ما تزال زوجة رجل آخر؟ من الذي يستطيع قول شيء لم يقله الله ولم ينزله في كتابه؟ ما هذه الاستهانة، والقول على الله بما لا يعلمون؟ كيف يقول الله هذا القول وهو القائل في كتابه

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ) (سورة طه، آية 131).

كتاب الله وكلام الله وآيات الله ليس فيها تناقض، وإنما يأتي التناقض من الفهم البشري وقدرته على الاستيعاب. مع اختلاف في حول تفسير آية (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ)، حيث يقول المفسرون أن المقصود بها رسول الله، ووجهة نظري أن المقصود بها كل إنسان ومن ضمنهم رسول الله، أي أنها ليست مخصصة لرسول الله، ومع ذلك لا بأس من الاستشهاد بأقوال المفسرين حول هذه الآية الكريمة لفهم هذا التوجيه الرباني الكريم.

أهل التفسير فسروا هذه الآية على أن النهي لرسول الله، لا يمد عينيه لرزق أحد. ويقول السعدي في تفسيره (أي: لا تمد عينيك معجباً، ولا تكرر النظر مستحسناً إلى أحوال الدنيا والملتصين بها، من المآكل والمشارب اللذيذة، والملابس الفاخرة، والبيوت المزخرفة، والنساء الجملة، فإن ذلك كله زهرة الحياة الدنيا).

هذا هو كلام الله وتوجيه الله، فكيف يقول قائل إن الله قال لنبيه أنه سوف يتزوج زوجة رجل آخر وهي ما تزال زوجته. أو أن الله أوقع بغض زينب في قلب زيد لما علم من رغبة رسول الله فيها؛ تعالى ربنا عما يقول هؤلاء علواً كبيراً.

عندما يقول أحد المستشرقين إن هذا سلوكاً منحرفاً، ولا ينسجم مع الصفات التي تصفون بها رسول الله بماذا تردون عليه؟ عندما يقول أحدهم أن الأمر يشبه المؤامرة على رجل متزوج وزوجته، لماذا يتصايحون؟

لقد أساء الناقلون بدون وعي لرسول الله قبل أن يسئ إليه الآخرون، وتورطوا في تأويل متسرع سئ الظن مع وجود الظن الحسن، بل الأدلة القوية على أن الأمور ما سارت هكذا. هذه الآية الكريمة تجسد معركة بين الأفكار الموروثة السائدة وقتها، وبين الأفكار الثورية التي يحملها الإسلام، والتي لم يعهد لها العرب بل والإنسانية من قبل؛ أو قل إن شئت معركة نفسية حامية الوطيس بين العادة والعبادة.

لقد كان دور رسول الله محمداً، وهو هدم الموروث الجاهلي وإقامة الحق، وكسر العادة لصالح العبادة. مع مكانة رسول الله العظيمة إلا أن آثار هذه المعركة بدت واضحة من خلال الآية الكريمة، عندما عاتبه ربه بقوله (وَتَخَشَى النَّاسَ) الموروث القبلي والعرف الاجتماعي، (وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ) الأحق هو اتباع الحق، ولو كره الكارهون ولو كان على غير هوى المجتمع. الرسول لم يأت ليوافق هوى الناس، وإنما جاء برسالة تضبط وتقن وتعدل سلوك الناس.

هناك جانب من شخصية رسول الله أخبرنا عنه القرآن الكريم من خلال سلوكه وتصرفه في بعض المواقف، حيث يظهر الجانب البشري من خلال مراعاة الناس وردود أفعالهم، وما ذلك إلا انعكاس مباشر لأخلاقه المتمثلة في الحياء، والرفق واللين، والحرص على الهداية، ورغبة صادقة لتقويم الاعوجاج. هذا اللين وهذا الرفق لم يكن مطلوباً في بعض المواقف، لذلك نجد أن ربه عاتبه في أكثر من موضع على هذا التصرف وهذا السلوك.

المشهد الأول: الذي يدلنا كيف أن صدق رسول الله وحرصه على نشر وقوة الدعوة جعلته يعبس في وجه الرجل الذي جاءه وهو يحدث سادة قريش، فأنزل الله قرآناً يتلى يعاتب فيه رسوله، ويوجهه إلى أن مقام الرسالة لا يلزمه بطلب هداية أقوام بعينهم، وإنما عليه أن يبلغ ويذكر فقط دون أي اعتبار لأوزان الناس.

عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (2) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يُزَكَّى (3) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ  
الذِّكْرَى (4) أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى (5) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (6) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكَّى (7) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ  
يَسْعَى (8) وَهُوَ يَخْشَى (9) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (10) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (11) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (12) ((سورة  
عبس، الآيات 1-12)).

المشهد الثاني: وهو في سورة الإسراء، عندما طلب المشركون من رسول الله التنازل قليلاً وحرصاً منه كاد أن يفعل، فجاء القرآن لينبه رسوله أن هذا ليس له وأن عليه الذكرى فقط.

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا (73)  
وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدَّتْ تَرَكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (74)) (سورة الإسراء، آيات 73-74).

هذا الحرص الشديد من رسول الله هو ما يدفعه حتى إلى إيذاء نفسه، كما في سورة الشعراء وسورة يس عندما قال له ربه لعلك باخع نفسك، أي مهلك نفسك من أجل أن يؤمن الناس.

(لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) (سورة الشعراء، آية 3).

(فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا) (سورة الكهف، آية 6).

الآية الكريمة التي نتحدث عن زيد وزواجه، وعتاب رسول الله هي أيضاً من هذا النوع من العتاب، حيث خشي الرسول ردة فعل الناس في موقف ما كان له أن يحسب فيه للناس حساب.

رسول الله ليس بدعاً من الرسل، وإنما بشري يعتريه ما يعتري البشر، وها هو رسول الله موسى يكلمه الله ويقول له اذهب إلى فرعون إنه طغى، فكان جواب نبي الله إني أخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى. كيف لرسول الله أن يخاف والله هو الذي يكلمه؟ إنه الجانب البشري الذي لا يمكن تجاوزه.

(اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (42) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43)

فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44) قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى

(45) قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (46)) (سورة طه، آيات 42-46).

هذه الشخصية الكريمة الحريصة على هداية الناس وردهم الجميل، وهذا الرفق واللين

لدرجة تصل إلى حد إيذاء نفسه، هل يمكن أن يتسبب في الأذى النفسي لمن اتخذه ابناً،

وهل يمكن أن يثير لغطاً في المجتمع الجديد بهكذا قصة نسجها حوله المفسرون؟



تعالوا إلى فهم الآية من خلال كتاب الله، وقبل أن نشرع في فهم الآية، يجب أن نلقي نظرة سريعة على المجتمع والعصر الذي حدثت فيه الحادثة حتى نفهم التداخلات النفسية والضغوط المجتمعية التي عاشها رسول الله، ونزل القرآن ليخلص البشرية منها.

الطرف الأول في القصة هو زيد بن حارثة بن شرحبيل، من قبيلة بني قضاة، وقع في الأسر وهو في الثامنة من عمره، واشتراه حكيم بن حزام لخديجة بنت خويلد رضي الله عنها، التي أهدته لرسول الله صلوات ربي عليه. زيد في عرف المجتمع وقتها كان مملوكاً لرسول الله، فأكرمه رسول الله وأعتقه، ثم اتخذ ابناً له، حتى كان يقال زيد ابن محمد. مع كل هذه المكارم التي وهبها رسول الله لزيد بن حارثة إلا أن ذلك لم يغير من الواقع المجتمعي الشيء الكثير، نعم زيد نال مكانة ومنزلة رفيعة بتكريم رسول الله له، ولكن عندما يتعلق الأمر بالزواج فإن الموروث القبلي والواقع المجتمعي هو من سوف يتكلم. أنا مستعد لقبول كل التغيرات الاجتماعية النبيلة كفكرة، ولكن تطبيق هذه الفكرة على واقعي هو أمر فيه نظر.

الطرف الثاني زينب بنت جحش القرشية، ابنة عمه رسول الله، أمها أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم، من أشرف قريش، رغب زيد في الزواج من زينب بنت جحش على غير المعتاد في هذا المجتمع القبلي المفاخر بأصوله وتاريخه وعراقة أفراده إلى أقصى درجة ممكنة، حتى أن أشعارهم وخطبهم تفيض بالفخر وتعظيم شأن القبيلة، ورفع ذكر النسب عالياً، وتعتبره شرفاً لا يضاهيه شرف. نعم جاء الإسلام ليهدم كل مجد جاهلي وكل نخر مزور، ولكن الأمر ليس بهذه السهولة كما ذكرنا، قبول الفكرة سهل، لكن التطبيق العملي من أصعب ما يكون.

هل تدري ماذا يعني كسر العادة المتأصلة في القبيلة بهذه الحدة، وهذا العنف وهذه السرعة؟ وما هو الاستعداد النفسي المطلوب لقبول المبدأ الجديد، والتعايش معه في مجتمع لا يملك شيئاً يفخر به سوى النسب والقبيلة؟

هذا بالفعل ما حدث مع زينب بنت جحش، عندما أراد رسول الله أن يخاطبها لزيد؛ تخبرنا الروايات أن زينب رفضت في البداية بسبب الفروق الاجتماعية الواضحة، الرفض مبرر جداً، ولا أحد يستطيع لوم زينب، فما الذي يدفعها للزواج من خادم رسول الله حتى وإن اتخذته الرسول ابناً له. إن كان هذا التبني تكريماً له، لكن لا يلغي الحقيقة التي يعرفها الناس من أنه مولى رسول الله.

موقف رسول الله كما تبين الروايات أنه حاول إقناع زينب ابنة عمته بالزواج من زيد، وهذا أيضاً إكراماً لزيد، ومن النعم التي أنعم بها الرسول على زيد. بالنهاية ترسخ زينب من أجل وساطة رسول الله، وتقبل بالزواج. يبدو من الآية الكريمة أن الزواج لم يكن زواجاً سعيداً أبداً.

في بداية الآية الكريمة يخبرنا ربنا أنه أنعم على زيد، وهذه النعم يعلمها الله فلم يخبرنا بها ربنا صراحة، فلعلها الهداية كما قال التفسير، ولعلها خبيثة خبأها الله له، أما ما أنعم به رسول الله على زيد فقد ذكرنا ما وصلنا منه، وهو العتق والتربية واتخاذه ابناً، وتزويجه من ابنة عمته عن طريق التدخل المباشر، محاولاً كسر العادات الموروثة والثقافة القبلية لصالح دين الله والمبادئ القرآنية السامية.

كم من الجهد والمثابرة تحتاجه زينب بنت جحش لكي تتغلب على القوى المجتمعية التي ترفض مثل هذا الزواج، لقد بدا ذلك واضحاً عندما رفضت زينب عرض الزواج في المرة الأولى بحجة عدم التكافؤ، محكمة بنظرة المجتمع والقبيلة. يحاول رسول الله إقناع ابنة عمته بالزواج ويزكي زيداً حتى تلين زينب وتوافق بالنهاية بعد توسط رسول الله إكراماً لمكانته.

لا شك أنها تضحية ثمينة تلك التي أقدمت عليها زينب، كسر السائد في المجتمعات الساكنة غير المتجددة لا يقدر عليه إلا العظماء أصحاب النفوس الراقية، إنه قرار بمواجهة مجتمع قبلي بامتياز لصالح مبادئ وقيم غاية في الرقي والإنسانية، قرار قد يجعل منها محور حديث نسوة المدينة، واستنكار أقرانها بل وشماتة مبغضها.

بعد هذه الخطوة الجسورة، وبمباركة رسول الله ورضائه وبعد شهر قليلة تدب الخلافات بين الزوجين، وتستحيل الحياة إلى خلاف وكدر. رسول الله يتابع ما يحدث، زيد في حكم ابنه، وزينب ابنة عمته، ولولاه ما وافقت على هذا الزواج، يرى المعاناة واضحة، والنصيب الأكبر يقع على زيد بنص القرآن لا كما يقول المفسرون إن زينب لم تطيقه بعد الزواج. قد يكون صحيحاً أن زينب لم تقبل زواج زيد في البداية بسهولة بسبب الإرث القبلي والضغط المجتمعي، ولكن بعد الزواج الأمر اختلف تماماً كما يحكي القرآن. الآية الكريمة تروي لنا ماذا قال رسول الله لزيد عندما جاءه شاكياً بل راغباً في المفارقة، قال له رسول الله (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ)، أمسك عليك زوجك تعني أن زيدا يريد الطلاق، واتق الله تعني أن رسول الله رأى من زيد ما جعله يقول له اتق الله، أي أن زيدا في علاقته بزینب لا يتقي الله أو يتجاوز فيها.

غفل المفسرون عن جملة اتق الله، وهي الجملة التي تحل الإشكالية وتوضح ما الذي كان يخفيه رسول الله ثم الله أظهره، لم يتساءل أحدهم ما الذي يدفع رسول الله أن يقول لزيد اتق الله؟ رسول الله لا يقول ذلك إلا إذا رأى ما يبرر ذلك القول. يبدو جلياً أن زيدا تجاوز في حق زينب وهذا التجاوز لا يرضي رسول الله.

الجزئية الثانية التي أحدثت ارتباكاً واضحاً في فهم المفسرين هي (وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ). رغم قول المفسرين أن ما يخفيه رسول الله هو حب زينب، وهذا القول لا دليل عليه سوى الأماني والخيالات النفسية، إلا أننا سوف نضع هذا القول من ضمن الاحتمالات الواردة لفهم الآية.

بحسب الآية الكريمة ما أظهره الله شئين، كما وضحت الآية الكريمة أولاً طلاق زيد من زينب، ثانياً زواج الرسول من زينب. ذهب فريق المفسرين إلى أن ما أخفاه الرسول في نفسه هو حب زينب وهذا ما لا دليل عليه، إذ أنه حالة نفسية لا يمكن الاطلاع عليها ولا يوجد ما يبرح هذا الاحتمال، الفريق الآخر ذهب إلى أن ما يخفيه رسول الله هو زواجه

من زينب، إذ أن الله أخبره بذلك على حد زعمهم. لا يوجد أي دليل على أن الله أخبر نبيه أنه سوف يتزوج زينب وهي متزوجة رجل آخر، بل القرآن يعارض ذلك صراحة كما بينا في سورة طه.

(وَلَا تُمَدِّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ) (سورة طه، آية 131).

ثم أن زواج زينب من الرسول كان وقتها أمر غيبي ورسول الله لا يعلم الغيب، كما قال الله (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (الأعراف، آية 188).

ومن يقول إن الله أطلعه على الغيب فلا بد أن يسوق الدليل الواضح القطعي دون أي لبس أمام هذه الآية، أما القول إن الله أطلعه على زواجه من زينب دون أي دليل فهو افتراء على الله، وقول ما أنزل الله به من سلطان، بل يدحضه القرآن نفسه. يبقى لدينا الأمر الثاني الذي أظهره الله، وهو طلاق زينب من زيد، فهل يمكن لرسول الله أن يخشى الناس في أمر كهذا؟ الإجابة بكل وضوح نعم، عندما يكون هو السبب المباشر في زواج زينب من زيد ثم يرى معاناة زينب وسوء معاملة زيد لها ورغبة زيد في المفارقة، ثم يقول له أمسك عليك زوجك واتق الله، هو هنا يتحسب الناس ويخشى مقالة الناس أن زيداً طلق زينب وهي ممن هي وزيد بالنهاية مولى رسول الله. لك أن تتخيل كم الحرج الذي يمكن أن يسببه هذا الطلاق لزينب من ناحية إذا طلقها زيد الذي يخدم رسول الله ابن خالها، وكذلك الحرج الذي سوف يسببه هذا الطلاق لرسول الله من أنه كان السبب المباشر في هذا الزواج. من يدرك الواقع الاجتماعي والبيئة التي حدثت فيها هذه الحادثة يعلم أن طلاقاً كهذا بين من يدعوه رسول الله ابنه وقد كان مملوكاً، وبين ابنة عمته فتاة قريش، أمراً جلالاً وحدثاً ليس هين على زينب وعلى رسول الله.

يتضح لنا من سياق الآية الكريمة، أن ما كان رسول الله يخفيه هو رغبته في طلاقها، حتى تتخلص من تلك المعاناة ولكنه يخشى مقالة الناس، فنبه ربه أن الله أحق أن تخشاه، إذ أن أمر الطلاق في هذه الحالة لا مناص منه، وليس شيئاً مشيناً حتى يخشى الناس فيه. إنه توجه إلهي حكيم في اتباع الحق ووزن الأمور بميزان الحكمة، لما فيه مصلحة الأطراف المتضررة دون أي اعتبار لعادات أو موروثات مجتمعية بالية ما أنزل الله بها من سلطان.

عبارة فلما قضى زيد منها وطراً تحمل أيضاً ملهحاً هاماً، وجزءاً تكهلياً يبين كيف كانت العلاقة بين زيد وزينب. كلمة وطر أصلها كما في قاموس اللغة الحاجة والنهم، ولكن من خلال تقارب صوت لفظ الوتر، ووتر العود معروف مع صوت وطر، ووتر العود معروف، ومن خلال مدلول الكلمة في القرآن نجد أن معنى الوطر تحمل في طياتها الرابطة التي تربط شيئين.

أما كلمة قضى تعني إنهاء وإتمام أمر ما. وعلى ذلك يكون معنى قضى وطراً أي أنهى، أي علاقة أو رابطة بينهما، بمعنى لا سبيل لرجوع كليهما للآخر مرة أخرى. قطع الروابط أشمل وأعم من كلمة حاجاته ونهمه، فقد يقضي الإنسان حاجته ونهمه ولكن تظل تربطه بالطرف الآخر علاقة تُبقي كليهما في دائرة اهتمام الآخر، ولكن معنى الوطر بالرابطة التي تربط الشئيين أي أن زيدا أنهى كل رابطة بينه وبين زينب. هذه الإرادة التي توافرت لدى زيد كما يقص القرآن وجعلته هو الذي ينهي هذه العلاقة تزيد بالطبع الجرح النفسي لدى ابنة عمه رسول الله ويزداد همها همماً آخراً.

سؤال يطرح نفسه إذا كان ذلك كذلك وأن رسول الله ما أخفى حبها وما سعى لزواجها، لماذا تزوجها رسول الله؟ القرآن الكريم ليس كلاماً من عند محمد، وإنما هو كلام رب العالمين، والآية الكريمة تقول إن الله زوج رسوله من زينب، ولا تشير إلى أي رغبة للرسول في هذا الزواج، فالأمر صريح وهو (فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَا كَهَا)، ثم علل ربنا هذا الزواج لثلاث أسباب للناس حجة في أزواج أديعائهم.

تزوج السيدة زينب من رسول الله بأمر مباشر من الله لا شك أنه أمر عظيم وتكريم هي له أهل، ولعل زواجها من رسول الله هو المكافأة التي نالتها على التضحية الغالية التي بذلتها في كسر السائد في المجتمع القبلي الذي يضع حدوداً وفوارقاً لا يمكن تخطيها بين الناس بعضهم البعض. لا شك أن قبول زينب هذا الزواج لهو تحول لا مثيل له في المجتمع نحو المساواة ورفض العنصرية تحت راية لا إله إلا الله. بما أن رسول الله كان طرفاً مباشراً في هذه القصة، وهو بالأساس ابن خالها، فجاء الأمر الإلهي بزواجها من رسول الله، أعلى وسام يمكن أن تتأله. كان هذا الزواج تكريماً لزينب للدور الذي قامت به طاعة لله ولرسوله، وفي نفس الوقت كان زواجها إيذاناً بقطع علاقة التبني والتي كانت تقوم على أساس زائف، وهي اعتبار الابن بالتبني هو ابن بيولوجي، وهذا على غير الحقيقة.

كما كان زواج زينب نقطة تحول في عادات القبيلة الراسخة تحت تأثير المنهج الرباني، صار طلاقها ثم زواجها من رسول الله نقطة تحول أخرى في إبطال عادة زائفة، إنه التشريف الأسمى من قبل ربنا لزينب بعد تضحية عظيمة قدمتها وتجربة رائدة عاشتها.

لقد جسدت زينب حركة ثورية بامتياز، وكسراً لعادة عتيقة ما كان لها أن تنكسر بسهولة، فاستحقت عن جدارة أن تصبح رائدة من رواد هذه الدعوة. لا شك أن تزوجها الذي نزل في كتاب الله هو تشريف لها على ما قامت به وتحملته رغبة إلى الله وطاعة لرسوله.

هل بعد هذه الحادثة انقطعت علاقة زيد برسول الله؟ على العكس تماماً، زيد ابن حارثة كان يُلقب بحب رسول الله، وكان رسول الله يكرمه ويقربه، حتى أنه بعثه على رأس جيش لملاقاة الروم فيما يسمى بغزوة مؤتة. وكان في الجيش ابن عمه جعفر بن أبي طالب، ولما وصل إلى رسول الله خبر مقتل ثلاثة من قواد الجيش وهم زيد وجعفر وعبد الله ابن رواحة، صلى عليهم ودعا لهم، وبدأ يزيد وقال اللهم اغفر لزيد، اللهم اغفر لزيد، اللهم اغفر لزيد، ثلاث مرات. لم ينقطع ود رسول الله لزيد حتى بعد وفاته، فهذا هو يضع أسامة بن زيد

على رأس جيش فيه كبار الصحابة قبيل وفاته صلى الله عليه وسلم، تكريماً لزيد وابن زيد. إنه الصادق الأمين، والرحمة المهداة، والرفق اللين والحياء تمشي بين الناس.

يبقى لنا ملاحظة أخيرة وهي ذكر اسم زيد صراحة في كتاب الله. من خلال منهجنا نعتقد أن جميع الأسماء في كتاب الله هي أسماء حقيقية تصف المسمى بكل دقة؛ وبناء عليه فإن اسم زيد لا بد أنه يصف هذه الشخصية ويحدد ملامحها. هل يمكن أن تكون الزيادة هي أحد صفات هذه الشخصية؟ الزيادة تعني المبالغة في الانفعالات ورد الفعل. هذا ليس جزءاً بشئٍ وإنما فقط ملاحظة من خلال اسم زيد الوارد في كتاب الله. سؤال أخير هل هذه الشخصية كان اسمها زيد منذ البداية أم أن كان لها اسم آخر، ثم انطبق عليها اسم زيد بعد نزول القرآن وتداول الناس الاسم القرآني وتركوا الاسم القديم؟ هو مجرد تساؤل نضعه أمام المحققين والباحثين لفهم أكثر لهذه القصة والحادثة في كتاب الله.

## الفصل الثاني عشر: إنك لعلی خلق عظیم

إنك لعلی خلق عظیم؛ هل هذا التعبير القرآني وصف أخلاق رسول الله؟ إنها آية بسيطة عليها إجماع تام أن المقصود هو أخلاق رسول الله صلوات ربي عليه. عند تحليل ألفاظ الآية وفهم السياق وجدنا أنها تعني شئ آخر تبعا لكتاب الله . الآية الكريمة التي أعني هي الآية الرابعة في سورة القلم (وَأَنَّكَ لَإِلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) (سورة القمر آية 4).

من أين جاء هذا التفسير وهذا التأويل؟

العرب تقول على التصرفات والسلوك خلق وهذا اللسان لسان العرب ولذلك عندما سأل الناس عن هذه الآية لم يكن لدي المفسر سوى رسول ينطبق عليه هذا القول وهو بالفعل صاحب التصرفات والسلوك القويم.

لننظرنا إلى كتاب الله سوف ندرك إن اللسان العربي الخاص بالقرآن لم يذكر التصرفات وسلوك الإنسان بالأخلاق مطلقاً وليس ثمة كلمة واحدة تدل على هذا المعنى سوى هذه الآية التي زعم المفسر أنها تعني سلوك رسول الله.

سورة القلم من بدايتها تتحدث عن بدايات الأشياء وكما ذكرت في هذا الكتاب فصل علم بالقلم أن المقصود بنون هو المادة الأولية التي جاء منها الخلق وأن القلم هو الآلية التي انتظمت بها هذه المادة تعطي بالنهاية التصميمات الرائعة لكل الخلائق.

عندما تأتي الآية الرابعة في سورة القلم لتتحدث وإنك على خلق عظیم بعد الإشارة العظيمة لبدايات الخلق وكذلك بالنظر إلى مادة خلق وهو تصف الخلق والتكوين المادي أيضا سندرك على الفور أن الخطاب هو خطاب للإنسان بصفة عامة يشير إلى عظمة خلقه وتكويناته التي أدت بالنهاية إلى ظهور هذا الإنسان.

لهذا اللفظ تحديدا نظير آخر في كتاب الله هو اللفظ الوارد في سورة الشعراء.



(إِنْ هَذَا إِلَّا خُلِقَ الْأَوَّلِينَ) (سورة الشعراء، آية 137).

خلق الأولين هنا ليس معناه اختلافات الأولين أو أكاذيب الأولين كما جاء في بعض التفاسير وإنما تعني أن هذا الذي تدعيه إنما من صنع الأولين. الأولين هنا لا تعني الآباء والأجداد بل هي تعني السابقين أو تعني بمفاهيمنا المعاصرة الطبيعة أو الطاقة العمياء الشيء الأول الذي بدأ منه الخلق بدون خالق.

هذا القول هو محاولة لدحض فكرة الخالق واعتبار أن الخلق إنما جاء من ترتيبات أخرى غير التي يذكرها الرسل. إنها ببساطة محاولة للهروب من فكرة الخالق وفكرة الإله الذي يرسل تكليفات إلى فكرة خلق جاء من المجهول ولا حاجة إلى تكليفات.

الدليل الذي لا يقبل الشك في أن الآية الكريمة تتحدث عن الخلق وأن القوم يرفضون فكرة الخالق الحكيم والذي يطلب منهم تكليفات هو أن هذه الآية سبقها آيات تتحدث صراحة عن الخلق المادي ، بأنعام وبنين وجنات وعيون .

(وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (132) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (133) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (134) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (135) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (136)) (سورة الشعراء، آيات 132-136).

لفظ خلق تعني الخلق والتكوينات المادية للأشياء القائمة بالفعل أو التصميمات الملموسة وليست تعني السلوك كما أجمع عليه المفسرون. ما يقارب مائتي موضع في كتاب الله ذكرت مادة خلق جميعها يصف الخلق المعروف ولا تصف ما يسمى بسلوك الإنسان إلا ما ادعاه العرب على هذه الآية والتي لا يؤيده سياق الآيات ولا مادة الكلمة .

حتى تكتمل الصورة لا بد أن نبث عن وصف الأخلاق أو وصف السلوك والتصرفات في القرآن وكيف وصفها الله سبحانه وتعالى.

وصف الله سبحانه وتعالى تصرفات الإنسان بلفظ العمل وقد جاء هذا اللفظ في مواضع عديدة في كتاب الله موصوفاً بالصلاح ومرة بالسوء . كذلك كثيراً ما يأتي لفظ العمل بعد وصف الإيمان بالله وهو ما يعني تصرفات الإنسان وسلوكه.

(إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰرِئِينَ وَالصَّبِيَّانَ مِنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (سورة البقرة، آية 62).

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ) (سورة آل عمران، آية 195).

من الآيات التي توضح إن مفهوم عمل يصف تصرفات وسلوك الإنسان بشكل عام هي الآية التي وصف الله بها ابن نبي الله نوح من انه عمل غير صالح ولم يقل الله أنه فعل غير صالح.

(قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۗ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) (سورة هود، آية 46).

اللفظ القرآني وصف أصحاب السلوك القويم بأنهم من الذين يعملون الصالحات بينما أصحاب السلوك المنحرف بأنهم يعملون السوء.

هذا هو أحد الفروق بين لسان العرب الذي توهم أن لفظ خلق بضم الخاء يصف سلوك الإنسان فجاء القرآن يضبط هذا الوصف من خلال اللسان العربي المبين ويقول للإنسان أن لفظ خلق ومادة خلق تعني الخلق والتكوينات ولا تعني سلوك وتصرفات.



## الفصل الثالث عشر: فقد ر عليه رزقه

لا شك أن فكرة أن الله يبتليك لسمع صوت دعائك وأنه يريد أن يرفع قدرك فكرة جذابة، ولكن للأسف فكرة تزيد الطين بله. فبدلاً من أن يتحرك المسكين ليصحح الأخطاء ويبحث عن سر تعاسته ويصوب الخطأ أو حتى يعترف بدوره أو حتى دور المجتمع الذي يحيط به في هذه التعاسة، تراه يركن إلى اعتقاده الزائف بأنه ذو مكانة مرموقة عند الله وينسى قول الله تعالى.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (سورة النحل : آية 97).

ندخل مباشرة إلى آيتين في كتاب الله في سورة الفجر، تتحدثان عن الإنسان العادي غير المبادر بالخير وفي نفس الوقت غير المعتدي بالمعنى الشامل. سوف نتعرف من خلال هاتين الآيتين، هل حقاً يصيب الله الإنسان بالمصائب كاختبار، دون أن يكون الإنسان مستحق لهذه المصائب؟ ولماذا فكرة الحياد ( السليبي ) فكرة ليست في صالح الإنسان بل وسبب مباشر لعدم توفيقه في حياته بل وسبب في إهاتته في هذه الحياة.

الابتلاء الذي فسره المفسرون أنه نوع من الاختبار هو في الحقيقة ليس كذلك. البلاء هو وقوع الشيء وتحققه. الله يبتلي الإنسان بشيء أي يقع ويتحقق هذا الشيء للإنسان بغض النظر عن كونه خير أو شر. الابتلاء في القرآن الكريم مقترن بالتقديرات ولا يأتي من خارجها، بمعنى أن الله يبتلي الإنسان وفقاً للقوانين والتقديرات وحتميات الوجود التي وضعها الله لتسيير هذا الكون. الطالب المجتهد يبتلي بالنجاح والطالب المستهتر يبتلي بالفشل، هكذا يتم تصميم الاختبارات. هناك أيضاً رافة ورحمة ولكن ليست مشاعاً لكل أحد وإنما هي للمحسنين كما سوف نرى.

سوف أكتفي بآيتين في سورة الفجر تعطينا لمحات عن الإبتلاء وكيف أن الله سبحانه وتعالى لا يبتلي أحد بشئ بشكل مجاني ولكنها أفعال الإنسان ردت إليه.

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16)) (سورة الفجر، آيات 15، 16).

الابتلاء المذكور في الآيات نوعين لا ثالث لهما:

النوع الأول: ابتلاء الفضل والزيادة، أي وقوع الفضل والزيادة في حق الإنسان، أي أن الله يمن على الإنسان فوق ما يستحق، وعندها يقول الإنسان ربي أكرم.

النوع الثاني: ابتلاء الاستحقاق، بمعنى أن الإنسان يأخذ ما يستحق فقط بالعدل دون إحسان أو فضل وهذا هو قول الله (فقدر عليه رزقه).

قدر عليه رزقه أي جعل رزقه ( ما يحصل عليه ) خاضع للأقدار والقوانين ليس فيها فضل ولا إحسان ولا زيادة، وعندها سوف يقول الإنسان ربي أهان. ليس هناك أي إشارة إلى إن الله يصيب الإنسان بشئ بشكل مجاني دون أن يكون مستحق لذلك.

الآيات تتحدث عن الإنسان العادي وليس المبادر بالخير أو المجرم أو المعتدي بدليل الآيات التالية التي تتحدث عن السبب الرئيسي لحرمان الإنسان من الفضل والإحسان الإلهي.

(كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ (17) وَلَا تَحَاضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ (18) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا (19) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (20)) (سورة الفجر، آيات 17-20).

الآية الأولى: تتحدث عن السبب الأول الذي يمكن أن ينزع عن الإنسان فضل الله وهو عدم إكرام اليتيم. لاحظ هنا لم يقل قهر اليتيم أو ظلم اليتيم فالذين يأكلون أموال اليتامى أو يتسببون في قهرهم أو ظلهم بأي حال من الأحوال توعدهم الله بالويل والعذاب وهم خارج نطاق هذه الآية. الآية تتحدث عن فضل الإنسان وإحسانه إلى اليتيم والذي هو فوق العدل.

ربما يتخذ الإنسان موقفاً متعادلاً من اليتيم لا يظلمه ولكن في نفس الوقت لا يكرمه. هذا الموقف المحايد كفيلاً أن تلفظك العناية الإلهية وأن تحرم الفضل والزيادة. الآية الثانية تتحدث عن الحض على طعام المسكين، والحض يعني التشجيع والتحفيز على طعام المسكين. مرة أخرى لم تتناول الآية سارق طعام المسكين أو مانع طعام المسكين إنما تتناول الشخص السلي الذي لا يبالي بغيره ومكتفي بنفسه. لقد تم شرح معنى الحض على طعام المسكين في سورة الماعون وكيف أنها تمثل الحد الأدنى للخير في الجزء الأول من الكتاب.

الآية الثالثة: تتحدث عن أكل التراث، عندما فسر المفسر القديم التراث قال أن أصلها الوراث وقلبت الواو تاء للتخفيف. الأمر ليس كذلك، أكل الميراث (الوراث) موجب للعذاب وليس لمحجبة نعممة الله فقط ولكن التراث هنا هو الأشياء المبعثرة التي ليس لها مالك محدد، أو أملاك أو أشياء مشاع لكل الناس فيأتي أكل التراث هذا يكثر هذه الأشياء بطمع ونهم بل ويمنع عنها غيره. جامع التراث أو الأشياء التي تقع في ملك الجميع أو ليس لها صاحب محدد والاستئثار بها يظن أنه لم يفعل خطأ. الحقيقة كما تشير الآيات أن هذه النفوس الأنانية هي في الحقيقة منعت الفضل عن الناس واستأثرت به. جزاء هذه النفوس هو جنس ما صنعت فسوف يمنع عنهم الله فضله ونعمته. فإن أدركتهم مصيبة سوف تجرى عليهم الأقدار دون رحمة ودون فضل من الله.

الآية الرابعة: تتحدث عن حب المال، وحب المال (كل ما يملكه الإنسان) في ذاته ليس فيه شيء إن كان باعتدال، لكن التطرف في حب المال والذي يدفع الإنسان لمنع الخير رغبة في زيادة الجمع، أو الصمت في مواقف الباطل تجنباً لفقد المال، أو تماهياً مع مصالحه، هو المقصود بالذم في هذه الآية.

هؤلاء السلبيون ما إن يتعرضوا لموقف عصيب إلا وسوف تجري عليهم الأقدار بكل عدل ولن يظلموا ولكن في نفس الوقت ليس لهم نصيب في فضل الله ونعمائه التي تمنع

المصائب كما تخبرنا الآية. رغم أن كثير من العقلانيين ينفون التداخلات الإلهية المباشرة وأن كل شيء يسير وفق قوانين محددة إلا أن هذه الآيات تعطينا بعدا آخر وتشير إلى العناية الإلهية وعين الله التي ترعى الطيبين ولكنها رعاية مشروطة، وكأنها مقدره ومحددة سلفاً لأولئك المبادرون الذين يكرمون اليتيم ويحضون على طعام المسكين، القانعون غير الطامعين ولا المانعين فضل الله والذين ينفقون مما يحبون.

إن كنت ترغب في أن ترعاك عناية الله فكف عن الحيادية السلبية وبادر. إن لم تبادر وفضلت البقاء في المنطقة المريحة فلن يظلمك الله شيئاً ولكن سوف تفقد هذه العناية الكافية بإصلاح كل عيب وستر كل نقص. للتعرف على نظرية الشر وسورة الفلق أنظر الجزء الثالث من كتاب تلك الأسباب.

## الفصل الرابع عشر: يسعون في الأرض فساداً

لن أتحدث عن الآيات الكثيفة التي تحض على حرية العقيدة وحرية الإنسان في اختيار ما يرغب في اعتناقه دون أي عقاب دينوي، فهذا الأمر قتلٌ بحثاً وصدماً ورداً وكل حزب بما لديهم فرحون. ما سوف اتناوله في هذا الفصل هو شرح آية واحدة لنبين للناس الفرق بين التوجيه الرباني الخالص وبين التوجيه البشري المشوب بالتعقيدات السياسية والنفسية والاجتماعية.

لم يصدر الأمر للناس بقتل أحد داخل المجتمع بشكل قطعي في كتاب الله إطلاقاً وضع تحت إطلاقاً مائة خط، وإنما كان توجيهاً للمجتمع باستخدام الخيارات المتاحة قدر الإمكان وتقليل الخسائر قدر المستطاع.

لدينا في كتاب الله آيتين فقط تتحدث عن أمر القتل وكيفية تعامل المجتمع مع هذا الأمر.

الآية الأولى هي آية القصاص وقد تم شرحها بالكامل في فصل القصاص خلال الجزء الثالث من الكتاب ولا داعي لإعادته هنا.

الآية الثانية والتي سوف نتناولها هنا هي الآية في سورة المائدة.

(إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا  
أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ  
فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (سورة المائدة ، آية 33).

من خلال هذه الآية نجد أنه لا بد من توافر شرطين لإنزال العقاب وهما: الشرط الأول: محاربة الله ورسوله وتعني عداً علي لكل أمر بالإحسان وأمر بالقسط أنزله الله في كتابه. الاجتهاد أو المسائل التي تحتل التأويل لا تعد محاربة لله ورسوله ولكن المحاربة لا بد



إن تكون في أمر واضح لا لبس فيه. لقد أوضحت الآية السابقة لهذه الآية شكل هذه المحاربة من خلال عبارات وجيزة.

(مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي

الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ) (سورة المائدة، آية 32).

محاربة الله ورسوله كما نفهم هنا هو تعمد إضرار الناس بشكل واضح ومعتمد.

الشرط الثاني : هو السعي في الأرض بالفساد وهو كذلك الأضرار الشديد المتعمد.

تكامل هذين الشرطين يعني أن هؤلاء المعنيون في الآية لا بد أن يكونوا من المجرمين الذين يبغون الإضرار بشكل متعمد وهذا الإضرار ليس وليد جهل بل مع هو إضرار بعد معرفة بعدم جوازه وأنه ضد الأمر بالمعروف الذي أرشد عنه الله ورسوله.

شرطان لا يتحققان إلا في مجرد ضال لا يقيم وزناً لشيء ولا يراعى حرمة محرم. هل مع

تحقق الشرطين جاء العقاب بالقتل؟ لقد أنتقل كتاب الله بعد تحقق الشرطين إلى دفع أربع احتمالات لإزالة العقوبة. لم تأتي الآية الكريمة تخبرنا أنه من حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فساداً يقتل كأمر نهائي قاطع.

إنما جاءت بوضع حد أعلى وهو القتل وحد أدنى وهو النفي من الأرض. إذن

الاحتمالات هي: القتل هو الحد الأعلى، ثم الصلب (لا يصل للقتل بالطبع) وهو أقل درجة،

ثم قطع الأيدي والأرجل من خلاف، ولا بد كذلك أن يكون أقل درجة من الصلب، ثم

أخيراً النفي من الأرض. وجود الاحتمالات يعني أن المجتمع هو من يقرر بناء على الخطوط

العامة التي وضعها الآية وبناء على حاجته، هذا يفرض أن المجتمع سليم وغير فاسد.

لقد ذهب القرآن أبعد مما نتخيل وأبعد من أرحم القوانين في أكثر الدول المتصدرة

حقوق الإنسان عندما استثنى الذين تابوا من احتمالات هذا العقاب قبل القبض عليهم عندما

قال في الآية التالية:

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ<sup>ط</sup> فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (سورة المائدة، آية 34).

حتى ندرك ماذا حدث لدين الله الذي ارتضاه للناس، تخيل في ظل وجود هذه الآية والإرشاد الرباني الواضح، خرج أحدهم وقال بكل ثقة من حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فساداً فإنه يستتاب أو يقتل كأمر قاطع وجازم.

هل القائل بذلك امثل أمر الله أم أنه احتكر الأمر الإلهي وقطع وجزم وافترى على الله كذباً وضيق أمر الله؟ رغم أن الآية الكريمة أعطت مثال لجرم عظيم بل يكاد أن يكون الدرجة القصوى من الإجرام، ومع كل هذا كان التوجيه القرآني هو إعطاء المجتمع خيارات للتعامل مع هذه الحالات وفق تقديرات عادلة وليست قرارات متشنجة.

لقد أفتى رجال بقتل الناس في أمور هينة لا تصل إلى ما وصلت إليه الآية الكريمة محتكرين الرحمة الإلهية ومصادرة الإسلام لصالحهم. أين هذا التوجيه الرباني من فتوى القائل (من لم يقل إن الله فوق سمواته على عرشه فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل) مسألة كهذه مسألة فلسفية ليس فيها محاربة لله ولا رسوله ولا سعى في الأرض فساداً ومع ذلك تم إصدار حكم القتل عليه كمن يشرب الماء.

فتوى أخرى (من قال إن الله لم يكلم موسى تكليماً يستتاب فإن تاب وإلا يقتل) مرة أخرى مسألة تأويلية اجتهادية ليس فيها محاربة لله ولرسوله بل هي مسألة فكرية بحتة والتحريض على من يتناولها بهذا الشكل هو عين الإرهاب الفكري والافتراء على الله.

للاسف الناس في غفلة غير مبررة تجدهم يناصرون أفكاراً ضد كتاب الله وضد كلمات الله ولو وقفوا قليلاً أمامها ما تجرء أحدهم على تبني ما لم يحط به علماء.

لماذا يصر هؤلاء المساكين على حمل أوزار مع أوزارهم، ومشاركة آخرين جرائمهم من خلال نشر ودعم وتأيد فتاوى يظهر بكل وضوح انحرافها وشدوذها. ما هذه الثقة التي تجعل

إنسان يزج بنفسه مع آخر دون ان يفكر وما هي الحججة التي سوف يقدمه لله عندما يسأله لماذا ناصرت وأيدت بكل هذا الحماس ما لا تعلم؟ الأمر ليس نزهة و الكلمة ليست هينة والرقيب لا يغفل ولا ينام.

(وَكُلِّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ <sup>ط</sup> وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا) (سورة

الإسراء، آية 13).

تم بحمد الله.



## المصادر

1. لسان العرب لابن منظور (دار المعارف) 2008.
2. المختار الصحاح (مكتبة لبنان) 1995.
3. معجم مقاييس اللغة لابن فارس (المكتبة الوقفية) 1979.
4. كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (دار الكتب العلمية) 2003.
5. القرآن والكتاب، محمد شحرور 2011.
6. الاسلام والانسان، من نتائج القراءة المعاصرة محمد شحرور 2016.
7. القصص القرآني، محمد شحرور 2010.
8. الأنطياكي، محمد، دون تاريخ، الوجيز في فقه اللغة، الطبعة الثانية.
9. د. هدرسن، علم اللغة الاجتماعي، ترجمة د. محمود عبد الغني عباد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1987.
10. الحاج، كمال يوسف، في فلسفة اللغة، الطبعة الثانية - 1978.
11. د. جمعة سيد يوسف، سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت 1990.
12. د. جمعة سيد يوسف، الدراسات النفسية للغة، في علم النفس العام، دار أتون للطباعة والنشر، القاهرة، 1988.
13. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: فؤاد علي منصور، الطبعة الأولى - 1998.
14. ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، - بيروت، تحقيق: محمد علي النجار. 1999.

15. رضوان القضماني، علم اللسان، مؤسسة دار الكتاب الحديث، بيروت 1984.
16. ابن عبد الله القسطنطيني، مصطفى، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، الطبعة الأولى - 1992.
17. د. أحمد عبد الرحمن حماد، عوامل التطور اللغوي ط 1، دار الأندلس، بيروت 1983.
18. قدور، أحمد، المدخل إلى فقه اللغة العربية، جامعة حلب، دون طبعة، 2003.
19. د. مصطفى المصمودي، النظام الإعلامي الجديد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت 1985.
20. د. عبد المجيد عمر، منزلة اللغة العربية بين اللغات المعاصرة دراسة تقابلية 2016.
21. موسوعة النمل رياض احمد العراقي ومعن عبد العزيز جميل، 1971.
22. نايف خرما، وعلي عجاج، اللغات الأجنبية تعليمها وتعلمها، سلسلة عالم المعرفة، الكويت 1988.
23. د. أحمد عبد الرحمن حماد، عوامل التطور اللغوي ط 1، دار الأندلس، بيروت 1983.
24. كولن ولسن - ترجمة سامي خشبة، الإنسان وقواه الخفية 1978.
25. Lukasz Staszewski, Lightning Phenomenon – Introduction and Basic Information to Understand the Power of Nature, 2016.
26. Dan Robinson, Lightning Types and Classifications Storm Highway, Retrieved 2016
27. Ernest Bulows, Navajo Taboos for Nature, Domestic and Wild Animals, 2016.
28. René Descartes René, Descartes: Principles of Philosophy: Translated, with Explanatory Notes, (1979).
29. Thunderstorms, Tornadoes, Lightning, National Weather Service, Retrieved, 2016.
30. Palaeos Invertebrates, Palaeos invertebrates:Arthropoda, 2002.
31. Malcolm W. Browne, Evolution of insect flight, 1994.
32. Byrne, R.A., U. Griebel, J.B. Wood J.A. Mather, Squids say it with skin: a graphic model for skin displays in Caribbean Reef Squid, 2003.

33. Dolphins' Secret Language. Young People's Trust for the Environment, 2012.
34. Christiansen, Morten H.; Kirby, Simon , Language evolution. Oxford; New York: Oxford University, 2003.
35. Kohts. N. Infant ape and human child. Museum Darwinianum, Moscow, 1935.
36. Parapsychology Foundation Basic terms in Parapsychology, 2006.
37. James Randi Educational Foundation — An Encyclopedia of Claims, Frauds, and Hoaxes of the Occult and Supernatural. Randi.org. 2014.
38. Frazier, Kendrick, Paranormal Borderlands of Science. Buffalo, New York: Prometheus Books. 1981.
39. Blackmore, Susan; Trościanko, Tom (November 1985). Belief in the paranormal: Probability judgements, illusory control, and the <chance baseline shift. British Journal of Psychology. 76 (4): 459–468.
40. Carruthers, Peter. The Nature of the Mind: An Introduction. Routledge, 2004.
41. Carroll, Robert Todd, The Skeptic's Dictionary: A Collection of Strange Beliefs, Amusing Deceptions, and Dangerous Delusions. Hoboken, New Jersey: Wiley. 2003.
42. Harris, Ben Gellerism Revealed: the Psychology and Methodology Behind the Geller Effect. Calgary: M. Hades International 1985.
43. Richard Wiseman, Deception & Self-Deception: Investigating Psychics. Amherst, New York: Prometheus 1997.
44. Hansel, C.E.M, The Search for Psychic Power: ESP and Parapsychology Revisited. Buffalo, New York: Prometheus, 1989.
45. David F. Marks. The Psychology of the Psychic (2nd ed.). Amherst, New York: Prometheus, 2000.
46. Wolman, Benjamin B. Handbook of Parapsychology. New York: Van Nostrand Reinhold, 1977.
47. Jones, Warren H.; Zusne, Leonard, Anomalistic Psychology: A Study of Magical Thinking (2nd ed.). Hillsdale, New Jersey, 1989.



48. L. Erlbaum Panati, Charles, Supersenses, Our Potential for Parasensory Experience. New York: Times, 1974.
49. Randi, James. Flim-Flam!: Psychics, ESP, Unicorns, and Other Delusions (9th ed.). Buffalo, New York: Prometheus, 1987.